ناجي علوش

عن جدل الفكر والممارسة

يحس الذي يجلس في مقاهي بيروت ونواديها ويحاور كثيراً من مثقفيها واشباه المثقفين فيها ، مخلصين وانتهازيين ، أن الثورة الفلسطينية تعيش أزمة قاتلة . الثورة الفلسطينية هي شغلهم الشاغل ، وهي محور محاوراتهم ومهاتراتهم ، وميدان مناوراتهم ومفاخراتهم ، ولكنها في الوقت ذاته تسليتهم ومهربهم ومهزلتهم المتكررة .

انهم اذا سألوا فكي لا يفهموا ، واذا ناقشوا فكي لا يُقنعوا أو يَقنعوا ، واذا انتقدوا فكي لا يصححوا .

وهم اذا هاجموا فكي يبرروا هروبهم ،واذا فاخروا فكي يستروا اغترابهم ، ويحسوا أن لهم علاقة بما لا علاقة لهم به ، ولكي يبرروا لأنفسهم وللآخرين اشتراكهم في وليمة « النهش » المقززة .

وهم يحرصون على ان يظهروا أكثر حرصاً على الثورة من قادتها المخلصين ، ومقاتليها المتفانين ، ولكن حرصهم قتّال لأسباب عديدة :

اولها : يعود الى انهم يريدون أن يحملوا الثورة مسؤولية الثورة العربية الشاملة . يطلبون منها أن تحرك الجماهير العربية ، وأن تسقط الأنظمة التقدمية منها والرجعية برمشة عين وجرة قلم ؛ وباعلان يذاع من الاذاعة ؛ وأن تحقق الثورة العربية الشاملة ، الثورة الوطنية والديمقراطية والاشتراكية والشيوعية ، في وقت واحد ، وفي آن معاً ، الآن وقبل كل شيء . وهم لا يطلبون منها اسقاط الانظمة فحسب ، بل اسقاط الدين والتقاليد والتاريخ وتغيير عقول الناس وأشكالهم وتحويلهم من قراءة عنترة وابو زيد الهلالي الى قراءة ماركس

ولينين وماوتسي تونغ وتلاميذهم النجباء والبلداء .

ثانيها : يعود الى انهم يقيّمون الثورة بمقاييس عشوائية مزاجية لا تأخذ ظروفها بعين الاعتبار ، ولا تنطلق من الواقع ، ومن صراعاته وتعقيداته ، بل تنطلق من شطحات نظرية ، ليس لها علاقة بالماركسية او الباكونينية ، وليس من علاقة بين بعضها وبعضها الآخر. فهم يريدون أن تكون الثورة كما يتصورون، وان تتغير كلما تغيرت تصوراتهم ، وأن تكون «ماركسية» دون أن يبذلوا أدنى جهد لمعرفة الماركسية ، ودون مقدار حبة خردل من النضال الجدي .

ثالثها : يعود الى أنهم «هزليون» ، وثرثارون ، ليس لديهم الاستعداد للدفاع عن فكرة ، أو للتضحية في سبيل قضية . ولو اردنا ان نعرف عدد الذين استشهدوا منهم ، أو سجنوا ليلة واحدة في سبيل موقف ، او عملوا شهراً لانجاز مشروع ، لما وجدنا أحداً .

وهم لهذا كله ، وبهذا كله ، يحاولون الفرار من مسؤولياتهم : عبر مطالبة غيرهم بما هو عليهم ، واغراق الآخرين في جو العموميات والذبذبات ، ومحاولة سرقة اعجابهم بالثرثرة والمكابرة .

ولذلك فان الدور الذي يلعبه هؤلاء خطر لسببين :

الاول : لانه يحرم الثورة من «كوادرها» ، من مثقفين يستطيعون ان يكونوا عناصر فعالة وقائدة وموجهة ، الثورة أشد ما تكون حاجة اليها .

الثاني : لانه ينعكس بلبلة وتشويشاً في أذهان الجماهير ، وهو بدلاً من أن يعبئها ويزيدها ايماناً بالثورة والتحاماً بها ، يوقع فئات منها في دوامة الشك والريبة .

والثورة بالطبع ماضية قدماً ، تحقق انتصاراتها الكبيرة في ميادين مختلفة . أهمها ميدان توفير الحريات السياسية للجماهير كما لم تتوفر من قبل اطلاقاً بلجم قوى القمع والقوى المضادة للتقدم ، وباشراك الجماهير الواسعة في العمل السياسي، وبخلق المنظمات الجماهيرية . والثورة بحاجة الى النقد : النقد الباني المصحح الذي ينطلق من الحرص على استمرارها ونموها ، لا الى النقد الثرثار المشكك الذي لا ينطلق من فهم موضوعي لمشاكلها وقضاياها ، والذي يطرح القضايا جزافاً ، ويطلق الاحكام اطلاقاً عشوائياً . واذا كانت الثورة ماضية لا يوقفها مثل هذا النقد ، لأنه أجوف ولا يمثل فعالية منظمة ، فانه ينمي في الثورة وحولها اتجاهات متشنجة ومتعصبة ، تحتقر الثقافة والمثقفين ، وتمجد البندقية والممارسة ، نقيضاً للفكر والثقافة .

واذا كانوا يخافون مثل هذه الظاهرة ،وينتقدونها ،ويعتقدون بانها انحراف، فان الحل الوحيد هو ان يشاركوا في العمل ، ان يطرحوا الممارسة العفوية ، وان يجعلوا الممارسة الواعية خطوة متقدمة على الممارسة العفوية .

ولكن المثقفين ما داموا في الخارج فسوف يبقى صوتهم خارجاً وخارجياً.. لن يستطيع ان ينفذ الى الداخل ، ولن يكون له صداه المنشود في الداخل .

ولكن هل تعاني الثورة أزمة قاتلة حقاً ؟

ان ما تعانيه ، من وجهة نظري ، ليس الا مشاكل نمو . وتتجسد مشاكل النمو هذه في ثلاث :

الاولى : مشكلة خلق الكادر وخلق التنظيم في مجتمع متخلف لم تهيء الاحزاب السياسية والحركات السياسية لجماهيره خلال اكثر من نصف قرن اي قدر من الوعي السياسي والتنظيمي . وما يزيد الأمر تعقيداً ان الثورة تقوم بعملية البناء الأولية خلال الصدام .

الثانية : مشكلة العلاقات ما بين المنظمات الفلسطينية المختلفة ، ومشكلة تحويل التعدد والتناقر الى لقاء وتفاهم. وهذه مشكلة حقيقية من مشاكل الثورة، يقرر حلها او عدم حلها قدرة الثورة على تخطي عقبة اساسية من العقبات التي تواجهها.

الثالثة : مشكلة العلاقة مع الجماهير العربية ، ومع الانظمة العربية ، ومع الحركات الوطنية العربية . وهي ايضاً مشكلة اساسية من مشاكل الثورة ، لا تستطيع دون حلها ان تنمو نمواً طبيعياً ، وان تتقدم الى الأمام .

واذا كانت الثورة تحرز تقدماً في الميدانين الأولين ، فان الميدان الثالث ما زال يحتاج الى دراسة وحوار ، وما زال ينتظر الوصول الى التفاهم على صيغة تجعل الثورة الفلسطينية اكثر قدرة على النمو والتقدم ، وتجعل الحركات الوطنية العربية قادرة على القيام بدورها ، لا في تحرير فلسطين فحسب ، بل بتحقيق الحرية لاجزاء من الوطن العربي ، ان لم يكن للوطن العربي كله .

ومشاكل النمو هذه مشاكل طبيعية ، لا يمكن ان يكون نمو بدونها . وهي تختلف باختلاف الثورات واختلاف الظروف التي تحيط بها ، ولكنها موجودة على كل حال . ونحن نجابهها ، لا لاننا نواجه وضعاً خاصاً ، بل لأننا بدأنا ثورة .

فكيف كان انفعال المثقفين امام مشاكل النمو هذه ؟

لقد اثبتوا ما يـــلي :

اولاً : انهم عاجزون عن التحليل ، وعن فهم طبيعة القوى المتصارعـــة والمتحالفة او المتصارعة المتحالفة ، وامكانيات تطورها ونموهـــا . ولانهم كانوا عاجزين عن التحليل فقد كانوا عاجزين عن اتخاذ الموقف المناسب في المكان والزمان المناسبين .

ولعل اهم ما يجب ان يشار اليه هنا ، هو ان بعض حامـلي لواء الماركسية كانوا اعجز الناس عن التحليل ، واعجزهم عن اتخاذ المواقف الصحيحة .

ثانياً : انهم يؤثرون الجمـــل الرنانة والكلمات الطنانة على التحليل وعلى العمل ، وعلى الممارسة ، وهكذا تصبـــح الفذلكات السفسطائية والمواقف الانشائية هي الطابـــع العام لحوارهم .

ثالثاً : انهم ملولون ومتذبذبون ، يكونون قوميين فيصبحـــون ماركسيين لينينيين ، ويكونون ثوريين فاذا بهم اصلاحيون . الملل والتذبذب وخيبة الأمل هي الطابـــع العام لسلوكهم ولتصرفاتهم .

رابعاً : انهم ممزقون ومصابون بالفصام السياسي ، فهم ضـــد الأنظمة ، تقدميّها ورجعيهـــا ، ولكنهم في الوقت ذاته ، موزعون على هذه الأنظمة . منهم من هو مع هذا النظام ، ومنهم من هو مع ذاك . ومنهم من يدافـــع عن هذا او ذاك ؛ وكأن النظام الذي يتبنون او الذي يدافعون عنه ليس جزءاً من الانظمة التي ينتقدون ويهاجمون .

ولما كان « جدل » الثورات غير « جدل » المقاهي ، فان الثورة الماضيـــة قدماً ، تتعثر او تتراجع او تتوقف احياناً ، ولكنها تثبت القدرة دائماً على حل مشاكلها ، ومعالجة قضاياها .

اما المثقفون الثرثارون الذين اختاروا الرصيف ، فسوف يظلون على الرصيف مثل العوانس ، بينما تخرج الثورة مثقفيها المعطائين الذين يفهمون جـــدل الفكر والممارسة .

ناجي علوش

١ ــ الوصية

١

أفتحُ صندوقَ أبي
أمزّقُ الوصيّهْ
أبيــع في المزادِ ما ورثتُــــهُ :
(١) مجموعــةُ المسابحِ العاجيّهْ
(٢) طربوشَهُ التركيَّ ، والجواربُ الصوفيّهْ
(٣) وعلبــةُ النشوق ، والسماورُ العتيقُ ، والشمسيّــهْ
أسحبُ سيفي غاضباً
وأقطعُ الرؤوسَ ، والمفاصلَ المرخيّهْ
وأهدمُ الشرقَ على أصحابه
تكيّةً .. تكيّهْ.

٢

أفتحُ صندوقَ أبي
فلا أرى ..
إلا دراويشَ ومولويّهْ
والعودَ ، والقانونَ ، والبشارفَ الشرقيّهْ

وقصة الزيرِ على حصانِهِ
وعاطلينَ يشربونَ القهوةَ التركيّهْ
أسحبُ سيفي غاضباً
وأقتل المعلّقات العشرَ .. والألفيّهْ
وأقتل الكهوفَ .. والدفوفَ ..
والأضرحةَ الغبيّهْ ...

٣

أفتحُ تاريخَ أبي
أفتح أيامَ أبي
أرى الذي ليس يُرى
(٤) أدعيةٌ . مدائحٌ دينيّهْ
(٥) أوعيةٌ . حشائشٌ طبيّهْ
(٦) أدويةٌ للقدرة الجنسيّهْ
أبحث عن معرفة تنفعني
أبحثُ عن كتابةٍ
تخصُّ هــذا العصر أو تخصُّني
فلا أرى حولي ســوى
رملٍ وجاهليّهْ ..

٤

أرفضُ ميراثَ أبي
وأرفضُ الثوبَ الذي ألبســني
وأرفضُ العــلمَ الذي علّمني
وكلَّ ما أورثــني
من عُقَدٍ جنسيّــهْ
(٧) أرفضُ الف ليــلةٍ

(٨) والقمقمَ العجيبَ ، والمـــاردَ ، والسجّادةَ السحريّهْ
(٩) أرفضُ سيفَ الدولة المغرورَ
(١٠) والقصائدَ الذليـــلةَ الغبيّهْ
أحرقُ رَسْمَ أسرتي
أحرقُ أبجديّتي
ومن فلسطينَ ومن صمودهــــا
من طلقات النار في جرودهــــا
من قمحها المغموس بالدمع ، ومن ورودهـــا
أصنعُ أبجديّهْ ..

٥

أدخلُ مثلَ البرق من نافــذة الخليفَهْ
أراهُ لا يزالُ مثلمـــا تركتُهُ
منذ قرونٍ سبعـــةٍ
مضاجعاً جاريةً روميّـــهْ
أقرأ آياتٍ من القرآنِ فوق رأسه
مكتوبةً بأحرفٍ كوفيّـــهْ
عن الجهاد في سبيل الله والرسول والشريعة الحنيفـــهْ
أقـــول في سريرتي :
« تباركَ الجهاد في النحور ، والأثداء ، والمعاصم الطريّـــهْ
يا حضرةَ الخليفَـــهْ
أعبر من سرادق الحريم كالمنيّـــهْ
أمشي على الأبدان،والغلمان ، والأساور المرميّهْ
أمشي على توجّع الحرير والقطيفه
أدخلُ مثل الموت من نافذة الخليفَهْ
يحسبني مرتزقـــاً
دبّجت في مديحه قصيدةً همزيّهْ
يأمر لي من بيت مال المؤمنين .. كلّ ما أطلبه
عبـــاءةً من قصبٍ

وساعـــةٌ من ذهبِ
ومن نساء قصره محظيّـــهْ
أبصقُ فوقَ وجهه ..
وفوقَ وجه الدولة العليّه ..
من أنتَ ؟ يا سيّافُ إقطعْ رأسَهْ
وهاتِ لي الرأسَ على صينيّهْ ..
يا ملكَ الزمان .. إنْ قتلتَني
فمستحيـــلٌ تقتلُ الحرّيهْ ..

٦

قمْ يا طويلَ العُمْر .. من حجرتكَ الورديّهْ
وافتحْ شبابيككَ للشمس ، وللعدل ، وللرعيّهْ
فما رآك الشعبُ من آخر ايام بني أميّهْ
هل أنت حقاً من بني أميّـــهْ
أخرجْ الى الشارع يا أميرَنا
واقرأ ولو صحيفةً يوميّـــهْ
إقرأ عن السويس والأردن والجولان والمدائن السبيّـــهْ
عن الذين يعبرونَ النهر .. نحو الضفة الغربيّهْ
هل يا طويلَ العمر .. في بلاطكمْ
خريطةٌ صغيرةٌ ... للضفـة الغربيّهْ ؟

٢ ــ بانتظار غودو

١

ننتظرُ القطــــارْ
ننتظرُ المسافرَ الخفيَّ كالأقـــدارْ
يخرجُ من عباءة السنينْ
يخرجُ من بَدْرٍ ، من اليرموكِ ،من حطينْ
يخرجُ من سيف صـــلاح الدينْ
من سنـــة العشرينْ
ونحن مرصوصونَ ، في محطة التاريخ ، كالسردينْ
يا سيداتي سادتي . هل تعرفونَ ما حريّةُ السردينْ ؟
حين يكونُ المرءُ مضطراً لأن يقولَ رغمَ أنفه : آمــينْ
حين يكونُ الجرحُ مضطراً لان يقبّلَ السكينْ
يا سيداتي سادتي . من سنة العشرينْ
ونحن كالدجاج في أقفاصنـــا
ننظر في بلاهةٍ الى خطوط سكة الحديدْ
أُفقيّةٌ حياتُنا مثلَ خطوط سكة الحديدْ
ضيقةٌ .. ضيقـــةٌ
مثلَ خطوط سكة الحديدْ
ساعاتُنا واقفـــةٌ
لا الله يأتينا .. ولا موزّع البريدْ
من سنة العشرين حتى سنة السبعينْ
نجلس في انتظار وجهِ الملك السعيدْ
كلُّ الملوكِ يشبهونَ بعضهم
والملكُ القديمُ مثـــلُ الملكِ الجديدُ ..

٢

ننتظرُ القطـــارْ

ونحملُ البيارقَ الحمراءَ ، والازهـــارْ
تمضغُنا مكبراتُ الصوت في الليل وفي النهارْ
تنشرُنا إذاعةُ الدولة بالمنشـــارْ
إنتبهـــوا !..
إنتبهـــوا !..
خمسين يوماً ـ ربما ـ تأخّر القطـــارْ
خمسين عاماً ـ ربما ـ تأخّر القطـــارْ
تقيّحتْ أفخاذُنا من كثرة الجلوسْ
تقيّحتْ في رأسنـــا الافكار
وصـــار لحمُ ظهرنا جزءاً من الجدارْ
جاؤوا بنـــا عشرينَ الف مرةٍ
تحت عويل الريـــح والامطارْ
واستأجروا الباصات كي تنقلنـــا
ووزّعـــوا الادوارْ
وعلمـــونا كالقرود الرقصَ
والعزف على المزمـــارْ
ودرّبونا .. ـ ككلاب الصيد ـ كيف ننحني
للقادم المسكون بالدهشة والاسرارْ ...
إذا أتى القطـــارْ ..

٣

لم نرهُ .
لكنّ من رأوه فوق الشاشة الصغيرَه
يبتلعُ الزجاجَ ، أو يسير كالهنود فوقَ النارْ
ويخرجُ الارانبَ البيضاء من جيوبه
ويقلب الفحمَ الى ُنضـــارْ
يؤكدون أنـــه ..
من أوليـــاء الله ... جلّ شأنُهُ
وأن نور وجههِ يحيِّر الابصـــارْ

وأنه سيحملُ القمح الى بيوتنـــا
والسمنَ والطحينَ بالقنطـــارْ
ويجعل العميانَ يُبْصرونْ
ويجعل الامواتَ ينهضونْ
ويزرعُ الحنطةَ في البحـــارْ
وأنه – في سنوات حكمــه –
يدخلنا لجنــةٍ ..
من تحتها تنسكب الانهـــارْ ..
لم نرهُ .. ولم نقبّل يـــدهُ
لكنَّ من تبرّكوا يوماً بـــه ..
قالوا بـــأن صوتَهُ
يحرّك الاحجـــار ..
وأنـــه .. وأنـــه ..
هو العزيزُ الواحدُ القهّارْ ..

٤

ننتظر القطـــارْ
مكسورةٌ – منذُ أتينا – ساعةُ الزمانْ
والوقتُ لا يمرّ . والثواني مالها سيقانْ
تعلكنـــا ..
تنهشنـــا ..
مكبّراتُ الصوت بالأسنانْ :
إنتبهـــوا ..
إنتبهـــوا ..
لا أحدٌ يقدرُ أن يغادرَ المكانْ
ليشتري جريدةً .. أو كعكةً .. او قطعةً صغرى من اللبانْ
لربـــه ، لا أحد ، يقدر أن يقولَ « يا ربّاه »
لا أحد يقدرُ أن يدخلَ – حتى – دورةَ الميـــاهْ
تعال يا غودو .. وخلّصنا من الطغاة والطغيـــانْ

ومن أبي جهلٍ ، ومن ظلم أبي سفيـــانْ
فنحن محبوسونَ ـ في محطة التاريخ ـ كالخرفانْ
أولادنا ناموا على أكتافنـــا
رئاتُنـــا تسمَّمت بالفحم والدخانْ
والعرضحالاتُ التي نحملُهـــا
عن قلة الدواء .. والغلاء .. والحرمان ..
صادرها . مُرافقو السلطـــانْ
تعال يا غودو .. وجفِّف دمعنـــا
وأنقذ الانسانَ من مخالب الإنســـانْ

٥

تعالَ يا غودو .. فقد تخشَّبت أقدامنـــا انتظارْ
وصار جلدُ وجهنا كقطعة الآثارْ .
تبخَّرتْ أنهارُنا
وهاجرتْ جبالنا
وجفَّت البحـــارْ
وأصبحتْ أعمارُنا ليس لها أعمـــارْ
تعالَ يا غودو .. فان أرضنـــا
ترفضُ أن تزورها الامطـــارْ ..
ترفضُ أن تكبر في ترابنا الاشجارْ
تعالَ . فالنساءُ لا يحبلنَ ..
والحليبُ لا يدرُّ في الابقـــارْ
إن لم تجىء من أجلنـــا نحنُ ..
فمن أجل الملايين من الصغـــارْ
من أجـــل شعبٍ طيبٍ
ما زال في أحلامه .. يقرقش الاحجـــارْ
يقرقشُ المعلَّقات العشر .. والجرائدَ القديمَهْ
ونشرةَ الاخبـــارْ .

محمود الريماوي

مشاعر فلسطينية

— « انت فلسطيني . ولماذا لم تعمل فدائي ؟ »
هذا السؤال .

فيتولاني خجل وانكسار . اضم في خاطري تلـــك الصورة من العنف والكبرياء ، لرجال بسطاء صادقين ، لا اختلف في شروطي الانسانية كثيراً عنهم ، سوى انهم معمدون بالبسالة والاختيار . صورة فيها من الشعر والجسد ، ما يخرق اعصابي . ثم اراني ضئيلا ، عاجزاً ، قليلا .. وأســـائل ذات نفسي بكل صلف واتهام « لماذا انت جبان ؟» . وفي غالب الأحيان ، ادفع عـــني السؤال ، او اجعل الباب اليه مواربا ، واثير في داخلي اسئلة متعددة ، اعرف بـ «خبث» كيف انشغل بها ، في غياب اول الأسئلة .

ليس يعنيني من الذي يطرح علي السؤال (وفي العادة يأتي من اولئـــك المرتاحين لكونهم ليسوا فلسطينيين) ، فهو حاضر ومثار ، مني .

ساعة يكون الوجه في المرآة الـكاشفة ، والطريق الى الخداع مستحيلا ، لا اتردد وادين شخصي بالاستنكاف . وأسأل لفلسطين اولاداً فيهم خير اكثر مني . على ان المسافـــة بين الاستنـكاف والانفصال ، بعيـدة . هذا الى ان السؤال يترك نصف الحقيقة او أكثر . اذ يجب له ان يصاغ باضافة كلمة اخرى ، يصبح فيها « لماذا لم تعمل فدائياً بعد ؟ » . ثمة آلاف من الجيل الفلسطيني الطالع، يشكل لهم الفداء الشاغـــل الأساسي ، والهاجس الامامي ، وينسحب على اتفه تفاصيل حياتهم اليومية . انهم : فدائيون ، ومع وقف التنفيذ . والاصح

ان يقال : بانتظار التنفيذ . وفيهم تتمثل المـادة البشرية العريضة ، لحرب الشعب الآتية . وهؤلاء – بعد الفرز والاختبار – هم بالضرورة – اصحاب الانتسابات والولاءات الطبقية الاكثر جذرية . ورجائي ان اكون أحدهم .

جيلنا هذا ، يختلف عن سابقه الذي شهد وعانى الكارثة الأولى . بعد ٤٨ التحق الشبان الذين غادروا الوطن ، بمخاضات القارة العربية . كان ذلك الامر الطبيعي . على الأقل بسبب انهم كانوا مدفوعين الى تحصيل الرزق ، في اقطار الجيوش العربية التي ادت بهم الى المصير الأسود ، بعد ان ارتدت الجيوش (وقادتها لم يرسلوها الا لترتد) . وشرع الشبان يشتركون في الحياة العربية : الاجتماعية والسياسية . في ظل اوضاع الانفراط والتوزع ، والنزف المأساوي الذي أخذ ينفتح ، بدأوا يناضلون بالسياسة والعمل الحزبي والصحفي ، من اجل دفع الجيوش الى دخول فلسطين . كل من مكانه ، وفق المعطيات الخاصة لـ « مقر الضيافة » . ذلك النضال كان يتلاقى مع السعي الى الخبز وتدبير الأحوال ، وكثيراً ما يتقاطع عند الوصول الى الرفاه . كما كان يبدو يائساً في المهاجر البعيدة (جداً..) . طوال ١٩ سنة ، كانت الطريق الى فلسطين تنطلق ، بالحتم ، من القاهرة او دمشق او بغداد ، او بيروت او عمان . من القاهرة على الأخص . لذلك عبد الناصر ، كان زعيماً فلسطينياً ، قبل زعامته المصرية ، والعربية عموماً . ابان ذلك ، كان جيل آخر في النشوء والتكوين . جيل يسمع عن فلسطين ، او هي في آخر ذاكرته ولا وعيه . لكنه يعقد طموحه (الكبير) على الجيل المتقدم ، الذي اشتبك بالهموم والتطلعات العربية . كاد جيلنا الصغير ان يُمنع عن التفكير في وطنه ، اذ تربى على التعلم في سبيل الوظيفة . ودفع بذلك الى اغتراب ، فريد في تاريخ الشعوب . وزين له انه مدعو وحسب ، في مستقبله ، الى البحث عن التفوق والشطارة العملية ، تاركاً مفتاح الحل لآبائه ، الذين سلموه الى قوة القاهرة الضاربة . اما الطبقة التحتية ، ففي ظل توزعها وضياع ملامحها ، وحالة البؤس والحصار والمصادرة التي عاشتها في المخيمات ، فقد كانت منذورة للسفر الى الكويت ، بعد الحصول على قسط من التعلم في مدارس ومعاهد وكالة الغوث . كادت الكويت أن تصبح فلسطين ثانية . لكنها هذه المرة ، صحراء تزدهر فيها الأموال ، ويخسر فيها الفلسطينيون مجد التراب والتاريخ والأصول . (رواية غسان كنفاني : رجال في الشمس) . الجيل الذي رأى بعينيه سقوط الوطن ، لم يعرف ولم يطرأ على ذهنه – باستثناءات

نادرة ــ الطريق المباشر والأقرب والأصح ، الى وطنه. والى ذلك كان يرى ان الرجوع الى فلسطين ،محتم ، مثل الظواهر الطبيعية . ذلك الادراك صعد مع صعود نجم عبد الناصر . وكما كان صعود عبد الناصر (يقتضي) غياب الجماهير ، فقد كان غياب الجماهير الفلسطينية ، بالذات ، في مستوى الفاجعة . على ان الانعطاف الفارق والجذري في مسار القضية ، بوشر من اواخر سنة ٦٤ ، عندما دشنت طلائع « شباب الثأر » و« العاصفة » طريق العمل الفدائي ، طارحة عنها منطق الانتظار السكوني ، العاجز .

وبينما كانت البيوت والمقاهي الفلسطينية ، تصغي بكل آذانها لخطابات عبدالناصر ، دون ان تلتفت ــ جيداً ــ لما تفعله تلك الطلائع ، كان ابطال « العاصفة » و« شباب الثأر » ، يتلقون الطعنات الأولى ، من السياسة العربية الفاسدة . ابو اياد (احد قادة فتح) يقول للطليعة المصرية (حزيران ــ ٦٩) : كان الواقع العربي الرسمي في غالبيته ، يحارب فتح ، بطرق متعددة . فمثلاً القيادة العربية الموحدة ، اصدرت توصيات وتعميمات وقعت وثائقها في يدنا ، تطالب فيها الدول العربية ، بعدم تشجيع الفدائيين ، وعدم اذاعة اي عملية عسكرية للعاصفة ــ هكذا كان المثلون السياسيون للجماهير الفلسطينية يخطئون النظر . اذ ، كان السحر الناصري يأخذ اليه ، اكثرهم تقدماً وبغيبه . ومع عدم ادارة الظهر لانجازات عبدالناصر الثورية ، من طرد قوات الاحتلال ، الى تأميم السويس ، الى تحقيق التجربة الوحدوية الرائدة ، الى الاصلاح الزراعي ، فالانفتاح على المعسكر الاشتراكي ، حتى التأميمات وبناء السد العالي .. فان هذه المنجزات يظل مردودها قاصراً عن دفع حركة التحرر الوطني الاجتماعي العربي ، الى مداها . ليس بسبب الاخطاء الداخلية التي رافقتها ، وانما في الأساس ، لانها تصطدم فاقدة غايتها ، بـ الـلاخطة ضد اسرائيل التي تشكل تهديداً مباشراً لتلك الانجازات ، ولكل الطموح العربي (الفلسطيني).

هكذا عاش جيل الهزيمة الأولى ، وسط حلقة النضال العربي ، مسلوب الخصائص الذاتية ، وشرف النقد والمحاكمة ، دون ان يجترح اختياراً فلسطينياً آخر ، او موازياً على الأقل . اما الجيل التالي ، جيلنا الصغير ، فقد شهد الخسران الدامي . وعانت قطاعات عديدة منها تجربة النزوح المروع ، وخاضتها حتى الأعماق . تطلع حواليه فرأى ان العمل العربي لم يخن حلم العودة السعيد ، اذ أضاع كل فلسطين فحسب ، بل اضاع معها اراضي عربية اخرى ،

فخان أشواق المحيط والخليج . لذلك كان البديل ، يوم شرعت مخيمات العدم والتعاسة والقهر ، في جبال الاردن والاغوار ، تطلق شرارة الثورة الجديدة . ونشأ العمل الفدائي ينمو ويتسع باعثاً الفلسطيني الموؤود ، مرجعاً له اعتباره الضائع . اما الذي بادر الى فتح هذا الطريق ، فهو جيل فلسطين الجديدة . الجيل الطالع ، الذي انبثق عن الطبقة الفقيرة المسحوقة . وانا واحد من هذا الجيل ، وولائي لهذه الطبقة . انا الذي امارس الاستنكاف (مثلما تمارسه ، بصورة عامة ، طبقتي البورجوازية الصغيرة) . لكن انفي عني تهمة الانفصال .

سيكون ملفتاً للبعض ، كيف سينحرف حديثي بعد الآن ، وانا في معرض البحث ، في اول الأسئلة التي تجابهني « لماذا لم اعمل فدائياً بعد ؟» . غير ان ذلك ، بالنسبة الي ، امر لا فرار منه ، حتى تضاء معالم الصورة . لقد اخترت ان انقل الشريحة التي امثلها . ولا بد لي من الوفاء ، بمنتهى الصدق والشجاعة التي املك ، لهذا الاختيار القاسي . يبدو لي الأمر بالغ الحرج .الكتابة عن الفدائيين، في الأصل ، ولاعتبارات ذاتية ، محرجة لي . كم مرة تراءى لي ، وانا احاول كتابة قصة تستلهم الفدائيين ، ان ذلك ليس سوى محاولة لتغطية انسحابي ، بل وتسويغه . كما ان الكتابة ، في هذا الموضوع ، لا يعول عليها كثيراً طالما هي لا تصدر عن المكان الطبيعي والمناسب . لو كنت الآن في احد المخيمات او المراكز ، لكان الأمر مقبولاً . اما ان اكتب هنا ، في غرفة في بيروت ، عامرة بالدفء ونظيفة ومرتبة ، في موضوع يخص اولئك الزاحفين ، تحت وطأة الشتاء البارد ، وفي غمرة الوحل والعتم والرياح ، فذلك يبعث بي (...) بالاضافة لاضطراري الآن .التوسل الى الاعترافات والمذكرات الشخصية الخالصة . وهنا اخشى من الاستعراض و(التصفيق الذاتي !) . على ان شفاعتي قد تكون ، عندما تحمل مثل هذه الاعترافات الآتية ، بعضاً من ملامح تجربة افراد جيلي (ولست متفائلاً بذلك) ، الذين « لم يعملوا فدائيين بعد » ، ويتوزعون ، على الخصوص ، في الجامعات ومعاهد التعليم العربية والاجنبية . اما مسألة المواجهة ، وتصويب رصاص الادانة على نفسي ، والتي سأحاول مزاولتها ، فليس لي تقدير قيمتها ، والحكم على ما تعنيه .انه لقاس هذا الاختيار ! ولكن سأقول ، انما من احد دفاتري الحميمة ، التي لما يزل حبرها طرياً .

لا أتذكر قط ، منذ كنت ولداً ، ميلاً لدي الى العنف ، او الاستجابة لتحدٍّ يفترض الرد العنيف (والمقصود الجسدي) . كأنه ايمان يتوغل في داخلي منذ البدء ويكاد يكون لانهائياً : باللاعنف . ادرك ان ذلك خطأ فادح. اعرف انه يتقاطع حتى مع حسّ البراءة الاولى . فالانسان المبكر ، القديم ، كان عنيفاً مغامراً مباشراً . الانسان المتمدن ، المترهل ،هو البعيد عن العنف.هو الملجوم ، الجبان ، القليل المبادرة ، المهادن ، المنطقي ، عدو الشعر والخيال . لكن تلك «طبيعة» لم اخترها . لعل نشوئي في طبقة وسطى هو السبب ، على اعتبار الفقراء ، هم الاوثق علاقة بالتعب والعصيان . ارجو ان يكون هناك السبب . مع ان احداً من اسرتي لم يطلع مثلي . ولم تكن لي معاملة تختلف . اذكر جيداً ان مشاجراتي مع اولاد الحارة ، كانت نادرة ، والاضطرار الاخير. لم امارس رياضة عنيفة ، بل كنت انطوي على احتقار مُبيّت ، لمبدأ الرياضة ذاته ، واعتبره في قرارتي ، نشاطاً غير انساني . لم ازاول الصيد .بل كنت وما ازال الى حد بعيد ، انفر من هذه الهواية ، واراها تطاولاً بلا غاية مفيدة ، على الطبيعة . لم اشترك في تظاهرات ،وكنت اتوقف عند الاعتقاد بانها ضرورية، ويجب ان تمشي . ولم أتلاسن بالعنف مع اساتذة المدرسة . ولم اطلق في حياتي وحتى الآن ، رصاصة واحدة ، كما لم يرق لي ، مرة واحدة ، اي مسدس . كنت افكر دائماً انه غبي وباهظ على الاحساس ، لانه ضد الحوار والنزق الأصيل. لم اذبح دجاجة ولا عصفوراً ، رغم اقاماتي المتعددة في الريف ، وانتمائي اليه . لعل نحافة جسدي القديمة ، جاءت موظفة في سبيل كل ذلك ! منذ الصغر ، ورغم انفتاح اجوائي العائلية ورحابتها في الداخل ، وانا شديد الانطواء لا اقترب من العالم . تستهويني العزلة ومخاطبة القلب . هادىء حتى الصمت ، وخجول الى حد الخوف . عندما وصلت عتبة المراهقة ،جاء التحول في حياتي . اذ عرفت ان ثمة كلمات شيقة تذهب سريعاً الى القلب والعقل ، خارج كتب المدرسة . ذلك بعد انحنائي سنة واحدة فقط ، على مجلات « سمير » و« بساط الريح » . كانت تلك المجلات السياسية . لم اكن اقرأ منها سوى القصص والاشعار ، والخواطر والوجدانيات . ثم شرعت اكتب الى زوايا القراء فيها . وخلال ذلك نشرت مع صديق لي من الصف الأول الاعدادي ، مجلة الحائط الكبيرة . كنا نحررها وحدنا . وسرعان ما وصلت الى مجلات الثقافة الأدبية كنت اترك اولاد الحارة يلعبون بالطابة ، لاقرأ مجلة مثل

« الأفق الجديد » او « الأديب » او «الآداب» . وعلى هامش ذلك القصص والروايات (الواقعية الاجتماعية) ، كما استهواني لدرجة الانبهار ، جبران .عندما دخلت سن المراهقة ، كنت جاداً تماماً بين اصحابي . كان عمري ١٧ ، واقرأ مجلات مثل «الآداب» و«شعر» و«ادب» بشهية فائقة .

ما المقصود ، بهذا العرض ؟ التأكيد على ان التجاهي العفوي الى الحياة ، كان منذ تفتحي ، منحسراً ومكبوتاً . لم اعط لجسدي ، ايام المراهقة التي لم اعشها، اية فرصة لملامسة الأشياء والاحتكاك بها . لقد ادت بي «نزعة» اللاعنف ، الى الوقوع ، في وقت مبكر ، في شرك التجريد . تجريد العالم من الوانه المضطربة والمتداخلة . وتجريد الانسان عن اللحم والدم والأعصاب ، الى مخيلة وذهن واحساسات . على مدى اربع سنوات ، حتى التاسعة عشرة ،لم امارس تجربة حية عنيفة (العنف هنا بمعنى المباشرة) .

اول « قضية » شغلتني : المرأة . في السادسة عشرة، كان اصدقائي يطاردون بنات المدارس ، وأنا اسأل بعقل : متى المرأة العربية المتحررة ؟ الاصدقاء يخترعون الحكايات عن مغامراتهم وانا اسأل بعقل: متى العلاقة الصميمة بالمرأة؟ كذا .. وعبر ذلك ، كنت أكتب بعيداً عن عيون اهلي مقالات لها عناوين مثل : الحنين الى الوجه الآخر . في انتظار المرأة المستحيلة ! في السنة الثانوية الأخيرة ، كانت المرأة الغائبة هي سؤالي ، شبه الوحيد . كنت تعرفت على انسي الحاج ومقولة الاتحاد الحار بالمرأة . وعبر ذلك ايضاً كنت التحلق حول «قضايا» محددة : الاستقلال الشخصي . المطالعة والمعرفة . التطواف في هذا العالم . العلاقات الانسانية الوثيقة النافذة . اين كانت فلسطين ، تلك الأيام ؟ اقول صريحاً : لا اعرف. ولدت في الضفة الغربية التي انتمي اليها ، بعد حدوث المأساة . في جوار مدينتنا اريحا ، كانت تمتد اكثف مخيمات «اللاجئين» . كنت اتطلع اليهم ، واعتبرهم مجرد بشر تاعسين مغلوبين . لم اكن اعرف ازمتهم . ادعو لهم وحسب ــ وبتعاطف انساني عميق ــ للخروج من اوضاعهم الصعبة . ولما يتحول «اللاجىء» الى شخص ميسور الحال ، لا تعود لي به علاقة . الانفلاش المريع .. وتسقط عني اية ملامح محلية قومية . لم تكن فلسطين موضوعاً لي . ولكني كنت اعرف ــ متأثراً باهلي ــ ان عبدالناصر سيعيدها . حاولت كتابة قصة عن فلسطين فلم افلح ــ كنت اتمنى ، انا الكاتب الناشىء ، ان اكتب في ادب النكبة ! هكذا اشواقي لا تخوم لها ولا تنسب الى مكان .

العالم بلا حدود ولا مسافات . وانا بلا موقع ولا سهم . ارى الدنيا وحدة واحدة ، وفي ضميري ــ وقتذاك ــ ان العالم لا بد ان يتجاوز اخطاءه الصغيرة ، كالفقر والاستغلال والحروب وانشاء الجيوش . حتى جاء حزيران المعلم .

ايام الحرب لم اكن خائفاً . كنت مرتبكاً ومذهولاً (ومش عارف) . بماذا فكرت ايام الحرب ؟ عندما تأكد لي ، وانا نائم على التراب والحشائش انني سأغادر الى عمان ، لم اكن حزيناً وقتها ، حتى خوفي كان بمقدار . كانت سماء اريحا ، حراماً على الطائرات العربية ، في مساء اليوم الثاني . جعلت طائراتهم تطير ظافرة فوق البحر الميت والمخيمات واشجار النخيل العالية . وبدا لابي انه مضطر لاعتبارها هزيمة . مرّ عنّا اشخاص من القدس ، مفجوعين تماماً وقالوا : انها تحترق . كان ابي ضنيناً ببيته . ومحروقاً على البستان الذي تعهد اشجاره بالحدب والرعاية والسقيا . والى ذلك كان ضنيناً اكثر بابنائه الشبان ، ويهمه امر زوجته وابنته . ولا يريد ان يترك اطفاله الذين يحبهم جداً ، لما يمنعه عن ان يراهم وقد كبروا . انا كنت انطوي على كره مدينتي ، اريحا . اهلوها اكاد اعرفهم بالاسم . كنت بينهم وحيداً ، وحدي ، وليس من يشاركني اهتماماتي . ولا عرفت فيها امرأة . كذلك كانت تعني لي الارتباط الأزلي بالعائلة .

عندما كنا نترك تلك المدينة المرتاحة في اسفل العالم ، متأبطين اشياء النوم والمأكولات ، كانت اريحا تغيب عن ذهني . وتطل مثل المفاجأة : عمان ــ العاصمة . المدينة المحتشدة بالنبض والحركة والألوان . عند ذاك ، كان اهلي وابناء المدينة والمخيمات الغفيرة : ينزحون . وكنت وحدي من بينهم : اسافر الى عمان . عندما تجاوزنا الجسر ، كبرت اشواقي الى العاصمة الذاهب اليها . اريحا تحفل وراءنا بالدخان والسقوط ، وانا العنها . اتركها الى مدينة اخرى . ولما اجتزنا الجسر كانت المسألة بالنسبة إلي ، مغامرة وفزتها . ووصلنا وذهبت اريحا .

. . . .

(عفوك اريحا).

اوراق شخصية ؟ بل خصوصية . ولم أشأ بكشفها ان أسوغ او افسر « لماذا لم اعمل فدائياً بعد ؟ » . ذلك انها تخصني قبل حزيران . لكني قصدت ان اجعلها مدخلاً للتصريح بتحولاتي الأساسية . وفي وهمي انه مدخل ضروري .

لم تكن ظاهرة اللاعنف في شخصي ، كأنها صدفة خرقاء . هي كـأي ظاهرة (نفسية) خاضعة للتحليل . اذ ليس من ظاهرة تنشأ في الفراغ ، وتغـدو معلقة في الهواء ، بمعزل عن القوى المادية المحيطة .

على ان ذلـك لا ينفي ، في نظري « الخصوصية الانسانية » او « الفرادة البشرية » او « التهيوء الذاتي » . الفن أوضح برهان على ذلك . فمهما تكـن الظروف مؤاتية ، فانها لا تخلق شاعراً ، على الرغم من ان ظروفاً ما ، قـد تؤخر عطـاء شاعر ، او تحبطه . من جهة اخرى ، فان المقومات المادية لن تلغي حقيقة ان تلك الظاهرة في شخصي ، كانت تتغلغل بعمق وكثافـة وانتشار ، في سياقي الحياتي والذهني والسلوكي ، وعلى مدى عمري حتى حزيران. انها تراثي . وانه تراث من الكسل .

يبدو لي الآن ، اني قد اغتصبت و« استثمرت » ، تلك العبارة المجيـدة ، لكاتب اشتراكي (اسمه لافارغ ، واجهل هويته) :« ليس نضال الانسان على مر عصور التاريخ ضد القوى الغاشمة ، الطبيعية منها والاجتماعية ، الا نضـالاً في سبيل توكيد حق الانسان في ـ الكسل ـ ».

بعد حزيران ، صار لنا بيت عتيق ، ضيق ، شبه مهدم . بيت يمنع القراءة والتفكير والتخيل . لقد اصبحنا فقراء ، ندرك بشاعة الصفر . راعني انـه ليس بامكاننا ان نستأجر بيتاً افضل منه . اصحاب البيوت رفعوا الايجارات الى الضعف واكثر . صرت احلم لو لنا بيت مريح وفخم . احلام فوق الممكن. قبل النزوح لم اكن افكر بـذلك . كنت مطمئناً الى ان اوضاعنا الوسـط (المقبولة) هي الأوضاع الأبدية ،الطبيعية . (هكذا ينبغي ان تكون وان تستمر) .كنت اعتبر التفكير بمثل تلك الأمور: شكلياً وسخيفاً ولا يستحق . لكن هذه المرة يستحق حتى يتسنى لي في بيتي ان افكر واتخيل وحـدي ، وبيتنا بغرفته اليتيمة لا يسمح .

عرفت ان اصحاب البيوت الأغنياء لا يفكرون بنا . تفكيرهم محصور في دائرة مصالحهم . وعرفت مدهوشاً بان العديد من هؤلاء ، فلسطينيون . انهم لا يعترفون بفقراء وطنهم . الفقراء يندفعون الى مكاتب الصليب الأحمر ، الـتي فتحت باب العودة لمن يرغب ـ بعد اقل من شهرين على حزيران ـ والاغنيـاء لا يرغبون . لا يرغبون بالعودة حتى في باصات الصليب الأحمر .

الفقراء يتسللون راجعين ، والاغنياء يسهرون في بيوتهم السعيدة ، حامدين المولى ، لانهم انشأوا لهم مصالح في المكان المناسب . الاغنياء يزاحمون الفقراء ، في الحصول على بطاقات اعاشة للنازحين . يسرقون طعام ابناء وطنهم ،مستغلين الفوضى التي ترتد لطبيعة الاوضاع آنذاك .هكذا تعرفت لاهالي المخيمات ، الى ان انتسبت اليهم . رأيت ان لنا قضية مشتركة . صرت بعد ذلك اخوض في السياسة لانني اتمنى الرجوع . عندما نهضت المقاومة ، استجبت لها بكل اعماقي . غير اني لم اكن اعلق آمالاً تذكر . لقد (تعودت) بان الحرب لا يخوضها سوى الجنود . (الناس) لا علاقة لهم بالأمر . تلك ليست مهنتهم او وظيفتهم . ثم صرت ارى الفدائيين نماذج فذة . انهم ليسوا مثلنا . في البداية ، لم أكن أفكر باني قد اصبح فدائياً ، فانا (مخلوق) عادي بل ضعيف . اولئك ابطال. حتى دهشت عندما عرفت ان بعض اصدقائي واقربائي تحولوا الى فدائيين . اشخاص اعرفهم جيداً وليس لهم تاريخ (البطولة) ومواصفاتها . الاسلحة في ايديهم كأنها ازهار. يحبونها ويعشقونها . اسلحة مثل الابتسامات. كانوا ،فيما عدا ذلك ،يشبعون في نفسي نزوعاً اخلاقياً . انهم اشخاص شرفاء، يدفعون دمهم في سبيل كبريائهم . يدفعون حياتهم وهم يؤكدون طيبتهم . (اما ان افعل مثلهم، فهذا امر شديد الصعوبة . غير ممكن . انا اتخيل نفسي يوماً وانا اتعارك بالايدي مع أحد ، فكيف بالسلاح ؟ كما ان الحياة ليست مستحيلة في المنفى . بل يمكن أن تعاش . صحيح اني اشتاق لمدينتي وهي تختلط باحلامي ، لكن لي أشواقاً أخرى يمكن ان تنفذ خارجها . الأهم من ذلك ، اني لم اعش حياتي . كيف اكون مهيأ للموت وانا شبه ميت . الحي هو الذي يموت . ليس لي اعتقاد باني لو قاتلت ، احرز عند الانتصار ، حياتي التي أنشدها . مدينتي رغم الحنين اليها ، ليست شوقي الوحيد . ثمة اشواق عديدة للانسان ، الوطن احدها . ان اصبح مقاتلاً ، ذلك امر شديد الصعوبة).

ـ متى كانت هذه الافكار ؟

ـ قبل الذكرى الأولى لحزيران .

ـ كنت ما أزال في الذهول والاندهاش ؟

ـ صرت المس ان حائطاً مجهولاً وصلداً يمنعني من الدخول الى المدينة . المشوقات تبوخ يوماً بعد يوم .كنت اتصور اني ولدت مجدداً ، لكن الولادة

كانت بالغة العسر (كأنما انفصلت عن الرحم بآلة حـــادة) . لست جزءاً من المدينة ، بل جسم غريب فيها .

ـ ألم تحاول التصالح ؟

ـ حاولت . كل الاهتمامات التي افتعلتها ، ادت الى تراكم ارتباطي لا تعميقه.

ـ هل فكرت ان الحياة في مدينتك الأولى افضل واجدى ؟

ـ ليس بهذا الشكل . صرت اتمنى لو تعود ، وتعود معها بالطبع المدن والأرياف الاخرى التي استشهد من اجلها ثوار الـ ٣٦ . صرت افكر بانهـــا لو رجعت ، فلسوف تسمح لي ، بالاقامة والحضور في اي مكان آخر . صرت اقول لو تحررت ، فسيمكنني ان امارس حياتي في هذه المدينة .

ـ ألم يطرأ على بالك السفر ؟

ـ المدينة الجديدة ، اي المنفى ، هي كل العالم . اي سفر سيجعلني ادور حول نفسي لا أن اكتشفها .

ـ والمرأة ؟

ـ آه . المرأة ! ستمنحني فرحاً بالضرورة ، ولن تحررني من الحزن . عندمـا يصادر وطن لانسان ، لا تعود اوطانه الأخرى مستقلة . تُنتَهك . ومثلهـا العلاقات الحميمة مع الآخرين .

ـ اليس فاجعاً ان لا يعثر الانسان في وطن ما ، على اوطانه الأخرى؟

ـ طبيعي ، فاجع . الوطن ليس التراب وحده . انه الاقامة الحية فوقه ، والحضور النافذ العميق . لذلك فصائل المقاومة ، التي حددت رؤيتها ، لنظـام فلسطين الحرة ، هي الفصائل الثورية . لن يموت الشبان في سبيل ان يُكبَتوا في وطنهم . لن يجوع المعدمون ، عندما يتحرر الوطن ، بل سيتاح لهم الخبز والكرامة . وكذا كل شيء . هذا معنى ان تحرر الحرب الثورية ، الانسان . الحرب التي تبقي الانسان على حاله ، هي عنف عصبي مجرد . هي نصف حرب.

ـ هل تذكر السؤال الأول ؟

ـ بالطبـع . حساسيتي ازاء العنف ، انحسرت . لست منفصلاً عن العمـــل الفدائي . فأنا اعيش قضاياه وهمومه وازماته . كما اني منكفىء الى قراءة فكـــر

المقاومة والتفكير فيـــه . أومن بدور المثقف الثوري . عندما ينزل المثقف الى المخيمات والمراكز ويتدرب على السلاح،فانه مؤهل ـ اذا كانت له البنية الملائمة ـ أن يصبح مقاتلا و« أومن ان عيش المثقفين بين الجماهير المسحوقة والمقاتلين ، واستعدادهم للتعلم منهم بقدر ما يعلمونهم ، وقدرتهم على مشاركتهم نفس ظروف حياتهم ، وتواضعهم العلمي ، واقامتهم علاقات رفاقية مع المقاتلين والفقراء ، وتجنب العلاقات الفوقية ، والامتيازات المـــادية والمعنوية ، هو الطريـــق لتأدية المثقفين دورهم في الثورة » . هـــذا الكلام للفصيل اليساري : الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

ـ . . . .

ـ المثقفون الفلسطينيون والعرب ، المقيمون خارج ميدان المقاومة ، ينبغي ان يبحثوا ويشاركوا في الجدل حول معضلات المقاومة . انا احتقر مثقفـــاً فلسطينياً يدعي الثورية ، ولا يعرف مثلاً لماذا لم تدخل الجبهة الشعبية الى قيادة الكفاح المسلح . لماذا حدث الانشقاق في الجبهة اصلا . لماذا لا تقوم وحــدة وطنية فورية . ما هي مهمات اليسار في ساحة المقاومة . ما هي دروس الهزائم الفلسطينية من ٣٦ الى ٤٨ . لماذا يشكل غياب الرؤية الفكرية لدى المقاومـــة خطراً على مستقبلها ؟ وقضايا أخرى غيرها .

ـ لكن الا تريد ان تصبح فدائياً ؟

ـ المهم بالدرجة الأولى هو المشاركة في الثورة . التعامل معها من داخــل . لو كانت المسألة قتالاً وحسب ، فلمـــاذا التنظيمات والكوادر السياسية ؟ بمشاركتي تختار الثورة لي موقعي المناسب . انني ارهن مصـــيري بمصيرها . انني مستنكف عن القتال ، ولست منفصلاً عن الثورة ، حيث هو جزء منهـا . وبالطبـع الجزء الاساسي .

ـ ما الذي يمنع ، غداً ، ان يختار الشباب الفلسطيني مواقـــع سياسية .. حتى لا يقاتلوا ؟

ـ المسألة هي الارتباط بالثورة . الثرثارون والجبناء لا مكان لهم فيهـــا . هؤلاء في الأصل ، لا يأتون للثورة . واذا أتوا ، فان التنظيم السياسي الفعـال ، يمتحنهم ويكشفهم . اما اذا كان تنظيماً مترهلا ، فانه ينتفخ بهم .

ـ تحـكي عن ثورة . هل صارت ثورة ؟ وهل المقصود فتح ، ام الجبهـــة الشعبية ، ام الجبهة الديمقراطية ؟

ـ اتكلم من زاوية تاريخية . ولادة المقاومة الفلسطينية من هذه الزاوية ، ثـــورة .

وعن تنظيمات المقاومة ، قصدت اليسار ، بالاستراتيجية والتنظيم والممارسة . اليسار يدرك ابعاد ثورته وآفاقها وعلاقاتها . لديه الرؤية المبكرة ، لذلـــك فانه ليس معرضاً للسقوط .

ـ ...

ـ ...

ـ هل ستبرىء نفسك ، فلسطينياً ؟

ـ لا . اتذكر الفدائيين ، فيتولاني خجل وانكسار . الفعل شهـــادة تختلف عن اي شهادة . ثمة سياسيون يقاتلون . اراني بجانبهم ضئيلاً ، عاجزاً قليلاً ..

ساعة اكون بالغ العري امام ايماني ، لا اتردد وأدين شخصي بالاستنكاف ، واسأل لفلسطين اولاداً فيهم خير اكثر مني .

على ان المسافة بين الاستنكاف والانفصال ، بعيدة .

محمود الريماوي

عبدالله عبد الدائم

من حركة المقاومة الفلسطينية الى حركة المقاومة العربية

كان السؤال دوماً وأبداً : كيف نعبىء الطاقة العربية الكبيرة ؟ مائة مليون عربي أو يزيدون ، ولكنهم غثاء كغثاء السيل . ورقعة مبسوطة من المحيط الى الخليج ، ولكنها أشبه بالسفينة التائهة يتقاذفها الموج من كل جانب . وثروات مادية وبشرية نادرة ، ولكنها حرام على أهلها ، حلال للطير من كل جنس . ووراء السؤال تثوي حقائق مرة عديدة :

أولها ، أن الجهد العربي ـ الممتد خلال قرابة نصف قرن ـ لم يفلح ، ولم يجد بعد طريقه . ولعله ان قسناه بما أصابه زمان الناس من تقدم ، يسير قدماً الى خلف . وان قسناه بالتحديات المصيرية التي يواجهها ، لم نسرف ان قلنا انه جهد يعمل لينهزم ويتحرك ليفشل .

وثانيها ، أن قدرة هذا الجهد على تجاوز ذاته ، ما تزال تبدو محدودة ، رغم الهزات القاصمة . فالبنية المريضة لم تثبت بعد عزمها على الشفاء واستعدادها لمقاومة الداء . والذي يبدو منها يشير في معظمه الى انها تكاد تستسلم لقدرها ، بل تكاد تؤمن بان المصير الاسوأ لا بد آتيها . ان ما تحدث به أشبه بما يحدث به انسان مصاب بـ« **عُصاب المصير** » على حد تعبير بعض علماء النفس ـ يؤمن دوماً بمصير بشع ملاقيه ، فيسعى اليه بظلفه ، ويحفر حتفه بانفه .

ثالثها ، أن هذا الجهد لم يستطع بعد أن يكتشف موطن العلة فيه ، ولم

تعلمه الأحداث حقيقة أمره . انه في معظمه يزداد امعانا في العلة كلما أقعدتـه تلك العلة ، ويلتمس الدواء في الداء ، لفرط ما ألف الداء . قـد يهب لجهوده أسماء جديدة ، وقد يلبسها أثواباً جديـدة ، ولكن ما هو عتيق عتيق من أساليب الفكر والعمل ما يلبث حتى يبرز من خلال الظاهر القشيب .

تلك هي الحقائق المرة الراسخة ، وما سواهـا كذب على النفس وعلى الآخرين ، وخداع نسلو به ونتسلى . قيل الشيء الكثير في وصف العـلة وفي تشخيصها ولكن العلة باقية ، بل هي ممعنة في البقاء مستشرية . ذلك أن الأمر ليس أمر تحليل العلة فحسب ، وليس مجرد الكشف عن ادواء الجهد العربي ، بل هو أمر تحريك الوجود العربي الساكن ، والقضاء على العطالة المزمنـة في هذا الوجود . الف دليل عقلي لا يعدلاليوم عملاً واحداً منظماً يحرك طرفا من ذلك الكيان الجامد. هنالك هوة قائمة بين الفكر والعمل لا بد من تجاوزها. ان الفكر يصل الى طريق مسدود ان لم يسعفه عمل يهب له معناه وقيمته . ولكن المسألة كل المسألة ههنا : كيف يكون العمل المنظم القادر على تحريك الجثة الهامدة ؟

مسلمتان وراء اي عمل عربي ناجح

منطلق هذا العمل في نظرنا مسلمتان :

الاولى أن المصدر الاول الاساسي للطاقة العربية هو أن تكون هذه الطاقة فعلاً عربية . أمل الوجود العربي الوحيد في التغلب على الوجـود الصهيوني الدخيل نابـع من هذه الحقيقة : لن تستطيـع أمة مصطنعة حلت في قلب أمـة عريقة الجذور ، أن تقضي على هذه الأمة ما دامت تشعر بانها واحدة الكيان واحدة المصير واحدة الارادة . شيء واحد يتيح لتلك البذرة الدخيلة أن تنبت وتمتد ، هو تفتت الكيان العربي وتشتت الشعور العربي ، وزوال الرابطة التي تشد أبناء الأمة العربية بعضهم الى بعض . لهذا تجهد الصهيونية منذ وجدت لتقضي على ذلك الوجود العربي المتماسك وتحيله بشتى الوسائل كياناً ممزقـاً متصارعاً ، ولتجعل منه في النهاية – فيما ترجو – دويـلات لا يقوم بينها أي شعور باواصر القربى وروابط المصير ، ان لم يقم بينها العداء والصراع . وشيء واحد يحقق للوجود العربي القدرة على التقدم والثورة في شتى جنبات حيـاته ، هو ان ينطلق عمله في سبيل التقدم والثورة من خلال صيغة عربية موحـدة

متكاملة ، من خلال الايمان بان الوجود العربي الواسع هو وحده التربة القادرة على استيعاب شروط التقدم ، لا سيما أمام تحديات التفوق العالمي وفي عصر لم تعد تجدي فيه الكيانات الصغيرة .

والمسلمة الثانية **أن الطاقة العربية هي مجموع الشعب العربي ، وليست الطاقة المتمثلة في جزء منه ، في قياداته أو حكامه أو جيوشه أو انظمته .** وقيمة أي نظام ومبرر وجوده يثويان وراء ما يستطيع أن يطلقه من قوى الجماهير وعطائها وعملها . والقيادة معناها أن نقود جموع الشعب نحو مزيد من الجهد والبذل والنتاج . انها تعني أن نقود شعباً قائداً ، لا أن نعطل قوى الشعب لنقوده . ان تحرير جموع الشعب المكبلة المغلولة بشتى أنواع القيود ، هو المهمة الأولى للقيادة الحقيقية . وأياً كانت المبررات والاسباب والدعاوى ، ليس من المقبول أن تكون نتائج القيادة مزيداً من العزلة بين الشعب والقيادة ، تؤدي بدورها الى مزيد من الاغلال وتعطل كل تحرر عميق . ولا يغيّر من الأمر شيئاً أن نفرض القيود باسم التقدم أو باسم سواه ، فالنتيجة سواء ، والتقدم لا يكون بدون شعب حر الارادة يجند نفسه من أجله . ان الثورة الحقة هي تعبير عن ارادة الكثرة الكاثرة من الجماهير وعن مصالحهم ، وهم بالتعريف جنودها وحماتها وأصحاب المصلحة فيها . ومن هنا كان مدى تعاظم اسهامهم فيها قياساً لمدى تعاظم ثوريتها . أما انحسارهم وأما بعدهم ، فلا يعني الا شيئاً واحداً : وهو أن الثورة ثورة فئة أو جماعة أو طبقة ، وليست ثورة الشعب .

هاتان المسلمتان لا يجادل في أولويتها أحد . ومع ذلك فنتائجها هي المهملة دوماً وابداً ، والعمل من أجلها هو العمل المشلول المعطل . قد تقوم جهود مبعثرة كثيرة ، من أجل تجاوز أزمة الوجود العربي ، ولكنها جهود تخبط خبط عشواء ، لانها تهرب من هاتين المسلمتين وتأبى أن تستخلص منها ما يلزم عنها من نتائج .

وبداية العمل الجدي وبداية العمل القادر على تحريك الجو العربي الآسن أن ندرك ما هو أساسي وما هو ثانوي ، وأن نرد العلل الى أصولها ، وان نملك نظرة كلية تبين لنا ما هي الاصول وما هي الفروع ، وما هو أولى بالتقديم وما هو أولى بالتأخير . ان العمل لكل شيء في آن واحد ، يعني العمل للاشيء .

وقيمة الجهود لا تكن في عدتها بل في تنظيمها وانطلاقتها من أسس سليمة ومن استراتيجية محكمة فعالة. ومن هنا فلن يجدي الجهد العربي ما يبذل وما يحار في بذله، ما دام عاجزاً عن مواجهة الموضوعين الكبيرين اللذين تولد منهما سائر الموضوعات وتأخذ سائر الأمور من خلالهما معناها وقيمتها: نعني الوصول الى توحيد المعركة العربية من جانب، وتوفير تفاعل جماهير الشعب وكثرته مع القيادات، من جانب آخر. هاتان هما ضالتّا الجهد العربي، ومن أجلهما ينبغي أن يعمل. والضعف في نجع الجهود التي تبذل وفي فعالية الاعمال التي تقوم، يرجع في النهاية الى اننا لم نعزم بعد عزماً حقيقياً على أن نواجه هاتين الحقيقتين، وعلى أن نستخلص منهما ما يترتب عليهما من نتائج مهما تكن التضحيات كبيرة.

العمل الفدائي هو الصيغة الجديدة للعمل العربي الفعال

على أننا حين نطلب الى الانظمة العربية القائمة أن تواجه هاتين الحقيقتين مواجهة مسؤولة وشجاعة، فكأننا نحمل الأشياء غير طباعها. فطبيعة هذه الانظمة ومنطق تفكيرها وعملها ومبررات وجودها أمور تجعل لزاماً عليها أن تهرب من النتائج المنطقية التي تلزم عن هاتين المسلمتين. وتاريخها حتى الآن هو تاريخ الهرب من الوقوف امامها وجهاً لوجه. والخامس من حزيران يشهد على أن هذه الانظمة هي التي يسرت الهزيمة حين استهترت بتعبئة هاتين القوتين: قوة العمل العربي الموحد المتكامل، وقوة الالتفاف الشعبي المؤمن. وليس هنالك حتى الآن ما يشير الى ان هذه الانظمة التي ولّدت الهزيمة قادرة على تجاوز ذاتها ومغالبة طبيعتها وتكوينها. وتأتي المقاومة الفلسطينية لتكون الجواب، ولتعلن عملياً عجز الصيغ القديمة والحاجة الى صيغة جديدة، قادرة على البداية السليمة الحرة من أثقال الماضي. وتعيد الحركة الفدائية والمقاومة الفلسطينية داخل الاراضي العربية المحتلة الامل الى الوجود العربي والى الأمة العربية، وتضعها على بداية طريق الخلاص، وتقضي على عوامل اليأس لديها، وتومىء لها بأن النصر ممكن. غير أن هذه الحركة المليئة بالأمل والوعود، لا بد لها — لتكون الطريق الصامدة الصابرة المؤدية الى النصر — أن تأخذ في اعتبارها الشروط الاساسية اللازمة لاستمرارها في المعركة ولتعاظم دورها ولبلوغها النصر. وهذه الشروط تنتسب في النهاية وترتد

– في نظرنا – الى الشرطين الكبيرين اللذين كانا وما يزالان ضالة الوجود العربي، والمسؤولين عن تخبطه وضياعه . انهما الشرطان اللذان يحققان وحدة العمل العربي والتفاف جماهير الشعب العربي . **ان المطلوب الى الحركة الفدائية والى حركة المقاومة الفلسطينية ان تحقق ما عجزت الوسائل الاخرى عن تحقيقه وما قصرت عنه النظم العربية ، وبذلك وحده تكون تجاوزاً حقيقياً وعميقاً لتلك النظم ، وتعبر عن ثورة عميقة في أسلوب العمل العربي .** فليست مهمة هذه الحركة أن تستخدم أسلوب الفداء في اطار البنية العربية الضعيفة القائمة أو في معزل كامل عنها ، بل مهمتها أن تجعل من الفداء وسيلة لتغيير هذا الاطار من أساسه . ومسألتها مسألة صراع بينها وبين هذا الاطار المريض : فاما أن تقوى على تحطيمه ، واما أن يحطمها . وعبثاً تفر من هذه الحقيقة . ان نتائجها سوف تلاحقها دوماً ، وان شعورها باهميتها سوف يزداد يوماً بعد يوم .

غير أن مثل هذا الموقف يصطدم بصعوبات عديدة :

أولها انها من حيث الاصل حركة فلسطينية ، تريد ان تستعين بالوجود العربي القائم من اجل بلوغ اهدافها الفلسطينية الخالصة . ومعنى هذا انها لا تريد أن تمس هذا الوجود الذي يقدم لها العون المادي والمعنوي . ومن هنا فهي تفضل ألا تستخرج من ظهورها كل النتائج والمعاني التي يحملها هذا الظهور ، وتؤثر ان تقتصر على المعنى الظاهري ، معنى تعبئة الفلسطينيين تعبئة دموية من أجل استعادة حقهم السليب . وتترك بعد ذلك للمستقبل ولتطور قوتها ما قد يقودها الى صراع بينها وبين الكيان العربي المريض .

وثانيها انها تخشى تعقد الوجود العربي وتعقد مشكلاته ، وتخشى أن تقحم نفسها في ميدان صعب ودوامة مخيفة ، حين تقحم نفسها في مشكلات هذا الوجود وعلله ومذاهبه وتياراته . ولهذا تفضل أن تقف موقف الحياد من هذه العلل والمذاهب والتيارات ، وان تقتصر على هدف ابسط وأوضح واجدر بان يجمع من حولها القوى ويحول دون انقسامها شيعاً ، هدف التضحية من اجل تحرير الارض المغتصبة .

وثالثها انها تعتقد ان الوسيلة الاجدى لبناء الحركة العربية القادرة على تجاوز الواقع العربي وعلى تقديم الحل الحقيقي لازمة الوجود العربي ، هي أن تتكون هذه الحركة من خلال العمل ، من خلال الثورة الفعلية ، من خلال

تجربة الفداء والبذل . انها ترى ان الحركة الثورية العربية المنشودة لا يجوز أن تبنى بناء نظرياً بارداً ، بل لا بد ان تتكون عبر المعركة ، وأن تتضح معالمها من خلال التحام العناصر القادرة على دخول المعركة ، وان تقودها القيادات التي تكونت خلال المعركة ونجحت فيها .

الحركة الفلسطينية لا بد ان تكون حركة عربية شاملة

هذه كلها صعوبات واقعية وحجج فعلية صحيحة في ظاهرها . ولكنها مع ذلك لا تغير من واقع الأمر شيئاً :

١ - **فالحركة الفلسطينية - مهما فعلت - لن تستطيع ان تبقى فلسطينية اذا هي ارادت فعلاً** ان تستمر وتبقى وتنجح . ان بعدها الحقيقي هو بعد الجماهير العربية كلها ، وان قوتها تكمن في انقلابها الى حركة مقاومة عربية . وامتدادها العربي هو الذي يحول دون مقاومة الانظمة العربية لها ، لا العكس. صحيح أن الجماهير الفلسطينية لا بد أن تكون رأس الحربة في هذه المقاومة العربية ، ولا بد أن تتولى القيادة في معركة هدفها الاساسي تحرير فلسطين من أجل تحرير الوطن العربي كله . ولكن هذا لا يعني انه في وسعها ان تعمل وحيدة في الساحة . ان العمق العربي هو الذي يحميها ، يحميها من عدوها الأول ، الصهيونية وقواها الكبيرة ، ويحميها من آفات الوجود العربي التي يمكن أن تقضي عليها .

٢ - ان من الخطأ الفادح ان نجعل الجماهير العربية الغفيرة تنام على أمل وثير ، هو الأمل في فئة تتولى بالنيابة عنها مهمة الدفاع عن وجودها والقضاء على عدوها . ولا يجوز ان نعيد هذه الجماهير كرة أخرى الى نوع من التفكير السحري ، طالما كان مسؤولاً عن فشل المعارك العربية في الماضي ، هو أن نوهمها بان في وسع اي فئة او جيش او نظام او حركة ان تتولى عنها معركة لن تنجح الا اذا شاركت فيها بجموعها الكبيرة وقواها المحتشدة . **والمهمة الاولى لحركة جعلت التضحية والاقدام على الموت شعاراً لها وآمنت بها طريقاً للنصر ، ان تقحم الجماهير العربية في هذه التجربة وان تدربها على شعار التضحية وتبعدها عن حب السلامة وتعدها لامتطاء طريق الموت .**

٣ ـ اذا كان التدخل العربي في المنظمات الفدائية هو الذي يشكل اليوم خطراً على هذه المنظمات وهو الذي يعمل على انشقاقها فعلاج ذلك لا يمكن أن يكون بمنع هذا التدخل ـ لانه مفروض على أي حال ـ بل بقلبه من تدخل تقوم به الحكومات وحدها الى تدخل شعبي واسع يحول بين الحكومات وبين استغلال هذا العمل لاغراض ضيقة . ولا يكون ذلك الا بتوسيع قاعدة انتماء جماهير الشعب العربي الى العمل الفدائي . فوحدة العمل الفدائي لا يمكن أن تكون سوى انعكاس لوحدة ارادة الجماهير العربية ، والا تحقيقاً لنزعة هذه الجماهير الطبيعية الى العمل الموحد والهدف الموحد ، عن طريق اشراكها الواسع في هذه الحركة الفدائية الثورية المنشودة . **ان العمل الفدائي لا بد ان يكون مشتتا منقسماً حين يمثل فئات او انظمة ،ولكنه لا بد ان يكون موحداً حين يمثل الجماهير العربية في مداها الكبير وفي ارادتها الموحدة التي حالت دونها صراعات الفئات والانظمة .**

٤ ـ لقد آن الأوان لان يدرك الشعب العربي ـ بعد تجاربه المديدة والمريرة ـ أن تجاهل المشكلات لا يجدي ، وان اهمالها لا يعني زوالها . لا بد ان توضع النقاط على الحروف وان نواجه الواقع ، مهما بدا لنا معقداً صعباً . فالواقع هو الواقع ، ولا سبيل الى مغالبته الا بفهمه والاقرار بوجوده أولا . قد يكون من القاسي على آمال العمل الفدائي ان يستخرج من الواقع العربي كل ما يوحي به من نتائج . ولكن الواقع القاسي هو الذي يربي ارادة اي عمل نضالي ويزيد في ضراوته وبأسه . قد يبدو له الخوض في متاهة الوجود العربي أمراً صعباً ، ومزلقاً لا يسهل الخروج منه . ولكن ، لا بد مما ليس منه بد . لا بد ان نسلك الطريق ولو دارت . **لا تستطيع الحركة الفدائية ان تدير ظهرها للوجود العربي المريض ، فلا سلامة لها عند ذلك .** لا تستطيع الحركة الفدائية ان تتجاهل ان المسألة مسألة ايجاد الصيغة الجديدة لاشراك الجهد العربي كله ولاشراك الجماهير العربية كلها في معركتها ومصيرها . لا تستطيع أن تنسى انها وجدت لهذه الغاية . وجدت لتقدم الصيغة القادرة على توحيد العمل العربي وعلى لف الجماهير الشعبية العربية . **ان طريقها هو طريق تحرير الجماهير من القيود التي كانت تحول دون مشاركتها في المعركة ، وتحرير الكيان العربي من الحدود التي كانت تحول دون لقائه ووحدته .** وقد وجد هذا الطريق ، ووجدت القوة القادرة على كسر تلك القيود . انها القوة التي يمنحها الفداء

وتمنحها التضحية الصادقة للجماهير العربية حين تدفع ضريبة الدم ، فتجعلها أقوى من القيود التي تغلها ومن الحدود التي تفصل بينها ومن الفئات التي تجمدها والنظم التي تفرض عليها وصايتها بالقوة .

لا بد اذن من تسمية الأشياء باسمائها . **ان حركة الفداء والمقاومة ليست في معناها العميق حركة فلسطينية** . فضل الحركة الفلسطينية انها استطاعت ان تضع يدها على الداء وان تكتشف الطريق وان تيسر أمام الجماهير العربية مهمة التحرر والثورة . لقد أعلنت بقيامها نهاية التجارب العربية الماضية ، وبينت أن الصيغة الثورية الجديدة هي الصيغة المنبثقة من طبيعة المعركة العربية مع الصهيونية والاستعمار ، أي من الفداء والتضحية . وكشفت عن ان هذا الفداء هو الصيغة التي تستطيع أن تجمع الجماهير العربية وتجندها ، لتخلق الحماية اللازمة للثورة الجديدة وللجماهير العربية معاً . لقد حركت الثورة الفلسطينية الجماهير العربية ، فدلتها على طريق تحررها ، ودلتها خاصة على طريق حماية الثورة . ومن هنا **كان التحام هذه الثورة الفلسطينية بالجماهير العربية هو الحماية لكليهما** . ان الشكل المميز للثورة العربية ، النابع من ظروفها وحاجاتها ، ذلك الشكل العربي الذي كان ضالة الافكار والمذاهب والتيارات خلال العقود الماضية من السنين ، قد أخذ يتضح اخيراً من خلال المعركة . انه الثورة العربية التي تبنيها الجماهير العربية العازمة على المحافظة على وجودها بالتضحية والفداء . وعندما تنطلق هذه الثورة ، وتصبح عربية حقاً وجماهيرية حقاً ، لا بد أن تكون بطبيعة الحال ثورة تعبر عن أهداف هذه الجماهير الغفيرة المشاركة في الثورة ، أي لا بد أن تكون أهدافاً شعبية تحررية اجتماعية واقتصادية سليمة ، بالاضافة الى كونها أهدافاً قومية شاملة .

السبل العملية لبناء حركة المقاومة العربية الموحدة

أما السبل العملية لجعل الحركة الفلسطينية حركة ثورة عربية ، فلا يعنينا كثيراً ان نتحدث عن تفاصيلها . انها سبل تدل اليها حركة النضال ذاتها وحركة المقاومة المتعاظمة نفسها . وأهم من البحث فيها اتخاذ هذا الموقف الاساسي الجذري ، وتبني حركة المقاومة له . وعند ذلك لن تعوزها السبل . بل ان الواقع يدلنا الى حد كبير أن مثل هذا الانقلاب للحركة الفلسطينية الى

حركة عربية جماهيرية شاملة ، أمر يتم من تلقاء ذاته ويزداد وضوحاً يوماً بعد يوم . وكل ما نخشاه أن تنظر اليه الحركة الفلسطينية في خجل واستحياء ، أو في خشية وخوف ، فتعطل انتشاره وامتداده السريع . على اننا نشير مع ذلك الى بعض هذه السبل :

أولها دون شك ان يفسح المجال واسعاً امام دخول أبناء البلاد العربية جميعها في العمل الفدائي ، مع الابقاء على دور الفلسطينيين البارز وقيادتهم الضرورية . ان هذه المشاركة الواسعة – بالاضافة الى معانيها المهمة العديدة – هي الوسيلة المثلى لجعل الكيان العربي كله معنياً بالمعركة ، ولدفعه دفعاً حقيقياً في طريق ادراك مستلزماتها وشروطها . وهي فوق هذا وقبل هذا ، شرط ضروري لاخراجه من اطار البحث عن خلاصه مع خلوده الى حب السلامة والراحة ، الى الاطار الجدي للخلاص ، اطار البحث عن الطمأنينة العميقة الباقية من خلال تهديم الطمأنينة الزائفة .

وثانيها أن تكون مشاركة أبناء البلاد العربية مشاركة جماهيرية حقاً ، تتم بالدرجة الأولى عن طريق الانتساب الحر من قبل ابناء الشعب العربي، لا عن طريق الحكومات . اننا لا نرفض اشتراك أبناء البلاد العربية عن طريق منظمات فدائية تكونها الحكومات ، فقد تكون هذه الوسيلة من جملة الوسائل ، غير أن المشاركة الفعلية والأساسية ينبغي أن تكون عن طريق جماهيري عفوي . بهذا الشرط تصبح الحركة الفدائية حركة جماهيرية معبرة فعلاً عن ارادة الجماهير الواسعة وأهدافها العريضة ، وتزول عنها صفة التشرذم ، وتصير يوماً بعد يوم حركة الثورة العربية الجماهيرية الكاملة .

وثالثها ان يكون توسيع اطار الثورة الفلسطينية على هذا النحو لتصبح ثورة عربية ، عملاً مشتركاً بين الحركة الفلسطينية والقوى العربية الحقيقية الممثلة للشعب العربي ولطلائعه الفعالة . فلا يجوز أن نلقي عبء تعريب الثورة الفلسطينية على الثورة الفلسطينية وحدها ، فمثل هذا العبء ، قد تعجز عن حمله وقد لا ترى من المعقول والمقبول أن تتصدى وحدها لحمله . لهذا لا بد من تنظيم طلائع عربية – غير حكومية ما أمكن ذلك – في كل قطر عربي من اجل قيادة الدعوة الى حركة الفداء ، ومن اجل تنظيم الانتساب اليها ، ومن أجل تنسيق العمل مع التنظيم الفلسطيني المستوعب في النهاية لهذه

الحركة كلها . ومن المهم أن تضم هذه الطلائع دوماً في قياداتها عناصر فلسطينية مناضلة ، بل أن تكون هذه القيادات المحرك الأول لولادة هذه الطلائع واستقطابها .

ورابعها ان تعمق الثورة الفلسطينية العربية صلاتها مع الحركات التحررية في العالم كله ، وان تتخذ من هذه الحركات امتداداً لها وحماية . ان من المهم أن تبرز هذه الثورة أمام الرأي العام الحر في العالم كثورة لا تستهدف مجرد استرداد ارض مغتصبة وعودة شعب الى دياره ، بل تستهدف معاني انسانية اعمق واشمل هي معاني النضال ضد القوى الاستعمارية والامبريالية والصهيونية التي خلقت هذا الجسم الاستعماري في الوطن العربي ، وارادت ان يكون حاجزاً دون المد الثوري فيه ودون تحرره الحقيقي من السيطرة الاستعمارية . واتخاذ هذه الثورة مظهر الثورة العربية الشاملة التي تكون الحركة الفلسطينية رأس الحربة فيها ، بدلاً من ظهورها بمظهر حركة فدائية فلسطينية محدودة هدفها العودة الى الأرض والديار ، من شأنه ان يمنح هذه الثورة بعداً عالمياً مهماً ، ويمدها بقوى متعاظمة متكاثرة ، ويجعل منها واحدة من حركات التحرر العالمية الكبرى ، ويجند لبقائها واستمرارها ونجاحها القوى المادية والمعنوية الهائلة والمتزايدة التي تضمها حركات التحرر في العالم .

وخامسها ألا يقتصر الحوار والتعاون مع الحركات التحررية العالمية على قطر دون قطر او على نظام دون نظام . فهنالك في جميع أنحاء العالم قوى اعتراض ونقض وتمرد وثورة ، تضع النظام العالمي كله – في شرقه وغربه – موضع التساؤل ، وتتهم الحضارة الحديثة وتجرحها . انها قوى وحركات وأفكار خفية ومنظورة ، تريد ان تعيد النظر في الحضارة الصناعية الحديثة من أساسها ، وترفض رياءها وتزييفها ، وما تتصف به من زجر وقمع وما تقود اليه من تحكم الانسان في الانسان . نجد جذور هذه الحركات في الفيتنام وكوبا والصين ، كما نجدها في حركات الطلاب في شتى انحاء العالم ، وفي حركة الزنوج في اميركا وفي تململ الشعوب الآسيوية والافريقية ، وفي كثير من حركات التمرد التي تقوم بها فئات وجماعات وعقول تعيش على هامش الزيف الحضاري ، ولا تشترك في لعبة الشعوب . والحركة الفلسطينية المتجهة لتكون حركة عربية ، لا بد ان تمثل واحدة من قوى التمرد هذه ، ولا بد ان تلتقي معها في امور كثيرة . انها حركة تولد من جماعات محرومة معزولة القيت على هامش المجتمع ، ولفظتها

الحضارة الحديثة الكاذبة لتلقي بها في الخيام ، ولا بد لها بالتالي ان تمثل فيما تمثل رفضاً انسانياً عميقاً لهذه الحضارة الزائفة التي تزيد في اضطهـــاد الانسان باسم التقدم ، والتي تستعبد الملايين استعباداً منقّى مصفّى . **لا بد أن تولّد هذه الحركة عمقاً فكرياً فلسفياً ، يجعلها في مصـــاف سائر الحركات التي ترفض وتتمرد على هذه الحضارة** ، لا باسم العود الى البدائية واللاحضارة ، ولكـــن باسم السعي لحضارة انسانية حقيقية تحترم الانسان وتحقق سعادته وترفع عنـــه كابوس الكبت والزجر . لا بد لها ان تهز الوعي الانساني المريض ، الذي يحمل مع ذلك ظاهر العافية والسعادة ، ويمثل نوعاً من الوعي السعيد الزائف ، على حد تعبير هيجل . انها حين تحمل تعاستها وبؤسها وخيامها ، حين تحمل هـــذا الافراز المهين الذي افرزته حضارة التقدم في القرن العشرين ، لتمضي به متحدية محاربة ، فانما تحمل في الوقت نفسه كل ما في القيم الانسانية العميقة من قـــوة وبأس وقدرة . انها لا تحارب من اجل استعادة ارض مغتصبة فحسب ، ولا تحارب من اجل تحطيم الاستعمار والصهيونية فحسب ، بل تحارب فوق هـــذا من اجل تحطيم حضارة زائفة يفرزها التقدم التكنولوجي والصناعي ، ومـــن اجل بناء حضارة انسانية جديدة تتجاوزها علماً وصناعة وقيماً . وبهذا تحمل معها نفحة الانسان الحق ونفحة المستقبل . وليس اقوى بأساً ومضاء من حركة تحمل بيدها مشعل الانسان المضيء . ومن اجدر بمثل ذلك من حركة تحمـــل اليأس الانساني العميـــق والتعاسة الانسانية المصفاة تحت الخيام خلال عشرين عاماً ، لتجعل منها قوة قادرة على ان تسخر من كل قـــوة ، ما دامت تسخر من الموت .

نحو ثورة عربية شاملة

ان الثورة الفلسطينية ، السائرة لتكون ثورة عربية شاملة ، يرجى لها ان تلتقي مع أترابها من ثورات العالم ، لتكون ثورة الاضطهاد والمضطهـــدين ، ثورة المعذبين في الأرض ، ثورة الملايـــين المرشحين لان يلقي بهم دولاب الحضارة الحديثة ويرمي بهم باسم الحضارة ،ثورة العالم الثالث كله في نهاية الامر المرشـــح يوماً بعد يوم – بفضل التقدم المزعوم – لان يغدو عالم العبيد الذي يخدم عـــالم السادة . بل انها مدعوة لان تكون مع أترابها ، ثورة العالم كله الذي أعطتـــه الحضارة الشيء الكثير وأفقدته نفسه ، والذي علمته تلك الحضـــارة أن يكبت

نفسه بنفسه ويزجر نفسه بنفسه باسم التقدم والحضارة ، وأن يقبل حضارة بلا روح ومدينة بلا قلب . وبعد أفلا تمثل اسرائيل التي أفرزها التقدم وأفرزتها الحضارة ، قمة تعاسة هذه الحضارة وهزلها ومجونها وهزأها بالانسان ؟ أو لم يتصور العالم الغربي «المتحضر» في يوم من الأيام أن معركة اسرائيل مع الشعب العربي ، أشبه بمعركة صفوة من العلماء والفنيين لهم كل حقوق العيش الكريم ، مع فرقة من المتوحشين جديرة بالفناء ليحيا من هو أجدر منها بالبقاء؟

ولكن الكرامة الانسانية قادرة دوماً أن تثبت أن قضية الانسان ليست مجرّد قضية تفوق علمي وفني ، وأن هذه الكرامة حين تحمل السلاح وتركب الموت تستطيع أن تنقل الجبل من مكان الى مكان . ولنا في بطولة «الفيتنام» مثل ساطع . انها النقض العملي لقيمة الحضارة الحديثة ، والتبشير العميق بما يتجاوزها . ان في وسع الايمان بقيم الانسان أن يجلب التقدم العلمي والفني في معناه الحق ، وليس في وسع التقدم العلمي والفني المفرغ من قيم الانسان ان يجلب الايمان القادر على حماية ذلك التقدم .

أن أعمق ما يشهد على المعاني الانسانية التي تحملها الثورة الفلسطينية ومن ورائها الثورة العربية الممتدة منها ، انها تعلن منذ اليوم أنها لن تكون حركة تتنكر لحق اليهود في العيش في فلسطين جنباً الى جنب مع العرب ، يوم يفرق هؤلاء اليهود بين وجودهم وبين الحركة الصهيونية العالمية المستعمرة وأطماعها التوسعية .

ان هذه الثورة تلتقي في أعماقها مع الشعارات الانسانية التي حملتها القومية العربية دوماً في عصور ازدهارها ، ومع الروح الانسانية التي بشرت بها ومع المعاني الانسانية التي يسعى اليها الانسان الحديث . وهي تحمل السلاح في سبيل هذه القيم ، ما دامت الاسنة سبيلها الوحيد الى توكيدها. انها لا تدعو الى قومية شوفينية ضيقة ، على نحو ما تفعل الصهيونية ، بل تحارب الصهيونية لتقيم القومية العربية المنفتحة التقدمية الانسانية ، ولتقضي الى الأبد على مخلفات التفكير القومي التعصبي الضيق الذي تريد الصهيونية أن تحمله الى العالم في أواخر القرن العشرين وتباشير القرن الحادي والعشرين .

*

ولكن يطول بنا الحديث لو أردنا أن نستنفد كل ما توحي به المقاومة العربية من شجون وما يمكن أن تحمله من معاني قومية وانسانية عميقة . وهيهات

أن نوفي في هذه العجالة جانباً مما يجدر بحثه عند الحديث عن هذه المقاومة .

وحسبنا أن أومأنا الى أهم ما في الأمر في نظرنا : **المقاومة الفلسطينية لا بد ان تنتهي الى حركة مقاومة عربية ، بل الى حركة مقاومة عالمية انسانية .** هذا هو وحده الشأو الذي يرتفع بها الى مستوى المعركة ويضعها في حجم المهمة ومقياسها . ولقد بدأت بوادر ذلك فيها ، ولا بد أن تتعمق هذه البوادر ، مـا دامت هذه الثورة حية مستمرة . وهدف الجهـد العربي ، في مختلف مستوياته ، ينبغي أن يكون العمل على توفير الشروط اللازمة لتفتح هذه المقاومة وبلوغهـا كامل أبعادها ومداها . فأمل الوجود العربي هو هذا الأمل الوحيد ، وفرصتـه هذه هي الفرصة الذهبية . لن يفقد شيئاً حين يضع كل ثقله في سبيـل حماية هذه الحركة الفتية وحين يجعل منها حركة الشعب العربي كله . بل سـوف يربح من خلالها كل شيء . لم يبق لدى الأمة العربية من أقصاها الى أدناها ما تفقده . انهـا مهددة بالفناء وبالموت البطيء . لن يجديها أن تفكر في أي شيء ، في الانظمـة، في المصالح ، في الاهل والولد ، في حياة الدعة والسكينة . فهذه كلها لن تقـوم لها قائمة اذا هي ظنت أن في وسعها أن تحافظ عليها بالركون الى طريق السلامة. ان عليها أن تدرك وتثق ان عهد الأمن والطمأنينة والراحة قد مضى ، وان عليها ان تهدم طمأنينتها الزائفة لتبني طمأنينتها الحقيقية . من قلب المعركة وحدها يمكن ان يولد المستقبل المضيء ، ومن تحدي الموت يمكن ان تولد الحياة . السـلام لن يصنعه لها احد ، ان لم تصنعه بحبائل الموت .

الى حركة المقامة العربية الشاملة ندعو ، فليس دونها خلاص .

عبدالله عبد الدائم

غسان كنفاني

العمل الفدائي في مأزقه الراهن

تعرضت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين منذ نشوئها الى هجمة اعلامية معاكسة يحتاج شرحها وشرح اسبابها الى العديد من الصفحات ، ومع ذلك فان حجم هذه الهجمة المعاكسة ، منذ تأسيس الجبهة عن طريق اندماج ثلاث فرق (شباب الثأر [الفرع الفلسطيني في حركة القوميين العرب] وابطال العودة ، وجبهة التحرير الشعبية) في تشرين الاول ١٩٦٧ ، وحتى كانون الثاني ١٩٦٩ حين تكرس نهائيا تقريبا انشقاق الفريق الذي اطلق على نفسه فيما بعد اسم الجبهة الديمقراطية ، - ان حجم الهجمة المعاكسة على الجبهة الشعبية بين ذينك التاريخين، كان اقل بكثير من الهجمة التي تضاعفت في اعقاب ذلك ، وما تزال مستمرة ، بشكل او بآخر ، حتى الآن .

ومنذ تشكيل الجبهة الشعبية كان من الواضح ان هذا الفريق الطليعي في حركة المقاومة المسلحة هو « ارض حرث » قابلة وحساسة للكثير من التطورات المتسارعة التي كانت تؤدي على الفور الى انعكاسات سياسية وتنظيمية وعسكرية داخل الجبهة ، ولعل هـذا بالذات هو الذي ادى الى ثلاث نتائج اساسية :

اولاً : شعور الاطراف المختلفة باحتمالات «الخطر» الذي يشكله التطور المتسارع داخل الجبهة الشعبية ، وبالتالي محاولة العمل على حصاره .

ثانياً : الانشقاقان اللذان حدثا داخل الجبهة ، الاول «جبهة التحرير الشعبية» الميالة الى النهج العسكري البحت والتي وجدت انه من الأفضل لتوجهاتها ان تخرج من العلاقة التنظيمية التي عقدتها مع «شباب الثأر» و«ابطال العودة» في تشرين الأول ١٩٦٧ امام النمو المتسارع لعملية الالتزام بالماركسية اللينينية ، والانشقاق الثاني كان خروج مجموعة اعتبرت ان ولاءاتها « اليسارية » اكبر حجماً من ان يتسع لها الاطار التنظيمي للجبهة الشعبية . اما فريق « ابطال العودة » فقد اتخذ قراراً بالاندماج التنظيمي الكلي في الجبهة في كانون الاول الماضي.

ثالثاً : التسارع الفائق في الالتزام الايديولوجي بالماركسية اللينينية وانعكاس هذا الالتزام على مسائل العلاقات السياسية والتثقيف والتنظيم والنشاط العسكري داخل الجبهة الشعبية ، والذي تمثل بصدور «الاستراتيجية السياسية والتنظيمية للجبهة الشعبية» في اعقاب مؤتمر شباط١٩٦٩ ، وهو التقرير الذي يحدد الالتزامات الواضحة للجبهة الشعبية ، وكذلك في اجراء تطويرات ثورية في العلاقات التنظيمية وفي النشاط السياسي والعسكري ، وفي الشروع بالعمل في «مدرسة الكادرات » التي تتبع برنامجاً عسكرياً تدريبياً وسياسياً تثقيفياً هو من اعلى المستويات والاول من نوعه ، جدير بتخريج صفوف من المقاتلين السياسيين في مستوى مهمات العمل الثوري .

على ان ذلك كله ظل مجهولاً لغالبية المتتبعين للأحداث ، امام هجمة اعلامية معاكسة على الجبهة الشعبية قل نظيرها ، وقد اشتركت في هذه الهجمة ، على قدم المساواة الانظمة العربية - يمينها ويسارها - وتنظيمات حركة المقاومة - يمينها ووسطها ويسارها - والمؤسسات الحزبية الدولية - ليبراليوها وماركسيوها وتروتسكيوها !

وفي غمار ذلك جرت عملية تطويق وحصار مذهلة ، الى حد تكفي الاشارة فيه ان « الاهرام » ، مثلاً ، عند خطف الطائرة الاميركية ، نسبت تلك العملية لمنظمة التحرير !

ولم تكن الجبهة الشعبية في موقف يتيح لها التفرغ للرد على هذه الهجمة المعاكسة :

اولاً ، لان مهماتها كتنظيم ثوري كانت من الضخامة ، تنظيمياً وسياسياً وعسكرياً ، بحيث انها جعلت اي التفات الى غير واجب تلبية تلك المهات هو مجرد هدر لا يفيد منه احد . وثانياً لانها كانت ، وما تزال ، تعتبر ان انشاء جبهة وطنية فلسطينية مهمة ملحة ويتوقف عليها الى حد بعيد مصير الثورة ، في حين ان المناكفات وتبادل الاتهامات وتوتير الجو لم يكن الا ليعرقل مثل هذا التوجه .

ان نظرة واحدة على طبيعة الهجمة الاعلامية المعاكسة التي وجهت ضد الجبهة الشعبية ، وما تزال ، كفيلة أن ترينا بانه يندر ايجاد تهمة لم توجه لها . فهي يمينية ، وهي فاشية ، وهي تخريبية هدامة ؛ هي «سارقة جهود الثوار» وهي يسارية متطرفة ؛ هي اقليمية ، وهي عروبية؛ هي ماركسية فوضوية ، وهي قومية شوفينية ؛ هي رجعية وهي ملحدة . وقد تكررت هذه الاتهامات في بلاد تمتد من الرباط الى الكويت : ان صحيفة الجبهة ممنوعة من دخول سوريا والسعودية ومصر والجزائر والمغرب وتونس واحياناً تمنع في الاردن ، اما نشاطها فهو - فيما عدا عدن وعمان وبغداد - محاصر او ممنوع او مراقب ، وقد ذاق رجالها وما يزالون طعم السجون في جميع العواصم العربية دون استثناء ، ومع ذلك فهي وحدها التي تقود ابرز ما في المقاومة من امجاد (غزة) ولها في سجون العدو اكثر من خمسمئة مقاتل ، وفقدت اكبر عدد من المسؤولين العسكريين ، وهي اكثر تنظيم فلسطيني قدرة على الضرب في الداخل ، وقبل ذلك كله : هي التنظيم الفلسطيني الوحيد صاحب الاستراتيجية المعلنة بوضوح والملتزمة نهائياً بهذه الستراتيجية في المارسات .

بسبب ذلك كله يرفض اليمين ، العربي والفلسطيني ، الجبهة الشعبية ويعمل على حصارها وعزلها ، وكذلك يعطي «اليسار الطفولي» كل وقته تقريباً للعمل على تشويهها وتفجير الشائعات والاتهامات ضدها . ووسط ذلك كله تشق الجبهة الشعبية طريقها ، وهي تزداد وعياً ليس فقط بحجم القوى التي تواجهها ، ولكن ايضاً بمأزق العمل الوطني الفلسطيني والعربي . ولذلك بالذات

تطوع كل جزئيات سلوكها للمهمة الاولى العاجلة والاكثر الحاحاً ، وهي العمل على الخروج من هذا المأزق لمواجهة تلك القوى الهائلة المستنفرة ضد حركة المقاومة الفلسطينية . وهي على قناعة بان مثل هذه المواجهة – على مستوى المسؤولية – لا يمكن القيام بها الا من خلال جبهة وطنية فلسطينية هي حلقة في جبهة وطنية عربية ، وبالتالي فان الاغراق في المهاترات هو حرف للتوجه الثوري المطالب اكثر من اي وقت مضى بالعمل الدائب على تحقيق الحد الادنى من مسؤوليات المعركة .

كان لا بد من هذه المقدمة السريعة للدخول الى الموضوع الذي نحن بصدده ، اذ دونها لا يمكن لهذا البحث ان يخدم غرضه الاساسي .

*

جرت العادة ان يقع اي بحث نقدي لحركة المقاومة بمرحلتها الراهنة في حقل من الافخاخ: اننا لا نتحدث هنا عن الافخاخ التي تهيئها النظرة الانفعالية او العصبوية ، او النظرة التي تغلب متطلبات الحاجة الاعلامية ، على المنهج النقدي او تلك التي تحصر نفسها – طوعاً او مرغمة – بالجزئيات التكتيكية ، ولكننا نتحدث عن افخاخ اكثر خطورة تتعلق بالمنهج النقدي الذي يتبع في قياس حركة المقاومة .

هذا المنهج يسقط عادة في «الانتقائية» ولكنه يسقط ايضاً في المذهبية الجامدة ، واهم من ذلك كله هو انه يحل نفسه من الالتزام بالاساس العلمي والموضوعي للعملية النقدية التي هي جزء لا يتجزأ من العمل الثوري برمته ، اذا كانت الثورة – كما هي فعلاً – ملازمة قطعاً وبالضرورة بتفسير العالم وتغييره في آن واحد .

ان واقع المقاومة ، مثله مثل أي واقع آخر ، هو في حقيقته حركة العديد من الجزئيات ، المرتبطة ببعضها رباطاً جدلياً مستمراً . ولا شك ان الخطيئة النقدية المميتة ترتكب حين تفرض حالة السكون فرضاً على جزئية واحدة من هذا الواقع ، فعندئذ تكرّ على التوّ سلسلة من الاخطاء : فصل هذه الجزئية اعتباطاً عن عدد غير محدود من الجزئيات الاخرى ، ثم تسكينها بصورة قسرية ، ثم دراستها او نقدها او قياسها بمعزل عن تلك الصلة الجدلية بين العمل والمعرفة .

من هنا نرى كيف ان عدة مقالات نقدية ظهرت خلال الفترة الماضية تقيس المقاومة الفلسطينية بمسطرة العمل المسلح وحده ، كما ظهرت مقالات اخرى تقيس المقاومة قياساً مذهبياً بحتاً يحول المسألة الى ركام من الصيغ والادبيّات . وثمة قياسات قطرية تعزل المقاومة الفلسطينية كما يعزل الكيماوي في المختبر خلية حية .

ان اية نظرة نقدية للمقاومة ، في مرحلتها الراهنة ، تفترض بالبداهة ادراك مجموع اطراف هذه العلاقة المتحركة في المسألة كلها ، وتفترض النظر الى واقع هذه المقاومة من زاوية علاقاتها المتبادلة ، وحركتها وتغيرها ونموها . ان المنهج الديالكتي هو ذاته ، في جوهره ، نقدي وثوري – كما يقول ماركس – وهو بلا شك مستمر ، ومن هنا فان العملية النقدية لا يمكن الا ان تكون جزءاً من مجموع الجزئيات التي تشكل علاقاتها المتبادلة ، او المتوترة ، او المتناقضة الحركة المستمرة للتاريخ .

ان الخطأ الاساسي يبدأ عند الفصل بين النظرية والممارسة واصطناع الحواجز بينهما ، فذلك يؤدي الى الجمود المذهبي من جهة والى الميكانيكية في فهم التاريخ والتجريبية في ممارسة محاولات تغييره من جهة اخرى .

كان لا بد من هذه المقدمة الموجزة لتحديد منهج نقدي : فلا ريب انه ينبغي رفض الاسلوب النقدي لا يؤدي الى جعل الممارسة قادرة على تصحيح النظرية، وبالتالي الى اغنائها، كي تغود وتؤثر في الواقع ، ولذلك فعلينا منذ البدء تحديد الاطراف الاساسية للمسألة ، هذه الاطراف التي تشكل علاقاتها بعضها بالبعض الآخر الأساس الكامن والجوهر الحقيقي للمسيرة الثورية الراهنة والتي لا يؤدي الفصل المصطنع فيما بينها الا الى فوضى .

فهناك أولاً مسألة الفكر السياسي في المقاومة الفلسطينية ، وهنالك ثانياً مسألة الممارسات التي تبرز من بينها الممارسة القتالية بالدرجة الاولى ، ولكن هنـاك ثالثاً ما يعطي هاتين المسألتين عمقهما وفعاليتهما وهو يتركز في المسألة التنظيمية .

يلخص ماوتسي تونغ هذه المسألة المثلثة بقوله : « ان مهمتنا هي كعبور نهر ، الا اننا لا نستطيع عبوره دون جسر او قارب ، واذا لم نحل مشكلة الجسر والقارب فكل حديث عن انجاز المهمات دون حل مشكلة اساليب العمل هو مجرد ثرثرة » (*).

نحن اذن امام معضلة مثلثة : النظرية ، والممارسة ، والاسلوب الذي هو في جوهره مسألة تنظيمية . ان ذلك يعني أن أي بحث نقدي لحركة المقاومة لا يستطيع ان يجتزىء طرفاً من هذه الاطراف الثلاثة ، ويسكنه ، ويجعله الميزان الاوحد لتقييم ما يحدث ، واذا فعل ذلك فانه يسقط على التو في أخطاء قاتلة .

لم يعد من المقبول ، ولا من المجدى ان يكون «العمل الثوري» مجرد ممارسات تجريبية غير مسلحة بالفكر السياسي ، وكذلك فان الفكر السياسي او النظرية ، دون ممارسة فعلية تقود عادة الى ثرثرة داخل حلقة مفرغة . على ان المسافة القائمة بين النظرية والممارسة لا يمكن تغطيتها ميكانيكياً ، فالعلاقة بين الفكر السياسي وممارسته ، بين النظرية والتطبيق ، تطرح مسألة ثالثة موازية في الاهمية هي المسألة التنظيمية .

واذا كان « التنظيم هو شكل التوسط بين النظرية والممارسة » (١) فان المسائل السياسية المنبثقة عن الرؤيا النظرية ، وعن الممارسات ، لا يمكن فصلها بصورة ميكانيكية ـ كما يقول لينين ـ عن المسائل التنظيمية . ولا ريب في ان العكس هو ايضاً صحيح ، ذلك ان المسألة التنظيمية ليست مسألة تكنيكية ، ولكنها طرف في العلاقة الجدلية المتنامية بين النظرية والممارسة : ان التنظيم حين لا يكون وليد نظرية ثورية ينتهي الى صيغة تآمرية ، وحين لا يكون التنظيم واسطة تلك النظرية الى الممارسة التنفيذية فهو ينتهي الى تجمع عصبوي معزول .

الايديولوجية السياسية هي التي تقرر شكل التنظيم ومهماتـه ، (علاقات افراده بعضهم

(*) ماوتسي توغ ـ المؤلفات المختارة (بكين) المجلد الاول ـ ص ٢٢٠

(١) جورج لوكاش (ترجمة طرابيشي ـ في التنظيم الثوري)

بالبعض الآخر وعلاقاتهم بالجماهير ، العلاقات بين القيادة وبين القاعدة ، الهيئات المنبثقة عن التنظيم وعلاقاتها ومهماتها ... الخ) والتنظيم هو الذي يستطيع القيام بعمليات التصحيح والاغناء للمسيرة الثورية من خلال قدرته المتواصلة في قياس الممارسات على النظرية . انه من هذه الناحية يشكل الضمانة الاقدر على الحيلولة دون تسرب امراض باتت معروفة حين ووجهت بها تجارب ثورية عبر التاريخ : (عبادة الشخصية ،نزعة المغامرة ، العسكريتاريا . الطفولة اليسارية ، الانتهازية ، الفردية ، البيروقراطية ... الخ).

ان النظرية تصبح عديمة الهدف اذا هي لم ترتبط بالممارسة العملية الثورية ، وكذلك فان الممارسة العملية ستصبح ممارسة على غير هدى اذا لم تنر طريقها نظرية ثورية (١) تلك هي الصيغة التي فسر بها ستالين ، كما يبدو ، جملة لينين الشهيرة « لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية» .ولكن هذا الكلام كله ليس صيغاً سحرية ، ذلك ان « السبب في ان الماركسية تؤكد على اهمية النظرية يعود بالضبط ، وفقط ، الى انها تستطيع توجيه العمل » (٢). ان الضابط الاساسي في هذه المعادلة هو التنظيم .

ان التشديد على القيمة الجوهرية للمسألة التنظيمية يعود هنا ، في الحقيقة ، الى الكثير من الاهمال الذي حظيت به هذه المسألة في التطورات السياسية العربية خلال نصف القرن الماضي والنتائج الباهظة الثمن التي ترتبت على ذلك الاهمال . ومن هنا فان اية عملية تقييم تستهدف النظر الى نشاط المقاومة الفلسطينية خلال تجربتها الماضية لا بد ان تتسلح بمنهج ، والا انتهت الى مجرد احساسات ومشاعر ذاتية ، تخضع في هذه الدرجة او تلك للانفعال ، وللجزئيات ، وتضرب في مجل التعقيدات التي تحيط بالتجربة الراهنة على غير هدى : فثمة من يرى في العمل الفدائي الآن مجرد ممارسات عسكرية وينقدها ، او يصفق لها ، على هذا الاساس ، وثمة من يرى في هذه المرحلة مجرد مناسبة للتسابق في بناء المواقف النظرية او الاغراق في عملية التنظير السياسي ليس غير .ولا شك ان ثمة من يتخذ الأمرين معاً ، الممارسة والنظرية ، خلفية اساسية لتقييماته . على ان ذلك كله يظل ناقصاً ، ولا ريب انه يؤدي الى الاخلال بالميزان الصحيح للعملية النقدية التي لا بد منها والتي لا غنى عنها ، هذه العملية التي يمكن مهما بلغت جرأتها ان تؤدي الى نتائج معاكسة حين تصوب رؤيتها على جزء واحد من اجزاء الصورة ، وتغلبه على بقية أجزائها المترابطة . إن النظرة النقدية المسؤولة ، بالنسبة لهذه المرحلة بالذات التي تجتازها حركة المقاومة الفلسطينية ،ينبغي ان تواجه جملة المسائل الاساسية من خلال صفتها الجدلية ، ولا شك ان عملية «تسكين» جزء منها سيوصل التقييم الى رسم حجوم خاطئة لطبيعة الامور التي تحدث: ان قياس المقاومة الفلسطينية بمجرد البلاغ العسكري ، او قياسها بمجرد الموقف السياسي النظري ، او قياسها بمجرد الشكل التنظيمي ، سيؤدي لا محالة الى خداع الجماهير ان نحن لم نقل خداع الذات، ولا بد لهذه المسائل الثلاث ، من خلال وعي علاقتها الجدلية ، ان تمتحن معاً .

ولا بد من الاعتراف بصعوبة مثل هذا العمل ، هذه الصعوبة التي تعود بالدرجة الاولى الى عضوية الترابط الموضوعي بين هذه الموضوعات الثلاث : النظرية والممارسة والتنظيم . الا ان

(١) ستالين : اسس اللينينية .
(٢) مارتسي تونغ : المؤلفات المختارة (مجلد ١ - ص ٤٤٥).

البديهي هو ان يكون الغرض من النظر الى كل منها على حدة ناتجاً عن حاجة دراسية فحسب ، على ان يسمح للتداخل الحتمي بين هذه الموضوعات ان يصل الى مداه .

١ - الفكر السياسي في حركة المقاومة

لم يعد قول لينين بان « لا ثورة دون نظرية ثورية » مسألة نقاش ومماحكة . ولكن هذه القضية لا تقف هنا ، ولا يشكل هذا الشعار صيغة سحرية بل ربما كان بداية لمسألة أشد تعقيداً . والحزب الشيوعي الصيني ذاته يعلن أن « الماركسية - اللينينية ليست معتقداً ، بل هي دليل للعمل وهي تتطلب ان تنطلق من الواقع ، وان نطبق بمرونة وبروح مبدعة مبادئها لحل المشكلات التي تبرز في مجرى النضال ، وان يتاح لنظرياتها استمرار التطور » (١). وماوتسي تونغ نفسه ، كما ذكرنا ، يقرر ان تأكيد الماركسية على ضرورة وأهمية النظرية يعود بالضبط ، وفقط ، الى انها تستطيع توجيه العمل . وماوتسي تونغ هو ذاته ايضاً من وصف محاولات نقل التطبيقات السوفياتية حرفياً الى الثورة الصينية بانها «اشبه بمن يبري قدميه لتلائما الحذاء » (٢) . ان ذلك يشير بلا ريب إلى ان مسألة الولاء لنظرية ثورية هي مسألة ابداع او مسألة تعامل مع الواقع الموضوعي من خلال تلك العملية الجدلية التي يتبادل فيها التطبيق مع النظرية ثراءهما المشترك . وربما كان لينين هو اكثر من شدد على هذه المسألة .

ثمة في الساحة الفلسطينية ، مناوأة مزدوجة من جهتين مختلفتين لهذه الموضوعة : فمن ناحية يشدد طرف على عدم ضرورة وأهمية النظرية الثورية في الثورة ، ومن ناحية أخرى يشدد طرف آخر على بري رأسه ليلائم القبعة الماركسية الجاهزة . ومن المفيد ملاحظة نتائج هذين السلوكين المتناقضين : فالطرف الاول الذي يلغي أهمية النظرية الثورية في الثورة يتجه اكثر فأكثر نحو اظهار ثقله على صعيد الممارسة ، في محاولة لاعطائها الاهمية الاولى وربما الوحيدة ، فأخذ وجوده الطابع العسكري بالدرجة الاولى ، فيما اتجه الطرف الآخر نحو الاغراق في «التنظير» - باسم اليسار - على حساب الممارسة الثورية الحقيقية ، واحياناً على نقيض منها ، جاعلا القيمة الاساسية لوجوده وقفا على صيغ واصطلاحات ومواقف منسوخة نسخاً عن ادبيات اليسار الماركسي اللينيني . لماذا ، اذن ، ذلك التشديد الذي كرره اساتذة الاستراتيجية الثورية ، على ضرورة النظرية الثورية وعلى ضرورتها بشكل خاص كدليل عمل ؟ ان الثورة ، حتى في تفاصيلها اليومية ، لا يمكن ان تتقدم ان هي لم تكن مزودة بافق استراتيجي ، والقيمة الأساسية للتحركات التكتيكية - السياسية والعسكرية - هي في كونها تصب في نهاية المطاف في مصلحة ذلك الافق الاستراتيجي .

من المعروف انه - حتى عسكرياً - تبدو القضايا التكتيكية بعيدة عن الاهداف السياسية النهائية . ولكن يبدو من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، فصل الاهداف السياسية عن الرؤيا الستراتيجية . فاذا كنا على قناعة بان التكتيك هو طرف واحد في عملية جدلية تتقدم

(١) تقرير يتنغ سياو - بينغ للمؤتمر القومي الثامن للحزب الشيوعي الصيني ١٥/٩/١٩٥٦ .

(٢) المؤلفات المختارة - (مجلد ١) صفحة ٢٦٦ .

دائماً ، فانه من المستحيل اذن الا يكون لذلك التكتيك اطار استراتيجي عريض . « ان فهم الكل يمكن المرء من معالجة الجزء على وجه كامل لان الجزء خاضع للكل ، اما الرأي القائل بان النصر الاستراتيجي رهن بالنجاحات التكتيكية فهو رأي خاطىء لان صاحبه لا يدرك ان الشيء الرئيسي والاول الذي يقرر مصير الحرب هو البراعة ، او عدمها ، في اخذ وضع الحرب الكلي ومراحلها المختلفة والعلاقة بينها ، بعين الاعتبار » (١) .

ان ذلك يوضح بان الحرب (التي تعرف عادة بانها السياسة في درجتها العنيفـة) ، هي بالدرجة الأولى رؤيا استراتيجية ، ومثل هذه الرؤيا لا يمكن ان تتوفر الا من خلال دليل عمل أي نظرية ثورية . ان مراحل الثورة المختلفة ، من اصغرها وحتى آخرها ، خاضعة بالطبيعة لكل ما تخضع له اشياء عالمنا : الحركة الجدلية المستمرة ، ولذلك بالذات فانها محكومة بالدرجـة الاولى لقرارات الانسان ، المسؤول عن مصيره . ومثل هذه القرارات لم تعد في عصرنا خاضعة للتجريبية او الدوغماتية . إن المقاومة الفلسطينية في مرحلتها الراهنة ما تزال تفتقد ـ لدى هذا التنظيم او ذاك ، وبهذه الدرجة او تلك ـ افقها الستراتيجي بما يختص ببعدين شديدي الاهميـة : البعد القومي ، والبعد الطبقي .

ولا يبدو في التشديد على أهمية هذين البعدين معاً ، وعلى المستوى نفسه ، أي تناقض كما قـد يخيل للحرفيين النساخين . فالحديث عن البعد القومي الوطني ليس حديثاً عن الشوفينيـة ، أو بحثاً للبورجوازية عن اطار يبرر وجودها في السلطة وفي قمة علاقات الانتاج ، بل هو حديث عن الخصائص التاريخية المشتركة والمصير المشترك للطبقات الكادحة العربية صاحبة المصلحة الأولى في معركة التحرير وفي هزيمة عدوها المثلث : اسرائيل والامبريالية والرجعية ، وحديث عن معركتها الواحدة ليس فقط كحقيقة موضوعية يفرضها كونها تنتسب الى أمة واحدة ، ولكن أيضـاً كحقيقة تفرضها المعركة ذاتها .

إن هذين البعدين في الثورة : بعدها القومي وبعدها الطبقي ، يشكلان معاً عمقاً أساسياً في مستقبل النضال الفلسطيني ، ومع ذلك فانهما لا يزالان غائمين ، بالرغم من الشوط الذي قطعـه الكفاح الفلسطيني المسلح حتى الآن . المسألة ، على الصعيد القومي ، ناتجة ، في جزء كبير منها ، عن فقدان الأفق الطبقي في تحليل ورؤية الظروف الموضوعية . وقد أدى ذلـك العجز الى سقوط بعض الفصائل في فخ القطرية . ومن الممكن النظر باختصار الى هذه القضية على الصورة التالية : لقد ادت الحقائق الموضوعية وتطوراتها الى قفزة حققتها الحركة الوطنية الفلسطينية ، متقدمة بالاجمال عن تلك التي كانت القوى الوطنية العربية مؤهلة لهـا . لكن اذا كانت الحركة الوطنية العربية تتحمل ذاتياً جزءاً من هذه المسؤولية ، فان تحميل المسؤولية كلها ، إلى درجة القطيعة ، هو قصور عن فهم طبيعة الواقع وتطوراته : فقد كانت الانظمة العربية البورجوازية الصغيرة عاجزة عن تهيئة الظروف الكفيلة بانضاج هذه الحركات الوطنية العربية ، أو بتهيئة جو ملائم عملياً لنمو قوى أخرى ، ذلك أن معظم هذه الانظمة لم تكن بورجوازية صغـيرة فحسب ، وإنما كانت تضيف الى هذه الصفة ـ بطبيعة نشوئها وممارستها ـ الصفة العسكريـة والبوليسية . وهكذا فقد انهكت بتصورها القاصر للحزبية والعمل التنظيمي ، (حتى ذلـك

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧٠ .

العمل التنظيمي الذي حاولت بناءه لخدمة اغراضها الذاتية) الاحزاب الوطنية العربية ، واورثتها للمعركة حين وصلت الى مرحلة اكثر تقدماً تشكيلات منهكة ومهتزة ومتعبة الى اقصى مدى ، فكرياً وتنظيمياً على السواء .

لا ريب في أن الانظمة البورجوازية الصغيرة ، فوجئت بالهزيمة قبل أن تستكمل دورها ، واطاحت هذه الهزيمة ببرنامجها العاجز والقاصر ان لم نقل انها فضحت ذلك البرنامج وعرّته تماماً . ولكن وجود انظمة بورجوازية عربية أكثر رجعية وأكثر امعاناً في التحكم العشائري او الاقطاعي او الاحتكاري من الانظمة البورجوازية الصغيرة جعل سقوط هذه الاخيرة عملياً مع برامجها السابقة واللاحقة ، مسألة لم تحدث بالسرعة التي توازي حجم هزيمتها وسرعة وقوعها، بل انها - على صعيد جماهيري - ما تزال او على الاقل ما يزال بعضها ، يجذب ولاءات شعبية ، وينازع حركة المقاومة على تلك الولاءات .

ان هذه الصورة المشوشة للواقع الذي خلقته الهزيمة ، لم يتح فقط لهذه الانظمة البورجوازية الصغيرة الامعان في انهاك الحركة الوطنية المحلية والفتك بها وقطع الطريق عليها بمختلف الحجج ، بل أدى ايضاً الى حجب الافق الستراتيجي للثورة لدى بعض فصائل المقاومة الفلسطينية ، التي اخذت - احياناً - تلوم «العرب» (هكذا ، بلا تحديد) على الفشل في تحرير فلسطين ، واحياناً اخرى مناقضة تتعامل مع «العرب» هؤلاء (ولكن هذه المرة بالتحديد : الانظمة) دون ان ترى في ذلك تعاملاً مع اولئك الذين فشلوا في التحرير ، والذين ما زالوا يمارسون اعتى وسائل الكبت ، ضد خلق أي مناخ صالح لنمو ولانضاج قوة ثورية شعبية ، هي وحدها الحليف الطبيعي لحركة المقاومة .

من الناحية الواقعية هناك سؤالان أساسيان وملحان في هذا النطاق ، هما : هل يستطيع شعب فلسطين وحده (أو هل المطلوب منه وحده) تحرير فلسطين؟ واذا كان الجواب لا ، فمع من يجب على الثورة الفلسطينية أن تقاتل وضد من ؟ ان هذين السؤالين يطرحان قضية استراتيجية على التو ، يبدو فيها الخط القتالي ملتحماً تماماً مع الخط السياسي ، بحيث لا يمكن التقليل من أهمية النظرية الثورية وضرورتها ، لان مثل هذين السؤالين لا يدفعان بالضرورة نحو تحديد الافق القومي فحسب ، بل يقتضيان ايضاً حل سلسلة من القضايا المهمة ، ربما كان طليعتها قضية تحديد العدو وتحديد الصديق ، قضية تحديد اداة الثورة الاطول نفساً ، قضية تحديد اسلوب التحرير ، قضية تحديد التنظيم الطليعي ومهماته وعلاقاته ، الى آخر ما هنالك من قضايا لا يمكن حلها دون دليل عمل نظري يتفاعل مع ممارسات ثورية متواصلة ، ويؤدي الى استكشاف الأفق الطبقي للمعركة . ومن الخطأ الفادح وضع هاتين المسألتين ، في فكر المقاومة السياسي وفي ممارساتها وفق ترتيب ميكانيكي ، بل لا بد من ادراك تداخلهما الجدلي الى ابعد مدى ، وعلى ضوء الظروف الموضوعية المحيطة بالقضية الفلسطينية . من الناحية التاريخية ومن الناحية الواقعية ومن حيث المستقبل يبدو الافق القومي أساسياً بصورة محتمة ، واذا كانت هذه الحقيقة مدعوة لان تأخذ حجمها في الموقف الفكري والتنظيمي والقتالي للمقاومة الفلسطينية ، فان الأفق القومي للمعركة هو الوجه الآخر لهذه الحقيقة ، وكل ذلك يجعل أي تنازل استراتيجي عن النضال الطبقي « قادراً على أن يعكس نفسه فوراً بشكل تنازل استراتيجي عن النضال القومي» ان «نزعة الاستسلام الطبقي تشكل في الحقيقة ، خلال الحروب الوطنية الثورية ، القوى الاحتياطية لنزعة الاستسلام القومي » وبالتالي فانه كي يضحي « الصراع ضد نزعة

الاستسلام القومي صراعاً حازماً وقوياً فينبغي معارضة الاتجاه نحو الاستسلام الطبقي»١.

واذا كان هذا القول صحيحاً بالنسبة للصين ابان الحرب ضد اليابان ، فانه أكثر صحة ، قياساً على الواقع العربي الراهن ، حيث تفترس الامبريالية بواسطة انظمة عميلة توجهات الجماهير نحو التحرير القومي والتحرير الطبقي بصورة متساوية . واذا كانت موضوعة ماو ، في الصين بان الاستسلام الطبقي هو قوة احتياطية لنزعة الاستسلام القومي فان الاستسلام القومي في الوطن العربي ، بمعنى تكريس سيطرة طبقات الاقطاع والبورجوازية العميلة والمرتبطة بالاستعمار الكولونيالي او الامبريالي ، والمستفيدة من التجزئة والقطرية وشق الوحدة النضالية للطبقات العربية الكادحة في مختلف ساحاتها ، هو بدوره احتياطي يعمل لتعزية نزعة الاستسلام الطبقي .

ان ذلك كله يطرح سؤالاً لم تحسمه حركة المقاومة الفلسطينية بعد ، عما اذا كانت الانتفاضة الثورية الفلسطينية هي المدخل للثورة العربية ، او عما اذا كان من المطلوب لقضية التحرير الفلسطينية وجود مدخل ثورى عربي . والواقع أن جواب هذا السؤال ستفرضه الممارسات ، على ان مثل هذا الفرض لا يمكن أن يحدث اعتباطاً أو بالصدفة ولا بد من عمليات مراجعة نقدية مستمرة للعثور على الصيغة الأكثر فعالية . من الصحيح ان المقاومة الفلسطينية المسلحة تقدم مثالاً يومياً للجماهير العربية ،وهي في هذا المجال تقوم بالتحريض المباشر احياناً ، ولكنه من الخطأ الاعتقاد بان هذا النوع من «المثال اليومي» يشكل هدفاً كاملاً في حد ذاته ، اذ لا فرار من ان تصل التجربة نفسها الى نقطة تكون المطالبة فيها بالحسم أشد الحاحاً ، وربما على ذلك الحسم تتوقف القدرة على الخروج او عدم الخروج من المأزق .

اي مأزق ؟

إنّ من اللاثورية العجز عن رؤية مأزق المقاومة في هذه المرحلة ، والمضي في تجاهل هذا المأزق ، سواء عن طريق المعاندة ، أو عن طريق الركون الى « الحلول الاعلامية » . وفي اعتقادنا ان هذا المأزق يشكل الآن ، وسيشكل بصورة متزايدة وتصاعدية ، النقطة التاريخية التي يتوجب فيها على الثورة ان تحسم المسألة بجواب علمي ، وبحلول ثورية حقيقية . لقد بدأت حركة المقاومة المسلحة ، في صورتها الاكثر تبلوراً ، في اعقاب حرب حزيران ، ولا ريب ان الاحتلال ، والصدمة التي شكلتها الهزيمة السريعة ، قد أوجدت في المقاومة الفلسطينية المسلحة نوعاً من الرئة المعافاة في جو الاختناق الذي خيم في اعقاب الهزيمة ، ومع ذلك فانه فيما عدا واقع الاحتلال فقد كانت الظروف الموضوعية للثورة ما تزال دون مرحلة النضوج ، وكانت الاداة الثورية التي اندفعت لتأدية مهام الثورة ـ كمّاً ونوعاً ـ دون القدرة على تأدية هذه المهام . ولا شك ان عوامل كثيرة هي التي ادت الى ذلك الواقع ، واذا كان من الظلم تحميل مسؤولية ذلك للحركة الوطنية العربية والفلسطينية وهدفها ووصم تجربتها بالفشل والعجز ، فانه من الظلم ايضاً تحميل مسؤولية هذا الواقع للانظمة العربية ذات الصفة البورجوازية الصغيرة وحدها ، فالمسؤولية في هذا المجال متبادلة ، وثمة حصة منها لكل طرف لا يجوز اسقاطها عنه :

---

(١) ماوتسي تونغ ـ الاعمال المختارة (بكين) المجلد الثاني ص ٩٣ .

ان التنصل هنا يوازي في خطورته الاتهام المرتجل من حيث انهما يضيعان التقييم الذي يستطيع وحده ان يحدد أفق المستقبل والاسلوب النضالي فيه . على ان الاخطر من ذلك هو ان الانظمة البورجوازية الصغيرة التي فوجئت بالهزيمة ، وقوطع برنامجها العاجز قبل استكماله ، وتعرت كلياً أمام جماهيرنا ، وجدت انها تستطيع استخدام تأييدها لحركة المقاومة المسلحة بمثابة « ورقة التوت » على الأقل ، في نوع غير متوقع من الدفاع عن النفس : لقد ذكرنا أن وجود أنظمة عربية رجعية تلعب دور العميل المباشر للامبريالية كان من الاسباب التي منعت السقوط العملي للانظمة الوطنية ـ البورجوازية الصغيرة المهزومة اذ انها ظلت قادرة وسط ذلك الضياع على تمثيل شيء ما يجتذب الولاء العفوي للجماهير ، وادى ذلك الى اندفاعها لاقتناص المزيد من ذلك الولاء عن طريق التسابق في تأييد العمل الفدائي .

واتخذ هذا التسابق ، الذي حركته حوافز تكتيكية بالدرجة الاولى ، طابع الصخب والمبالغة والضجيج ، وأدى افتقار المقاومة الفلسطينية الى وجود حزب قوي وطليعي ومنتشر الى العجز عن استخدام ذلك الجو الفضفاض الذي احيطت به ، ونشأ عن ذلك خلل كبير في الصورة : فمن ناحية تندفع المقاومة الفلسطينية وسط جو لم تنضج فيه بعد الظروف الموضوعية لثورة في مستوى شعاراتها ، وبالتالي لا تتوفر فيه أدوات هذه الثورة في مستوى المهمات التي تتصدى لها ، ومن ناحية اخرى تحاط باطار واسع وفضفاض من الولاء الجماهيري تقف عاجزة عن تعبئته وتنظيمه . ولا ريب ان عجز وقصور الاحزاب العربية الوطنية ، والهزة المزلزلة التي ضربتها في حزيران (وهي اصلاً منهكة من اعباء الانظمة العسكرية والانظمة الرجعية والانظمة البوليسية ، بالاضافة لامراضها الذاتية) ، قد زاد في بلبلة الصورة في الساحة الفلسطينية والعربية على السواء . على ان ذلك كله لم يحل دون حدوث الاندفاعة الثورية الاولى ، التي عبأتها الاطارات المحدودة لحركة المقاومة آنذاك ، ومضت فيها بشجاعة الى ميدان القتال . واستطاع هذا الاندفاع ان يفعل فعل السحر في الجماهير العربية في كل مكان الا ان مثل هذا السحر تظل معجزاته رهناً بقدرة الثورة على تنظيم مفعوله وتعبئته وفق استراتيجية ثورية واعية .

لقد وصلت هذه الاندفاعة الثورية الاولى الى ذروتها في معركة الكرامة في آذار ١٩٦٨ ، تلك المعركة التي أعطت مثالاً رائعاً على قدرة القوة الصغيرة غير المسلحة بالاسلحة الحديثة على مواجهة قوة كبيرة واصابتها في مقاتلها ، والتي الهبت الجماهير العربية والفلسطينية الى أبعد مدى ، ولكن هذه المعركة أيضاً ادت الى نتائج على الطرف الآخر ، طرف العدو : فهي من جهة نبهت اسرائيل الى ضراوة هذه الظاهرة التي استخفّت بها في البدء ،وهي من جهة ثانية نبهت الدول للعربية ـ على مستويات مختلفة ـ الى الخطر الذي تشكله مثل هذه القوة الصاعدة ، ان هي استطاعت المضي الى مداها . وكان من نتائج ذلك أن طورت اسرائيل استراتيجية سياسية وعسكرية في مواجهتها للكفاح الفلسطيني المسلح ، وطورت الدول العربية ـ كل منها حسب حاجتها ـ خططاً تضمن لها « حدود أمن » خاصة بها . بالنسبة لاسرائيل قرر مهندسو الستراتيجية فيها أن « يتعايشوا » مع المقاومة ، وذلك عن طريق دفعها بالتدرج نحو الشرق ، بحيث تتمركز على الضفة الشرقية لنهر الاردن ، وعن طريق العمل ، بالبطش احياناً وبالرشوة حيناً ، على « تحييد » الضفة الغربية الى اقصى حد يستطيعونه ، بحيث تشكل في الأساس ـ وان شكلت مسرح عمليات صغيرة ـ حاجزاً بشرياً بين القوات الاسرائيلية على ضفة النهر

الغربية المشتبكة مع المقاومة ، وبين الجسد الجغرافي القابل للصدمة ، حيث التجمع السكاني الاسرائيلي الاكثف ، في فلسطين المحتلة . ونجحت اسرائيل نسبياً في ذلك (ما عدا فشلها الصارخ في غزة) ولم يساعدها في ذلك جهاز عسكري وأمني وتجمع سكاني عصري ومتفوق تقنياً ومجتمع حرب مدرب على ذلك فحسب ، بل ساعدها كذلك في المستوى نفسه الانعدام شبه الكامل للنشاط الوطني والتقدمي المعبّىء والمنظم والمثقف والمدرب في الضفة الغربية ، طوال السنوات التي سبقت الاحتلال في ١٩٦٧ .

بعد شهور من معركة الكرامة كان الاعلام المتعلق بالعمل الفدائي قد وصل الى مدى لم يصله اعلام جبهة التحرير الفيتنامية الجنوبية حتى الآن ، وادى ذلك الى اتساع الهوة بين المهات التي انتدب هذا الاعلام حركة المقاومة الوليدة لانجازها والقدرة الحقيقية ، المحكومة بالظروف الموضوعية والأداة الثورية ونضوجها ، لهذه الحركة . في الشتاء الماضي انجز الاسرائيليون عسكرياً ما كانوا قد بدأوه بعد شهور من معركة الكرامة ، فأثبتوا حاجزاً معقداً على ضفة النهر الغربية في محاولة جندوا فيها حصائل مجموع الخبرات الاستعمارية التكنولوجية لمنع انتقال المجموعات الفدائية الى الضفة الغربية من النهر . هكذا ، وقياساً على المستوى الذي وصلته الاندفاعة الثورية الاولى التي تسلقت الى ذروتها في اعقاب معركة الكرامة ، فان العمل الفدائي نسبياً ، يمر الآن في مرحلة ركود . وهذا الركود لا يعود الى الاسباب والظروف العسكرية فحسب ، بل هو يعود بالدرجة الأولى الى كون الاعلام الفلسطيني والعربي من حيث أراد - اذا أحسنا الظن - تعبئة الجماهير العربية ، خدرها من جديد ، وسلك في ذلك ، على مستويات مختلفة ، الطريق الخاطىء الذي كانت الانظمة تسلكه ما قبل حزيران ، وهو الطريق الذي يؤدي إلى اعتبار الحماسة الجماهيرية من مواقع المتفرجين بديلاً عن القتال بهم ومعهم وأمامهم ووسطهم ، ويغني عن مضاعفة الجهد في تعبئتهم وتوعيتهم وتنظيمهم .

ان فترات الركود ، التي تجيء في اعقاب استنزاف الاندفاعة الثورية الاولى لنفسها ، هي ظاهرة طبيعية شهدتها معظم الثورات في العالم ، وهي في جوهرها لا تشكل علامة خطيرة ، على انها بلا ريب فترة تواجه فيها الثورة جزءاً كبيراً من عوامل الحكم على مصيرها برمته ، وذلك يتوقف على الاسلوب الذي ينبغي اتباعه في مواجهة هذه الظاهرة :

- هل تواجه مثل هذه الفترة بتجاهلها ؟

- ام نختار مخرجاً اعلامياً لها ؟

- ام ترى نمعن في المعاندة دون اجراء تعديل استراتيجية وتكتيك نشاطها ؟

ما الذي ينهي هذه المرحلة ، ويضع المقاومة في بداية الاندفاعة الثانية ، التي تنقلها من مرحلة الى اخرى ؟ ان هذه المرحلة في ظاهرها تبدو عسكرية بالدرجة الأولى ولكن في اسبابها ونتائجها هي بلا ريب سياسية ، وذلك هو بالضبط ، على صعيد عملي وواقعي ، النقطة التي تبدو فيها المسألة العسكرية ، منعزلة عن الفكر السياسي ، مجرد نقطة عائمة في الهواء والمجهول . وهنا ، بالضبط ، تقول النظرية الثورية كلمتها ، وهنا بالضبط يبدو صحيحاً تماماً القول بان

النظرية الثورية ليست مذهبية مغلقة على نفسها ، ولكنها دليل عمل تفسر ، كي يصبح بمقدورها أن تغيّر .

ان فترات الركود في الثورات تشهد عادة ـ كما تقول لنا التجارب الثورية التاريخية ـ نمواً غير عادي لظواهر غريبة : ذلك ان الامعان في تجاهل حالة الركود هذه يؤدي بالطبيعة وبالضرورة الى بروز «تفسيرات» واسباب و«ظواهر» إن هي أصرت على تجاهل الاسباب والمخارج الحقيقية ـ معاندة أو قصوراً ـ فلا مفر من أن تكون هذه الظواهر والتفسيرات والاسباب جزئية والى حد بعيد مرَضية . ان فترة الركود هذه هي فترة نمو الذاتية على حساب الموضوعية ، وانبثاق مظاهر الاشكالات الجزئية الصغيرة ، وتبادل الاتهامات ، وحصول الانشقاقات ، وهيمنة التنظيرات والصيغ اللفظية والمزايدات ، والصراعات الجانبية ، وتغيير أشخاص القيادات ، والى ما شابه ذلك . ولا ريب ان استمرار هذه الظواهر لفترة طويلة ينهك الثورة ويفتتها ، أو يفتح للعدو المتربص ، الذي يدرك ذلك عملياً وبالممارسة ، باباً واسعاً لمحاولة تصفية نهائية ، يحاول تنفيذها ضد الثورة . ان المخرج هو بلا ريب في التقدم الى الامام ، وثمة عملية تصحيح لا بد منها،وهي عملية لا مهرب لها من أن‌تمارس على قدم المساواة وبصورة جدلية ، على المستوى السياسي والتنظيمي وعلى مستوى الممارسات السياسية والعسكرية ، في آن واحد ، وأن تتبادل انجازاتها في أي مستوى من هذه المستويات الثلاثة ، وتعكس نفسها بصورة فعلية في ذلك الترابط العضوي بين هذه المسائل الثلاث .

نقول : التقدم الى الامام ، بمعنى الادراك الحقيقي لتلك العلاقة الوطيدة بين النضال القومي والنضال الطبقي ، العلاقة الجدلية التي تعني أن تصعيد أحد وجهي هذا النضال الواحد هو تصعيد للآخر ، والتي تعني في الوقت نفسه ان الاستسلام في أحدهما هو استسلام للآخر . ذلك يشكل ضرورة استراتيجية ينبغي لها أن تبني اطاراً يتسع لمرونة كافية في التكتيك .ان عبارة النضال القومي لا تعني هنا ضرورة خوض المعركة الفورية للوحدة العربية ، كما أن عبارة النضال الطبقي لا تعني هنا بالضرورة خوض الاقتتال الفوري والدامي ضد الطبقات المستغلة، ولكن هاتين العبارتين تعنيان بلا ريب تطويع المسيرة التحريرية الفلسطينية على خطي قدرها ومصيرها وضروراتها .

نقول التقدم الى الامام : بمعنى الادراك الحقيقي لابعاد المواجهة الراهنة ، مواجهة معسكر العدو الكثيف الذي استنفرته المقاومة الفلسطينية المسلحة ، المدعمة بتفوق تكنولوجي وبقدرات الامبريالية وبتواطؤ الرجعية ، في مقابل ملايين الجماهير العربية والامكانات العربية المعطلة ، والواقفة بالانتظار . نقول التقدم الى الامام : بمعنى الادراك الحقيقي للمرحلة التي تجتازها المقاومة الفلسطينية ، مرحلة العمل الدؤوب على خلق المناخ الثوري وانضاج الظروف الموضوعية التي توفر أدوات الثورة القادرة على تحقيق مهمات بهذه الخطورة ، كما ونوعاً ، واستبدال الاعلام الدعاوي الفضفاض بالتثقيف الثوري والتوعية الوطنية ، واستبدال العصبوية الضيقة بالتنظيم الثوري ، واستبدال الممارسات العسكرية الكلاسيكية وشبه الكلاسيكية بارتال الجماهير المنظمة والمسلحة والمقاتلة .

ان المخرج من المأزق الراهن لا يمكن اجتراحه الا من خلال تقييم موضوعي لسمة المرحلة

التي تعيشها المقاومة في هذه الفترة ، وهذا التقييم هو مسألة بالغة الاهمية من الناحية الاستراتيجية والتكتيكية ، اذ بدونها لن يكون بوسع المقاومة أن تحقق القدرة ، حتى اقصى مدى ، على فهم المعضلة وتفسيرها ومن ثم تغييرها ، ودونها لن يكون بمقدور المقاومة استخدام مهمات وأساليب مرحلة معينة في هذه المرحلة ذاتها بدل ان تستعير مهمات وأساليب وتكتيكات مرحلة متقدمة وتوظيفها في مرحلة سابقة .

لقد سمعنا ، على سبيل المثال ، أحاديث كثيرة مع مطلع هذا العام على السنة مسؤولين ، في أحد تنظيمات المقاومة عن بدء مرحلة التطهير والتحرير للاراضي المحتلة التي قدر لها أن تقطع شوطاً كبيراً في فترة قصيرة ، وقبل ذلك كان حديث مماثل قد شاع عن مرحلة ، « العمليات الكبيرة » ، بل إن تنظيمات صغيرة نسبياً ، من الناحية العسكرية ، مضت الى حد اصدار بلاغات حربية عن معارك كبيرة قذفت فيها على امتداد عشرات الكيلومترات باكثر من أربعمئة مقاتل . إن ذلك كله ، وغيره من الامثلة المشابهة يقودنا الى طرح سؤال حول تحديد سمة المرحلة التي تجتازها حركة المقاومة الآن ، والبرنامج الذي هي بصدد تنفيذه في هذه الفترة ، وفي الفترة المرئية المقبلة .

أن الدلائل الموضوعية ، ومجموع الظروف الذاتية وغير الذاتية التي تحيط بحركة المقاومة الآن ، انما تشير الى أن المرحلة ليست في الواقع الا مرحلة المضي في انضاج ظروف الثورة ، وفي تعبئة الاداة الثورية القادرة على خوض حرب العصابات ، وأي حرق لهذه المرحلة الاساسية سينعكس بلا ريب على المراحل المقبلة ويثخرها .

إن هذا التحديد مهم لانه مطالب بان يعكس نفسه فوراً على جملة قضايا سياسية وتنظيمية وعسكرية : فليس من المعقول أن تكون المرحلة الراهنة مرحلة اعداد في جوهرها ، ثم تكون الممارسات السياسية ممارسات انفعالية وخطابية ، أو تكون الممارسات العسكرية محكومة بمبدأ التبذير التكتيكي الذي تفترض قوانين حرب العصابات بانه من غير الممكن اعتماده إلا في مرحلة متقدمة . وليس من المعقول أن تكون هذه المرحلة هي مرحلة إعداد ، ثم لا تكون المسألة التنظيمية في المقاومة هي المسألة الأولى . وليس من المعقول أن تكون هذه المرحلة هي مرحلة اعداد ثم لا تكون مرحلة تحديد الاطار الستراتيجي السياسي هي مسألة في منزلة وأهمية أن نثور أو أن لا نثور ، أن ننتصر أو أن لا ننتصر . وجملة هذه المسائل السياسية والتنظيمية والعسكرية ، لا يمكن حسمها الا بنظرية ثورية ، بدليل عمل ثوري . لقد جرت العادة على ان يقال بان خصوصية المعضلة الفلسطينية تجعلها أكثر اتساعاً من أن تحتويها اطار نظرية ثورية ، ولكن الحقيقة هي العكس تماماً :فبسبب هذه الخصوصية بالذات تشتد الحاجة الى نظرية ثورية ، وبسبب التعقيدات الخاصة بالقضية الفلسطينية تضحي الحاجة الى دليل عمل ثوري أكثر الحاحاً من أي شيء آخر ، وبسبب خصوصية القضية الفلسطينية ، من حيث أن أحد طرفيها هو استعمار اسكاني وطرفها الآخر هو شعب مقتلع من أرضه ، يصبح البعد القومي في المعركة مسألة محورية . وبسبب خصوصية القضية الفلسطينية ، من حيث أن أحد طرفيها هو ذراع امبريالي وطرفها الآخر هو شعب رازح تحت قيود أنظمة مستغلة مرتبطة بدرجة أو باخرى بعجلة الامبريالية ، يصبح البعد الطبقي في المعركة مسألة محورية ايضاً . وبسبب خصوصية القضية الفلسطينية من حيث ان طرفها هو طليعة من طلائع العالم المستغل الغني المتقدم تكنولوجياً ،

وطرفها الآخر في الجهة العربية مكبّل بقيود التخلف ، تصبح حرب التحرير الشعبية في المعركة هي مسألة محورية أيضاً . وبسبب خصوصية القضية الفلسطينية من حيث أن أحد طرفيها هو كيان عنصري فاشي مدعوم بالقوى الامبريالية التي تتخذ من الانظمة الاقطاعية والعشائرية والرجعية والعميلة في الوطن العربي وسيطاً في عملية النهب الجارية للثورة العربية والطبقات الكادحة العربية ، تصبح قضية النضال ضد هذه الانظمة هي جبهة فلسطينية ايضاً ، بصورة غير مباشرة. وجملة هذه المسائل الاستراتيجية لا يمكن أن تظل معلقة في الهواء فيما تحتدم المعركة . وما هي المعركة ان لم تكن ذلك كله معاً ؟ وما هو التحرير ان لم يكن مبنياً على رؤية استراتيجية تضع هذا كله في حسابها ؟

وهنا بالضبط ، هنا على وجه التحديد ، تقول النظرية الثورية كلمتها ، فكل صفات وظواهر هذه الخصوصية في القضية الفلسطينية ، والتعقيدات المنبثقة عنها ، انما تستلزم مواجهتها مواجهة علمية عن طريق العثور على رد في مستوى تشعباتها ، وذلك لا يمكن أن يحدث الا عن طريق ربط مجموع هذه الظواهر والصفات ، لتلك الخصوصية ، بمنطق ثوري واحد ، برؤيا شمولية ، وبتفسير علمي ، كي يصبح التغيير ممكناً وفي مستوى ذلك التفسير .

٢ - المعضلة التنظيمية

التنظيم في العمل الثوري ليس عملية ترتيب تقنية ، بل هو انعكاس للموقف العقيدي ، واذا هو مضى يشق طريقه دون هدي من الموقف العقيدي فسينتهي الى صيغة تآمرية ، وليس الى صيغة ثورية . سينتهي في أحسن الأحوال الى صيغة عصبوية . ان التنظيم هو وسيلة النظرية الى التنفيذ ، وهو القارب أو الجسر الذي تحدث عنها ماوتسي تونغ ، والذي لا غنى عنها أو عن واحد منها للعبور من ضفة القرار الى ضفة الممارسة . فحين يقول الفكر السياسي ان المعركة هي معركة الجماهير فمن غير المنطقي أن يكون التنظيم - بعد ذلك - غير جماهيري . حين يقر الفكر السياسي أن المعركة هي معركة الطبقات الفقيرة المستغلة ، فمن غير المنطقي أن ينسج التنظيم بعد ذلك من قماشة بورجوازية أو أن يخضع لقيادة هذه البورجوازية . وحين يقر الفكر السياسي أن العلاقة بين الفكر والعمل هي علاقة جدلية ، وانه لا يوجد فكر مجرد لا يمارس ولا ترتد اليه التجربة بالاغناء ثم يرتد لها بالدليل ، فانه من غير المنطقي الا يضع التنظيم بعد ذلك مسألة الديمقراطية في صلب بنيانه . وحين يرى الفكر السياسي ان مرحلة المعركة وتوترها يستدعيان اتخاذ القرارات السريعة والمرنة ، فانه من غير المنطقي - بعد ذلك - ألا ينعكس ذلك التنظيم باعتماد مبدأ الديمقراطية المركزية . وحين تقر النظرية الثورية أن المعرفة والممارسة هما طرفا حركة جدلية لا تتوقف ، وانها تتبادلان مكاسبها بصورة مستمرة ، وان حركتها هذه تقتضي المضي في اجراء الاضافات والتصحيحات والتعديلات فان التنظيم لا يستطيع - بعد ذلك - الا يعتمد مبدأ النقد والنقد الذاتي أساساً من أسس علاقاته . وحين تقر النظرية الثورية ان الاستسلام الطبقي هو احتياطي الاستسلام القومي ، وان الاستسلام القومي هو توفير الظرف لفرض الاستسلام الطبقي ، فان التنظيم لا يستطيع - بعد ذلك -

الا يضع امتداداته العمالية والفلاحية بالدرجة الأولى من نشاطه وان يمضي في هذه الامتدادات على مستوى الأمة . وحين تستطيع النظرية الثورية ، بحكم كونها دليل عمل بالدرجة الأولى ، التقاط طبيعة المرحلة وسمة الفترة التي يجتازها الجهد النضالي ، فان هذا الالتقاط انما ينبغي أن يعكس نفسه فوراً على طبيعة التنظيم وعلى أولويات مهامه ، وعلى أسلوب عمله في تلك المرحلة .

من الممكن أن نمضي في تعداد جوانب هذه العلاقة الجدلية بين النظرية وانعكاساتها التنظيمية ، الى ما لا نهاية ، ولكن ما يهمنا بالدرجة الأولى هنا هو على وجه التحديد تتبع هذه المسألة في مجال حركة المقاومة الفلسطينية ، في مرحلتها الراهنة : إن التنظيم الثوري ، بصفته فصيلة طلائعية ، مطالب بالضرورة ، كي يستطيع أن يلعب دوره بصورة فاعلة ، ان ينجح في منع أمراض الواقع الذي يتصدى لتغييره ، من أن تنتقل اليه عبر حركة الافراد القادمين أصلا من ذلك الواقع والمحملين بالضرورة بعاداته وطباعه وعقليته . وفي العالم المتخلف تتخذ هذه المسألة مظهراً أكثر خطورة منها في أي مكان آخر ، وتشكل واحدة من أولى المهات العاملة للتنظيم الثوري .

ان ثقافة مجتمع ما هي ، كما هو معروف ، ثقافة الطبقة المسيطرة ، أما العادات والتقاليد فهي تراث أكثر رسوخاً وتجذراً ، وهيمنته أكثر عمقاً ، وبالتالي فان اجتثاث الجزء المتعفن منها هو عمل أشد صعوبة . على أن ذلك كله ، في حال تجاهله ، يمكنه أن يعمل نخراً في التنظيم الثوري أن هو لم يعالج منذ البدء بوعي ، ويستطيع أن ينجح في النهاية في نقل أمراض المجتمع المتخلف الى التنظيم نفسه ، بحيث يفشل التنظيم ، ليس فقط في تقديم نموذج حي ومصغر لمستقبل النضال الذي ينتدب نفسه له ، ولكن ايضاً في تحقيق مهامه الأساسية ، اذ ـ عند ذاك ـ تحل العلاقات الشخصية محل العلاقات الموضوعية ، والرؤية الذاتية محل الرؤية العلمية ، والصدامات العصبوية أو العائلية أو القبلية محل التفاعلات الرفاقية ، وتقديس الشخصية محل القيادة الجماعية ، والفوضى السائبة محل الديمقراطية المركزية ، والتعالي على الجماهير محل التفاعل معها ، والمناكفة المعاندة محل النقد والنقد الذاتي ، والفردية والمزاجية محل الانضباط . ان المجتمع المتخلف قادر على نقل أمراضه الى أي تنظيم ثوري ، ان لم يستطع هذا التنظيم مسلحاً ، بالنظرية العلمية ، ضبط المسألة التنظيمية ، ودون ذلك يفقد هذا التنظيم قدرته على أن يمثل فصيلا طلائعياً يتصدى لمهات نضالية ذات دور تاريخي ، بل انه يفقد معناه الأساسي كتنظيم جماهيري يتحرك وسط الجماهير كما تتحرك السمكة في الماء ، ويبادل هذه الجماهير الفهم والود ، ويعرف مشكلاتها ويعرف أساليب حلها العلمية ، ويعلمها دون ان يكف عن التعلم منها . كيف يمكن حل هذه الاشكالات المعقدة؟

اننا حين نقول ان تنظيمات فلسطينية في قلب المقاومة المسلحة ، قد اضحت بعد سنوات قليلة من نشوئها مكتبية بيروقراطية ، فان هذا القول لا يعني بالمستوى المباشر اشكالاتها التنظيمية فحسب ، بل يعني ايضاً افتقادها بالدرجة الأولى للنظرية الثورية التي لا يمكن للمسألة التنظيمية ان تحل دونها ، بالرغم من ان هذا الافتقاد أدى بين ما أدى اليه إلى نتائج تنظيمية واضحة وظاهرة بصورة مباشرة ، تبدو كأنها هي الاشكال في ذاته . ولا شك ان هذه الاشكالات تتدنى في غمار الممارسات ذاتها ، شرط ان تكون هذه الممارسات قادرة على ان

تفعل فعلها في تعديل وتصحيح الرؤية النظرية ، وهنا على وجه التحديد تبرز الاهمية التي لا غنى عنها للعمل التنظيمي ، وربما لم يكن من المبالغة القول بان أحد أهم الاسباب التي أدت الى انفتاح تلك الهوة الشاسعة بين برامج الكثير من الأحزاب العربية وبين تطبيقاتها ، قبل وصولها الى السلطة أو بعدها ، أو حتى في المجال النضالي خارج السلطة ، يعود الى فشل تلك الاحزاب في حل المعضلة التنظيمية . ان خطراً من هذا النوع يجب عدم تقليل أهميته بالنسبة للمقاومة الفلسطينية المسلحة الآن ، ليس فقط بسبب الحساسية البالغة لهذه المرحلة التي هي مرحلة العمل على انضاج ظروف الثورة ، انما أيضاً بسبب الممارسات القتالية المستمرة التي تخوضها التنظيمات الفلسطينية ، والتي يتوقف على استمرارها وتصاعدها جزء كبير من امكانية تحقيق برامجها التحريرية . وبسبب هذه الممارسات القتالية بالذات تبرز قضية تنظيمية أولى ، يجب ان تحتل أولوية الاهتمام في أوساط المقاومة ، وهذه القضية تتلخص في ضرورة تجنب الوقوع في «الصخرية» أو «الصنمية» في بناء تنظيم ما ، لان هذا التنظيم مطالب الآن على وجه الخصوص بان يتسلح بحيوية تنظيمية تتناسب مع الاخطار والتوقعات المحيطة به . ويمكننا أن نلاحظ بسهولة ، مع الأسف ، أن مثل هذه الحيوية التنظيمية ، والقدرات المرنة التي تستلزمها ، هي الى حد بعيد مسألة غير معتنى بها في بعض تنظيمات المقاومة كما ينبغي ، هذه الحركات التي تتصرف كأنها حركات «شرعية» ـ قياساً على الأنظمة المحيطة بها والعدو المتربص يومياً بها ـ وعلى العكس ، فان هذه التنظيمات مطالبة بمستوى من الحيوية والمرونة قادرة على نقلها الى مستويات مختلفة من النشاط ، سرية أو غير سرية ، مباشرة أو غير مباشرة ، ظاهرة أو مختبئة ، متجمعة أو منتشرة ، وهذه المستويات تشكل ضرورات لا مهرب منها ، وينبغي توقعها في أي لحظة ، ليس فقط بسبب طبيعة النشاط السياسي والعسكري لمنظمات المقاومة ، ولكن ايضاً بسبب الظروف العربية والدولية المحيطة بها ، والقابلة للتغيير في أي لحظة .

أن عناصر المقاومة القيادية ـ في معظم التنظيمات ـ مكشوفة تماماً ، وكذلك أساليب عملها وانتقالها واتصالاتها ، وكذلك الى حد بعيد ، تشكيلاتها ومراكزها ومكاتبها ، بل ربما كانت بعض تنظيمات المقاومة الفلسطينية هي الوحيدة من نوعها في العالم التي تستخدم الاسم السري علناً وتحتفظ سراً بالاسم الحقيقي لعناصرها مع انه غالباً ما يكون الشخص الذي يحمل الاسمين معروفاً من قبل الكثيرين هو واسماه في آن واحد ! وبحجة النشاط الدعاوي فتحت بعض تنظيمات المقاومة ابوابها على مصراعيها أمام الصحفيين أو الفضوليين ، فسجلت ملايين الأمتار الثمينة ، الموزعة الآن في كل مكان عن اساليب التدريب ، وحجم الدوريات ، وتوزيع المغيرين في المجموعة المغيرة ، وأنواع الاسلحة المستخدمة ، وطرق زرع الالغام المتبعة ، والكفاءات البدنية للمقاتلين.

إن من قصر النظر حقاً الاعتقاد بان العدو يلزمه أكثر من ذلك ليعرف طبيعة كفاءات وأساليب العناصر التي ستواجهها دورياته . وبحجة «النضال الاممي» التي تشبثت بها بعض فصائل المقاومة من ذيلها ، صار بوسع المدعوين « الاممين » أن يمضوا شهوراً في معسكرات المقاتلين ، وان يتفحصوا بفرص كافية وهادئة اساليب التفكير والتخطيط ، ويكتشفوا بمنتهى الحرية المشكلات ونقاط الضعف في أشخاص القياديين والعسكريين وفي أساليب عملهم وقدراتهم التخطيطية ومطامحهم التنظيمية أو الذاتية .

ان ذلك مهما كانت احتمالات تسربه الى أيدي العدو ضئيلة ، يضعف الى حد بعيد مرونة تنظيم من تنظيمات المقاومة في الانتقال الى شكل تنظيمي مختلف قد تفرضه تطورات المعركة في

اية لحظة ، فاذا أضفنا الى ذلك ان التنظيمات المقاومة هي اصلاً ـ في معظمها ـ لا تهيء بناها التنظيمية لممارسة مثل ذلك التحول الضروري في اية لحظة ، وهي غالباً ما تتجه نحو بنية تنظيمية صخرية أو صنمية غير مؤهلة لمثل ذلك التحول ، أدركنا على التو خطورة هذه المعضلة . على أن ثمة معضلة أخرى ربما تكون موازية في الأهمية وهي أثر «الانفعالية» على التنظيم ، هذا الأثر الذي غالباً ما يؤدي الى نتائج خطيرة ،لأنه يحكم تنظيماً ما بعقدة رد الفعل ، فينحرف نشاط عناصر ذلك التنظيم القيادية ، ومن ثم غير القيادية ، نحو اتجاه يبتعد شيئاً فشيئاً عن صلب المهات الثورية التي انتدب التنظيم المذكور نفسه للقيام بها اصلاً .

ان مثل هذا الخطر يكون بالطبع أكثر احتمالاً في التنظيمات التي تنبثق من عملية انشقاق حزبي ، اذ يصبح المحرك الأول للطرف المنشق ـ (الذي يكون عادة على معرفة بالشيء الذي لا يريده ، أكثر من معرفته بالشيء الذي يريده) ـ هو اثبات مبرر انشقاقه وبالتالي وجوده ، اثباتاً يومياً . فاذا خذلته الحقائق الموضوعية في هذا المجال أخذ دون أن يعي يفتعلها افتعالاً : انه يفقد بالتدرج الرؤيا العلمية للمرحلة ، ويلجأ الى المزايدات النظرية والاعلامية ، ثم انه ـ في معرض تأكيد مبرراته ـ يعمل عن وعي أو عن غير وعي في التركيز على محاولات تهشيم التنظيم الذي انشق عنه ، وفي أحيان كثيرة لا تأخذ هذه الظاهرة طابع الهم اليومي والأهم والأعجل فقط ، بل تكون أيضاً مضطرة ـ بالتدريج ـ لافتعال حملة مصطنعة من الاكاذيب والشائعات والاتهامات لتعينه على المضي في تلك المهمة . ويتعرض الطرف الأصلي الذي كان ارض الانشقاق لخطر مماثل اذ تؤدي تلك الحملةبالطبيعة الى ردة فعل تشنجية يتوقف التخلص من آثارها بمقدار كبير على سلامة البنية التنظيمية التي تكون عادة أقدر ، بحكم قناعتها برسوخها وتجذرها الزمني ، على تجاوز تأثيرات تلك الشحنة الانفعالية . ولا شك ان مثل هذه الظاهرة الانفعالية، ان هي تركت حتى مداها ، تؤدي الى انعكاسات تنظيمية خطرة ، فهي تهدم سلم الاوليات النضالية ، وتقود الى توجيه التنظيم برمته وجهة معركة جزئية مفتعلة في أساسها ، وذلك على حساب نقطة الثقل في المعركة . وغني عن القول ان مثل هذا الأمر ـ ان هو حدث في معسكر اليسار ـ يقود الى فتح الباب على مصراعيه ليس فقط امام انهاك قوى الثورة التي ترشح نفسها لقيادة عملية التغيير ، ولكن حتماً أمام دخول أبوة اليمين والوسط .

على ان هذه الظاهرة الانفعالية ، على الصعيد التنظيمي ، ليست مقتصرة في اصولها على التنظيمات الاطراف في عملية انشقاق حزبي ـ (والتي شهدتها حركة المقاومة في العام الماضي وما تزال تشهد ذيولها) ـ ولكنها تشكل ايضاً احتمالاً أمام تنظيمات أخرى لم تكن طرفاً في انشقاق ، وتثيرها بشكل خاص ظواهر التعدد في التنظيمات ، وحوافز الانفراد والوصاية ، وتضرمها قوى محرضة من خارج الثورة . ان ذلك كله يعكس نفسه تنظيمياً ، ليس فقط على الكفاءات السياسية والقتالية لحركة المقاومة ، وعلى حجم الالتفاف الجماهيري حولها ، ولكن ايضاً على طريقة وأسلوب تناول قضايا استراتيجية بالغة الاهمية ، مثل قضية جبهة التحرير الوطنية ، ووحدة الكفاح المسلح ، ومواجهة عدو راهن وعدو محتمل والى آخر ما هنالك .

ذلك هو جانب من أهمية ومحورية المسألة التنظيمية وانعكاساتها على مسيرة الثورة ، على انه

في مرحلة الشروع بالكفاح المسلح تبرز جوانب تكاد تكون أكثر اهمية على صعيد الممارسات وعلاقاتها بالتنظيم ، لانه في حالة من هذا النوع لا تكون الاخطاء التنظيمية مجرد اخلال بالقواعد ، ولكنها تكون عملياً ذات نتائج فورية تتعلق بمصير الثورة ككل ، وبدماء عناصرها . سنأخذ مثالاً واحداً على ذلك ، يمكنه ان يلخص المسألة التي نحن بصددها على صعيد عملي ، وهي مسألة القواعد العسكرية ، التي تشكل هنا ، وبالضبط تلك النقطة البالغة الاهمية التي يتبلور فيها على صعيد مادي ، مركز ذلك اللقاء بين المسألة النظرية والمسألة التنظيمية والمسألة العسكرية.

ما هي القاعدة العسكرية في الكفاح الفلسطيني الآن ؟ ما هو دورها ، الى جانب كونها نقطة قفز قتالية ؟ انها بالطبع شكل تنظيمي مكلف بلعب دوره عملياً لوضع النظرية موضع التنفيذ . هل هي اذن ثكنة عسكرية لمجموعة مقاتلين نظاميين ، أو شبه نظاميين ، أو غير نظاميين ؟ ان المحور الاساسي لهذا الترس الجبار ، المعقد ، الذي نطلق عليه اختصاراً « النضال في سبيل تحرير فلسطين » ، يجد في هذه القضية المفصل الاساسي في الموضوع كله . القاعدة العسكرية لمجموعة من الفدائيين ، في هذه المرحلة التي تحدد النظرية العلمية ـ كدليل عمل ـ طبيعتها وترتيبها الجدلي في المعركة كلها ، لا تستطيع أن تكون الا بؤرة ثورية ، مكلفة بلعب دورها القتالي والسياسي ، من خلال المهمة الأساسية للثورة الفلسطينية الآن ، وهي مهمة العمل القتالي والسياسي لانضاج الظروف الموضوعية التي تقود نحو حرب التحرير الشعبية . ذلك يعني بالضرورة الثورية الا تكون القاعدة ترجمة فلسطينية للثكنة ، ولكنها يجب أن تكون خلية ثورية ، عسكرية وسياسية في آن واحد ، تطوع عملها السياسي والعسكري لبناء مناخ ثوري أكثر شمولاً واتساعاً .

ان عملها العسكري يرتبط ارتباطاً جدلياً بدورها التنظيمي كبؤرة ثورية تقوم بعملية دؤوبة لنقل المثل القتالي الذي تقدمه الى الجماهير ، لانشاء حوار بين نشاطها وبين الجماهير ، لنقل «العدوى» ـ اذا جاز التعبير ـ للواقع الساكن المحيط بها ، واجتذابه الى المعركة . كيف تستطيع أن تلعب دورها هذا ؟كيف يمكن لها ـ بالممارسة ـ ان تعمم الموقف النظري والتنظيمي الذي يدعو كل مقاتل لان يكون سياسياً وكل سياسي لان يكون مقاتلاً ؟ ان هذا السؤال يعيدنا الى النقطة المحورية في كل هذا الذي قلناه ، وهي تلك التي تشدد الى النهاية على تلك العلاقة الجدلية الدائبة بين القضية النظرية وضرورتها ، وبين القضية التنظيمية واهميتها ، وبين قضية الممارسة واستراتيجيتها .

٣ ـ المعضلة العسكرية

ربما كانت هذه المقاطع الاخيرة قد أوصلتنا عملياً الى الحديث عن المعضلة العسكرية في المقاومة الفلسطينية المسلحة ، قبل ان نصل الى مكانها في « التصنيف المستحيل » . فالواقع أن ذلك المثال الذي اخترناه عن عمد ، لقضية القاعدة العسكرية في العمل الفدائي يشكل جانباً من جوانب هذه المعضلة ، اذ أن حلها هو مسألة أساسية ، لانها تحسم مسألة أن تصل المقاومة ،

أو لا تصـل ، الى مرحلة تنفيذها للشعار المشترك بين جميع تنظيماتها ، شعار حرب التحرير الشعبية . ان الحرب ، كما يعرفها ماوتسي تونغ ، هي «سياسة دامية» (١) ولذلك فان اهمـال التعبئة السياسية بالنسبة لمن يريد النصر يجعله بمثابة « من يقصد الجنوب وهو يسـوق عربته شمالاً » (٢) . ومن هنا يرى « هوشيه منه » أن « العسكري دون السياسي شجرة بلا جذور ، ليست عقيمة فقط ولكنها ضارة ايضاً » . ان هدف الحرب العادلة هو تحقيق السلام ، ويحدث ذلك عن طريق افناء العدو والمحافظة على الذات في آن واحد ، وهما مسألتـان متناقضتان في جوهرهما ، وهنا بالذات تتدخل الستراتيجية والتكتيك لترجح كفة احداهما . وطالما ان هدف الحرب هو كذلك فمن الطبيعي أن تشتد ضراوتها كلما كانت القوة المعيقة للسلام الحقيقي أكثر شراسة وامكانيات . وتبرز هذه الظاهرة على الاخص في مراحل الركود ، التي كنا قد تحدثنـا عنها سابقاً ، اذ أن هذه المراحل تطول أو تقصر بمقدار أهمية ورسوخ الاهداف التي يناضل من أجلها هذا الطرف أو ذاك . وهذه الموضوعة تضفي اهمية متزايدة على الجانب السياسي ، والتعبئة السياسية في الحرب .

ولكن قبل المضي في التفاصيل ، لا بد من الالمام بصورة عامة ومختصرة بالخصائص الموضوعية لطرفي المواجهة ، لأنه دون تحديد هذه الخصائص سيظل اي تقدم في التحليل هو بمثابـة الرجم بالغيب .

أولاً : تتميز ساحة المواجهة الرئيسية ،اذا ما نظرنا اليها كصراع اسرائيلي فلسطيني ، بصغر الرقعة الجغرافية محل النزاع ، وتتأتى عن هذه الخصوصية نتائج عسكرية بالغة الاهمية . فصغر المساحة يهيء للقوة العسكرية الاسرائيلية القمعية قدرة على سرعة الحركة والمناورة والتغطية . ويحرم المقاومة الفلسطينية المسلحة من المرونة ومن الخطوط الواسعة التي تفترض حرب العصابات ضرورة المناورات الكبيرة والتحركات الحرة فوقها .

لقد اعتبر ماوتسي تونغ اتساع مساحة الصين مزية هائلة للقدرات الثورية العسكرية في حرب التحرير الطويلة الأمد التي خاضتها ضد الاحتلال الياباني ، ولا ريب ايضاً ان هذه الخصوصيـة تنعكس بصورة أخرى ومشابهة الى حد ما في الفيتنام حيث تغطي الارض ظواهر طبيعية تعطي الثورة ثقلا لمصلحتها .

ثانياً : تتميز ساحة المواجهة ـ ان نحن اعتبرناهـا فلسطينية اسرائيلية ـ بوجود الاستعمار الاسكاني الصهيوني ، والذي حل محـل جزء كبير من شعب طرد من أرضه وحول الى شعب من اللاجئين في منطقة تقع خارج أرضه الأصلية . في هذه الحالة يفقد المقاتـل الثوري الفلسطيني مزية السمكة التي تسبح في بحر الجماهير . وفيما عدا الاراضي المحتلة بعد ١٩٦٧ فـان المقاوم الفلسطيني يواجه في الواقع جمهوراً معادياً يشكل كل عنصر من عناصره « اداة انـذار » على الاقل . لقد اعتمدت نظريات حروب التحرير الشعبية دائماً على ذلك التفـوق العددي للشعب المقهور الذي يؤدي استنفاره الى الاخلال بتفوق العدو الحربي والتقني ، وتحويل هذا التفـوق

---

(١) ماوتسي تونغ ـ المؤلفات المختارة (بكين) الجزء الثاني ص ٢١٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٦ .

الكمي للجماهير الى تفوق نوعي ، ولكن في ساحة المواجهة الفلسطينية الاسرائيلية يكاد يكون الواقع الكمي في الطرفين متساوياً. وهذا الواقع - بهذه الصورة - يفقد المقاومة الفلسطينية عنصراً أساسياً من عناصر النصر في حروب التحرير الشعبية .

ثالثاً : بالاضافة لذلك ، ثمة خصوصية مهمة على طرفي المواجهة الآن . ففيما يتميز الجانب الاسرائيلي - حتى الآن - بالتمسك تمسكاً شديداً بالنظرية الهرتزلية التي تعرف الامة على « انها مجموعة من البشر يوحدها وجود خطر مشترك ضدها » واجهنا على الجانب الفلسطيني تشتت وتشرذم في الفصائل الوطنية ، بالاضافة للتشتت والتشرذم الجغرافيين في قسم كبير من الشعب الفلسطيني .

رابعاً : يختص الجانب الاسرائيلي بالتفوق التكنولوجي المدعوم بتأييد واسهام المعسكر الامبريالي برمته ، وجهد المؤسسة الصهيونية المالية ، فيما تنتسب جماهير الشعب الفلسطيني الى العالم الثالث النامي ، بكل ما في هذه الكلمة من معاني التخلف ، ولكنه تخلف يضيف الى نفسه ظواهر طفيلية ، في كثير من الاحيان ، تعبر عن نفسها في تسلق الكثير من العناصر على قشور التقدم الاقتصادي والتقني النسبي الذي تفسخه البورجوازية العربية المرتبطة بمصالح الشركات والمؤسسات الامبريالية .

ان هذه الخصائص الرئيسية الراهنة في شكلها السلبي الذي يبدو واضحاً ، هي ذاتها التي تفرض اصولاً استراتيجية لا غنى عنها يجب أن توضع حركة المقاومة الفلسطينية ضمن اطارها .

ومن الضروري والعلمي تلخيص عنواني هذه الاستراتيجية الجديدة بشعارين أساسيين لقلب ميزان القوة لمصلحة المقاومة :

- الصفة القومية للمقاومة الفلسطينية ، في محتواها الطبقي الطليعي .

- شعار الجبهة الوطنية ، الفلسطينية والعربية .

لقد كانت النتائج السلبية التي حصلنا عليها من استعراض الخصائص الاربع لميدان المواجهة تعود الى نقطة الرصد التي اخترناها افتراضاً ، والتي اعتبرت المعركة معركة فلسطينية اسرائيلية بحتة . والواقع أنه لا مفر من الوصول الى هذه النتائج السلبية اذا كانت الفرضية الأساسية هي فرضية خاطئة ، على ان هذه الخصائص السلبية تعود فتنقلب في مجموعها الى خصائص ايجابية لمصلحة الثورة ومصلحة انتصارها ان جرى ايقاف القضية على رأسها بدلا من قدميها ، واعتبرت - اساساً - قضية الجماهير العربية ، في مواجهة الامبريالية والصهيونية وادواتها وكذلك حلفائها المباشرين او غير المباشرين .

ليس ثمة مخرج غير عربي ، شرط أن يعطى للمواجهة التاريخية الراهنة بعدها الطبقي ، فعند ذاك تتغير الصورة وتنهض في مقابل معسكر العدو الهائل الضخامة القوى المؤهلة لتحطيمه ، والقادرة على التفوق عليه : عندما تصبح الخصائص الجغرافية للقارة العربية بمجموعها خصائص

لمصلحة الثورة ، وعندها يصبح التفوق العربي العددي قابلاً للقفز نحو صفة نوعية ، قادرة على تجاوز القوة التي يتمتع بها الخصم القليل العدد بسبب تفوقه التقني الراهن . عندما تستنهض الملايين العربية الكادحة صاحبة المصلحة الاكثر الحاحاً في تقويض الاحتلال وهزيمة الامبريالية وقطع اذرعتها الممتدة خارج الارض المحتلة :

- ان قوة العدو العسكرية التي يستمدها من صغر المساحة التي يناور على خطوطها تنقلب الى ضعف ، اذ يتحول بمجموع وجوده الى معسكر قمعي ، او مجرد ثكنة مطوقة من كل جانب وتضرب من كل جانب .

- ان قدرته المتفوقة في استنفار قواه الذاتية واستجرار التأييد والدعم الامبريالي لها تنقلب الى عملية انتحارية أمام استنفار اكثر ضخامة للملايين العربية .

- ان قدرته في حسم المعارك بواسطة ذراعه النظامية الضاربة تنقلب الى تناقض قاتل امام الحرب الشعبية الطويلة الامد التي تعمق طريقها كل ضربة عسكرية يقوم بها .

اذا نظرنا الى المقاومة الفلسطينية ، في وضعها الراهن من خلال هذا الافق الستراتيجي لا تضحي ـ كما يخيل الى البعض ـ أقل اهمية ، بل على العكس من ذلك وعلى النقيض منه تماماً ، تصبح ذات اهمية مضاعفة وذات الحاح تاريخي في سياق ثورة لا بد لها أن تكون علامة من علامات عظمة الشعوب في مسيرتها النضالية الشاقة .

إن المقاومة الفلسطينية ، التي اهلتها الظروف والمبادرات الفلسطينية الطليعية لمثل هذه المهمة التاريخية مدعوة ، من خلال هذا الافق الستراتيجي أكثر من اي شيء ، الى تفجير الثورة الكبرى .

ودون مثل هذا الافق الستراتيجي ، والذي على أساسه ينبغي لأي عمل تكتيكي ان يضبط وجهته ، فان المقاومة الفلسطينية مرشحة عند ذلك لان تظل في مرحلة الركود . ولا ريب ان استطالة مرحلة من هذا النوع تؤدي الى انخفاض الاقبال على المقاومة ، وسيتحول تأييد القوى الوطنية والتقدمية العربية للمقاومة العربية ، بالتدرج ، الى اعتبارها « ورقة توت » تستر جزءاً من عري هذه القوى أمام جماهيرنا دون أن تلزمها بممارسات عملية ثورية في مستوى برنامج المقاومة .

وكما جعلت الانظمة العربية من المقاومة الفلسطينية « ورقة التوت » التي تستر العري الذي أصابها في هزيمة حزيران ، فان الأحزاب والفصائل والتشكيلات الوطنية العربية مرشحة لأن تسلك الطريق نفسه ان لم تفتح المقاومة المسلحة أمامها باباً للانتساب الفعلي لحركتها الصاعدة الدؤوبة ، ولاستراتيجيتها التي تضع للقضية الفلسطينية أفقها النضالي الجماهيري العربي ، وان لم تدفعها ـ بتقديم المثال وبالجدل وبالبرنامج ـ الى لعب دورها التاريخي .

ومن هنا فان حركة المقاومة الفلسطينية مطالبة بان تحول دون ان تستخدم من قبل الانظمة العربية أو من قبل الفصائل والاحزاب العربية « ورقة توت » تبرىء تلك الانظمة من هزيمتها ،

وتبرىء تلك الأحزاب من مسؤولياتها المستقبلية أمام جماهيرها ، وهذا وحده هو قيمة المثال اليومي الذي تقدمه حركة المقاومة ، اذ انها عبر ذلك المثال تقدم مستوى نضالياً ملزماً ، وقياساً لبرامج الأحزاب والقوى العربية الوطنية والتقدمية وتدعوها لحمل السلاح ضمن ذلك الأفق الاستراتيجي الذي يطل على ثورة عربية كبرى تضحي المعركة الفلسطينية عندها مرتبطة عضوياً بمبدأ بناء هانوي أو هانويات عربية ، وتضحي هاتان القضيتان ملتحمتين بصورة تستعصي على الانفصام .

يجب دفع هذه العملية الجدلية الى ذروتها بالكفاح المسلح ، ويجب العمل بكل قوة لترجيح ميزان القوى الراهن لمصلحة القوى الوطنية والتقدمية العربية والفلسطينية ، وعلينا ان نعترف منذ البدء بان ذلك كله يصبح مستحيلاً ، وضرباً من الوهم ان هو لم ينطلق من الايمان بان المعركة هي حرب طويلة الأمد، تقودها القوى الجماهيرية الطليعية ، على مستوى الوطن العربي كله .

ولا يبدو انه يوجد ظرف يحتم الشروع في تنفيذ هذا البرنامج أكثر من الظرف الراهن ، ولا يبدو انه يوجد مدخل للشروع في هذا التنفيذ أكثر ملاءمة من الظرف الراهن ، ولا يبدو انه يوجد اداة تبادر الى هذه النقلة أكثر اهلية من حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة ، ولا يبدو انه يوجد دليل عمل اكثر وضوحاً وفعالية من الماركسية اللينينية ، ملتحمة التحاماً خلاقاً مع التراث النضالي للقومية العربية .

إن المواجهة في ظرفها الراهن ليست اكثر من « حالة ثبات » على تلك الاميال المئة في غور الأردن (اذا استثنينا القيمة الكبيرة للمقاومة العنيفة المحتدمة في قطاع غزة) - هي كذلك ان نحن لم نعتبرها كبسولة لغم هائل القوة والفعالية مزروع في قلب هذه القارة العربية الشاسعة،واذا نحن لم نستخدم هذه الكبسولة لتفجير ذلك اللغم .

فكيف يمكن لذلك كله ان يتحقق ، على ضوء الوضع العسكري الراهن للمقاومة ؟ بل - قبل ذلك - ما هو الوضع العسكري الحقيقي للمقاومة الان قياساً على مهامها وشعاراتها ؟

عسكرياً تهدف المقاومة المسلحة ، شأنها في ذلك شأن جميع حروب التحرير الشعبية ، الى خلق جملة تناقضات قاتلة في معسكر العدو :

ان تجبره على التجمع لضربها فتنتشر وتضربه في كل مكان ، وان ينتشر ليضربها في كل مكان فتتجمع لضربه في أضعف حلقاته . ان ترغمه على التقدم لتتراجع ، فاذا ما انهكته ضربته ، واذا تراجع قضمت خطوطه الخلفية ، واذا ما توقف حاصرته ، واذا حاصرها اختفت . ان تمنع عنه اقصى ما تستطيع من عون ، وان توسع هوة تناقضاته مع جماهير الاراضي التي يحتلها ، ومن ثم تؤدي خسائره ومناخ القلق والانهاك الذي يعيشه الى توسيع التناقض واحتدامه داخل مجتمعه ذاته . ومقابل هذا التفكك في قوته وطاقاته ، تستنفر المقاومة قوتها وطاقاتها بتوطيد علاقاتها على جميع المستويات بجماهيرها ، ويخل ذلك كله بميزان القوى ، ويقلب القليل الى كثير والضعف الى قوة ، والدفاع الستراتيجي الى هجوم استراتيجي .

بالنسبة للمقاومة الفلسطينية الآن لم تصل بعد الى حد اثارة القدر الضروري من هذه التناقضات في صفوف العدو. صحيح انها ارغمتــه الى حد ما على الانتشار ولكنه في نفس الوقت ما يزال يحتفــظ بقوة ضارية متجمعة قادرة على القيام بعمليات كبــيرة اذا اقتضى الأمر (١).

ان واقع المقاومة ، كحركة مسلحة غضة العمر ، ومن خلال تقييم موضوعي للظروف الصعبة التي نمت فيها ، والتي كانت قد حرمتها قبل هزيمة حزيران ١٩٦٧ من اي فرصة للتنظيم والتعبئة، تشكو الآن من نقاط ضعف أساسية ، يمكن ايجازها ـ بصورة عامة ـ كما يلي :

● القواعد العسكرية الثابتة ، ظاهرة تكاد تلتصق ببعض فصائل حركة المقاومة . ان الثبات في المواقع لا يقــدم للعدو هدفاً سهلا فحسب ، بل يقدم له ايضاً معلومات هامة حول التدريب وتسليح الافراد وكفاءاتهم القتالية وأساليب نشاطهم ، ولا شك أن مواقع العمل الفدائي يجب أن تكون متحركة ومرنة ليس لدواعي الحماية فقط بل ايضاً للقدرة على انجاز مهماتها كخلية ذات دور تعبوي وتنظيمي وتثقيفي في محيطها .

● تستهدف اسرائيل وضع المقاومة في الزاوية وافقادها المبادرة التي تميز العمل المسلــح للعصابات ، وهذا بالذات ما يجعل المقاومة الآن في وضع دفاعي ، الا انه وضع لم يستطـع ان يصل الى مبدأ الدفاع الستراتيجي الذي يتميز ـ في حروب التحرير ـ بالحرب المتحركة الــتي تدعمها العصابات وتكمل جزئياً الحرب الموقعية (٢) .

واذا كانت هذه المرحلة تتميز عادة بالخسائر الجسيمة التي تلحق بالعصابات ، فانها تتميــز ايضاً بالمقابل ، بضرورة بناء الجبهة الوطنية واستخدام الظرف الى أقصى مدى في التعبئــة السياسية .

وقياساً على ذلك فان المهمة الأولى في هذه المرحلة ـ بالنسبة للمقاومة ـ هي اعتماد الحرب المتحركة بصورة أكثر حسماً ، وبناء الجبهة الوطنية العريضة .

● المستوى العلمي والتدريبي داخل المقاومة هو في وضع أقل قدرة فيه مع التطور السريــع مما ينبغي . من الضرورة القصوى الآن مغادرة البرامج الميكانيكية والكلاسيكية لعمليــة التدريب العسكري ، والارتفاع بها نحو انتاج كفاءات قيادية وميدانية جديدة لتخلــق مقاتلــين قادرين على المبــادرة ، وقدرات متزايدة على مواجهة العدو السريــع الحركة والتطــور .

ان ذلك ينعكس على سبيل المثال ، في بطء حركة المقاومة المسلحــة في الرد على تكتيكات العدو مقابل سرعة العدو في تغيير أساليبه وتكتيكاته وافخاخه . ان هذا النوع من الجدلية في

---

(١) هذه المقاطع تعتمد على حوار أجرته «الهدف» مع أحد المسؤولين العسكريين في الجبهة الشعبية حول الوضع العسكري للمقاومة في هذه المرحلة .

(٢) ماو ، المصدر الاسبق ـ ص ١٩١ .

الارتباط مع العدو ينبغي قلبها رأساً على عقب . افقاد العدو مبادرته وتحويلها الى المقاومة ، بمعنى سرعة المقاومة في تغيير تكتيكاتها وافخاخها وأساليبها حال ان يكتشفها العدو ، ووضعه دائماً في موضع ردة الفعل المتأخرة لفعل مرن يتطور باستمرار.

تقول مجلة « نيوز اند وورلد ريبورت » (١٩٦٧/٣/٦) : « يعترف الضباط الأميركيون بانه لا يمكن تجنب خطر الافخاخ الفيتنامية ، وقد صرح ضابط اميركي انه في كل عملية تقوم بها قواته يكتشف افخاخاً جديدة اخترعها رجال حركة التحرير الوطني الفيتنامية ، ويقول انه لا يكاد يخبر جنوده عن فخ جديد حتى يسقطوا في فخ أكثر منه جدة » .

هذه الميزة التي تعتمد بالدرجة الأولى على مستوى التدريبات والمبادرات لحركة المقاومة ما تزال الى الآن مفقودة ، وينبغي أن تعطي اهتماماً أشد ، وفي الواقع فان العدو ما زال حتى الآن يحتفظ الى حد بعيد بهذا النوع من المبادرة .

وثمة نقطة ضعف أخرى تتلخص في الاتجاه الذي يمكن أن تؤدي اليه أخطاء تنظيمية لا تعطى ما تستحقه من اهتمام ، أولها ذلك السلوك التنظيمي الذي يمكن أن يؤدي الى خلق طبقة عسكريتاريا في المقاومة الفلسطينية ترتبط بالرتبة والراتب ، في وقت تحتاج فيه المقاومة أكثر ما يكون الى تكريس وتعميق صفتها كفصائل عصابات ثورية ، وربما كان هذا الخطأ أكثر بروزاً في جيش التحرير الفلسطيني الذي انشىء تنشئة كلاسيكية وما زال الى حد بعيد .

وثاني هذه الاخطاء التنظيمية تتلخص في ضرورة ضبط سلوكية المقاتل ليتقدم الى الجماهير كنموذج للانسان الجديد الذي يناضل من أجله .

وبالاضافة لذلك ، بل قبل ذلك ، توجد نقطة ضعف أساسية هي تشتت فصائل المقاومة وافتقاد خطة عسكرية موحدة وانعدام التنسيق والتعاون الخلاق بينها .

وربما كانت هذه النقطة بالذات هي مفصل الموضوع كله ، ونقطة الانطلاق نحو ايجاد حلول حقيقية لكل الاشكالات التي هي بمقدار او آخر منبثقة عنه .

ان مطلب الجبهة الوطنية العريضة ، التي تلتزم أطرافها ببرنامج حد ادنى وبعلاقات ثورية واضحة ، هو مطلب لا يمكن أن يكون الا أساساً لا غنى عنه لأي عمل ثوري يرمي للحصول على نتائج حقيقية ومتصاعدة ، ومن المؤكد انه دون مثل هذه الجبهة المتحدة ستفقد المقاومة الكثير من قدراتها الذاتية وفي الوقت نفسه ستفقد الكثير من قدرتها كنواة لجبهة وطنية متحدة بين مجموع الفصائل الوطنية والتقدمية في الوطن العربي ، هذه الجبهة التي لا مفر من أن تكون في صلب الأفق الستراتيجي لحركة المقاومة الفلسطينية .

وبالطبع فان الفرصة لم تفت ، ولكن وعي قيمة هذه الفرصة هو الشيء الذي يجب التأكيد عليه وممارسته عملياً . ان اي توجه ثوري جاد لا يستطيع الا أن يدور في حلقة مفرغة ان هو لم يضع في صلب شعاراته الراهنة شعار بناء الجبهة الوطنية وتدعيمها وتوسيعها ، وحين نقول جبهة وطنية انما نستهدف بهذا التعبير ما تعنيه فعلا أي بعيداً عن التراكم العفوي ، بل على

العكس تماماً ـ ملتزمة الى اقصى حد ببرنامج حد ادنى يجري ترسيخه وتطويره عبر الممارسات وتجاربها ودروسها .

وهذا الشعار يعيدنا ، بصورة جدلية ، الى المعنى الحقيقي للفكر السياسي في حركة المقاومة: ضرورته وآفاقه كدليل عمل ، ويعيدنا بالصورة نفسها الى المعنى الحقيقي للمسألة التنظيمية : ضرورتها وآفاقها وقيمتها كأداة لا غنى عنها لنقل ذلك البرنامج الى صعيد التطبيق والممارسة .

لا بد من مرة أخرى أن يجري التأكيد على القيمة التاريخية لهذا المفتاح المثلث الذي بـه وحده يمكن فتح الباب نحو آفاق الانتصار الممتدة امام جماهيرنا التي تستحق ذلك الانتصار بمقدار ما تعي فصائلها الطلائعية حقيقة المعركة وابعادها :

- لا بد من جبهة وطنية عريضة تضم الفصائل الفلسطينية الوطنية .
- لا بد من افق استراتيجي عربي على مستوى الامة.
- لا بد من بعد تقدمي مبني على اساس طبقي.

وذلك كله لا يمكن تحقيقه بسهولة ، هذا شيء مؤكد ، فالعصي السحرية لا تصنع التاريخ ، انما التاريخ تحوله الجماهير التي تفهمه وتعقد العزم على تغييره . ان الطريق صعب وشاق ولكنه يستحق دماء الذين يقاتلون ببسالة في سبيل اجتراح النصر ، وكي نكون اوفياء لهم ، اولئك الذين سبقونا واستشهدوا في سبيلنا ، فليس علينا الا ان نكون في مستوى القضية التي اعطوها ـ دون تردد ـ دماءهم ، وكي نكون اوفياء للمستقبل الذي نريده للاجيال العربية الطالعة ، لا بد ان نكون في مستوى المهمات التي يستلزمها ، وان نتقدم بشجاعة ، مخترقين الجدار ، لنستحق العلم الذي ما تزال دماء جماهيرنا تضرجه ، منذ خمسين سنة .

*

ان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، من خلال هذه الرؤيا للمرحلة الراهنة ولمعضلاتها ، تطرح على خطوط فكرها وخطوط استراتيجيتها على الصعيد السياسي والتنظيمي والعسكري ، ومن خلال هذا التصور ،ـ تطرح الخطوط العريضة لبرنامج وحدة وطنية بين مختلف فصائل المقاومة، الفلسطينية خصوصاً والعربية عموماً ، للايفاء بالتزامات المعركة ، والانتصار فيها .

غسان كنفاني
(شباط ١٩٧٠)

محمد برادة

جدلية الثورة الفلسطينية

بلا مغالاة أو ميل الى التبشيرية ، أؤكد انطلاقاً ، أن المقاومة الفلسطينية أصبحت تشكل لحظة تاريخية زاخرة بامكانات التجاوز والتخطي للمراحل السابقة المطبوعة بالتعايش بين المتناقضات ، وانتقاء «الأصلح» ، وتجريب الأساليب والوسائل « الفعالة » (منذ الطهطاوي ومحمد عبده الى ميثاق الاتحاد الاشتراكي واختيارات حزب البعث القومية).

ما قوام هذه اللحظة المبدعة من تاريخنا ، المتجسدة في انطلاقة المقاومة – الثورة الفلسطينية ؟

لعل البعض يرجع ببداية الثورة العربية الى مستهل هذا القرن ، معتبراً مختلف التجارب ، خطوات ضرورية قبل اكتمال الثورة العربية عبر الثورات الانقلابية . وبالنظر الى طبيعة تلك الثورات الجزئية ، ومحدودية آفاقها ومفاهيمها ، فان قضية فلسطين استخدمت ضمن الزاد الاستهلاكي المهدىء للجماهير ، أو ضمن عناصر المزايدات بين الأنظمة التقدمية والأنظمة الرجعية في العالم العربي . لا يعني هذا مطلقاً تبرئة ذمة الفلسطينيين من مسؤولية الغياب عن ساحة الفعل طوال عشرين سنة ، ولكن الوضعية قبل ١٩٦٥ كانت تنجح في المحافظة على الالتحام (الشكلي على الأقل) ، وفي تخدير الجماهير العربية المستسلمة لقيادات «ثورية» تضمن النصر ، وتمحو العار .

لأجل ذلك ، يبدو تاريخ ٥ حزيران ١٩٦٧ مَعلماً عملاقاً على طريق التحول الفكري والسياسي للأمة العربية . قد يكون صحيحاً – كما قال بعض المثقفين

العرب ــ ان ظلال الأزمة كانت خانقة وباعثة على الانفجار قبل حرب المواجهة مع إسرائيل ، ولكن مواقف القوى الثورية من الأزمة لم ترق الى مستوى الكشف والتعرية والنقد الجذري . ربما لأنها كانت أضعف من أن تتحدى الأسوار والحواجز ، وانتظرت لحظة الانفجار لتنطلق وسط الشظايا والرماد ، معلنة ايمانها بضرورة التخطي وإعادة النظر في القيم الموروثة ، والمستعارة ، والمقتبسة ، والمخضرمة .

ان هزيمة ٥ يونيو تأكيد فعلي لفشل الأنظمة التقدمية المفتقرة الى إيديولوجية ثورية في النظرية والتطبيق ، ومتطورة في اتجاه القوى الاجتماعية الأساسية ، وفي اتجاه السيرورة الثورية العالمية . هل يتعلق الأمر فقط بخضوع تلك الأنظمة لقيادة البورجوازية الصغيرة كما تكاد تجمع التحليلات ؟ أم أن للفشل أسباباً أخرى الى جانب المنطلق الطبقي لتلك الأنظمة ؟

سؤال نعود لمناقشته بعد إبراز المكانة التي أصبحت تحتلها المقاومة الفلسطينية في إطار الثورة العربية المرتجاة .

تتجلى الأهمية الأساسية للمقاومة الفلسطينية في إعلان حضور الذين تولى الأوصياء من قبل ، الدفاع عنهم . معنى ذلك ، أن الالتباس المسعف على إخفاء الاخطاء والاختيارات والتنازلات ، قد رفع ، وأن ساعة الحساب، والصراحة، قد دقت ، وان مفهوماً آخر للتاريخ ، (الماضي مسؤول عن الحاضر ، والحاضر مسؤول عن الماضي والمستقبل) دشنته الرصاصات الأولى للمقاومين الفلسطينيين. وأعتقد ان التحدي الذي طبع المقاومة الفلسطينية بعد يونيو ١٩٦٧ (تحديها لشعار تصفية آثار العدوان) ، صفة جوهرية ساعدت على إعطاء الأمل وتوضيح الآفاق امام القوى الثورية العربية كلها .

ان خصوصية تجربة المقاومة الفلسطينية معروفة للجميع ، ولكن يتحتم دوماً استحضارها ونحن نناقش دورها الطلائعي في تفجير البنى والعلائق القديمة ، وتجذير مفاهيم مطابقة للمرحلة الجديدة على درب الثورة العربية . ولا تنحصر الخصوصية في الصعوبات الموضوعية (مواجهة العدو من خارج الوطن ، وتحالف الامبريالية العالمية والصهيونية ...) بل تنضاف اليها الرغائب الذاتية للأنظمة العربية التي تسعى بكل الوسائل لفرض وصاية جديدة على المقاومة الفلسطينية ، والاستفادة من شعبيتها ونفوذها بين الجماهير . ولا يخفي

قادة المنظمات الفدائية الفلسطينية المرارة التي يشعرون بها من جراء الضغوط التي يتعرضون لها بقصد الارتباط او المشايعة لأحد الأنظمة العربية . ومن ثم فان المحافظة على حرية العمل واتخاذ المواقف، شرط أساسي لقوة المقاومة الفلسطينية، إذ ان كل ارتباط معناه التخلي عن الثورة العربية التي لا بد لها من تجاوز المفاهيم الاصلاحية القائمة ، والاعتماد على الطبقات المعوزة والكادحة صاحبة المصلحة في التغيير .

وأمام هذه الوضعية المعقدة ، نجد ان الفلسطينيين قد انقسموا الى اتجاهين أساسيين :

– اتجاه يضم كل الوطنيين ويصدر عن مفاهيم تحريرية مرحلية ، وتمثله حركة التحرير الفلسطينية (فتح) .

– واتجاه ماركسي لينيني ينطلق من حزب ثوري ذي مقاييس طبقية وايديولوجية محددة تنسحب على كل البلدان العربية وتلتقي بالثورة العالمية . (الجبهة الشعبية الديمقراطية) .

ان هذين الاتجاهين يشكلان جدلية داخلية بالنسبة للمقاومة الفلسطينية ، ونقيضاً مواجهاً للاستعمار الاستيطاني الاسرائيلي ضمن جدلية تشمل مصير الشعوب العربية وحركات التحرير الوطني . واذا كنا نلاحظ ان تحليلات الجبهة الشعبية الديمقراطية لا تنطبق مقاييسها الماركسية اللينينية على الأوضاع الحالية للشعب الفلسطيني (التكوين الطبقي ، علائق الانتاج ...) فاننا نجد أن هذا الاتجاه الجذري في التفكير والتقييم ، هو في الحقيقة تجسيد لاتجاه الثوريين العرب الذين عاينوا فشل الأنظمة والاحزاب التقدمية ، وأخذوا يتطلعون لتجاوزها ؛ وهم بذلك يعتبرون الثورة الفلسطينية جزءاً ملتحماً بالثورة العربية كلها وباشكالياتها ، وآفاقها ، وصراعاتها .

وتنطلق حركة التحرير الفلسطينية من تحليل مغاير ، اذ ترى ان الاختبارات الايديولوجية المسبقة من شأنها ان تقيم العقبات في طريق تطوير المقاومة ، وتكثيف فعاليتها ، خصوصاً ان الشروط الموضوعية للشعب الفلسطيني لا تسمح بتطبيق المقاييس الطبقية ، بالاضافة الى ان المرحلة الأولية لا تطابق في مستوى وعيها الوعي البشري للجماهير الفلسطينية .

أظن أن ما يهمنا اكثر، هو التساؤل عن موقف الثوريين العرب من هذه الجدلية التي تكمن داخل المقاومة ـ الثورة الفلسطينية ؟

هناك حتى الآن انقسام في الرأي العام العربي بين مؤيدين لفتح ، ومؤيدين للجبهة الديمقراطية من حيث الاختيارات الايديولوجية ، وإن كان هناك إجماع شعبي على تأييد المقاومة، وما أخشاه هو ان يكون التأييد مستنداً الى اعتبارات سياسية ملتصقة بأوضاع الأحزاب والمثقفين العرب الداخلية ، فتكون الروابط ـ عند التحليل ـ إما قائمة على محاولة الاستفادة من الرصيد الشعبي لفتح ، او على «اسقاط» تطلعات الثوريين العاجزين عن تجذير وتجسيم تحليلاتهم الماركسية ـ اللينينية .

ان المقاومة ـ الثورة الفلسطينية ما تزال في بداءتها ، وما يزال تشكيل ملامحها يتلمس طريقه وسط شروط في منتهى الصعوبة والتعقيد . وأظن ان المقياس الأكثر موضوعية للحكم على الانطلاقة الفلسطينية بمختلف روافدها هو ما اوضحه لينين من خلال تجربته وممارسته للثورة ، حينما اكد ان السياسة السليمة لا تثبت صحتها ـ خلال أمد طويل ـ الا بمقدار تأطيرها لأغلبية الطبقة العاملة ، ولكن الحركة الثورية لا بد لها من الجمع بين عنصرين اساسيين : البرنامج ، والتأثير على الطبقة العاملة : فبدون البرنامج يمكن للحزب الثوري ان يصبح معادياً للثورة مهما كان اتساع تأثيره على الشعب ، وبدون الوصول الى تعبئة الجماهير ، فان الثوريين المسلحين بأفضل البرامج ، يتحولون الى طائفة عقيمة .

أما بالنسبة للمقاومة الفلسطينية، فهناك لحظة جدلية لاحقة تجعل استمرارها مشروطاً ببلوغها : وهي الانتقال الى مرحلة الحرب التحريرية ، وهو هدف تتفق عليه جميع منظمات المقاومة الجدية . هذا المسار الذي تنهجه المقاومة الفلسطينية سيشكل ـ عند تحقق مرحلته الأساسية ـ عنصراً اساسياً في الجدلية التي ستتحكم في بلورة وتوجيه الثورة الفلسطينية اولاً ، والثورة العربية ثانيا :

ـ فبالنسبة لحركات المقاومة الفلسطينية ، يقتضي منها التجاوز ، عدم التجمد عند المراحل ، وتعميق الاختيارات ، وتجذير الوعي الثوري عند المناضلين . ونستطيع القول بأن التجربة ـ على قصرها ـ اكدت ايمان الفلسطينيين بهذا المبدأ : بمقدار ما تتفتح المقاومة الفلسطينية على الواقع

والتاريخ (النضال لانشــــاء دولة من العرب واليهود على أسس ديمقراطيـة ـ اشتراكية ، والاهتمام بدراسة تجارب الثورات التحريرية) ، تتقوقع إسرائيـل داخل الأفكار اللاهوتية والارتباطات الامبريالية (فهي اذ ترفض اعــادة النظر في وجودها والاعتراف بالفلسطينيين وحقوقهم المشروعــة ، تمضي في تضخيم الهوس الديني ـ ارض الميعاد ، بل تفسر أحياناً انتصاراتها على اساسه ؛ ومـن وراء ذلك تخدم مصالح الصهيونية والامبريالية العالمية) .

ـ وبالنسبة للثورة العربية عامة ،تكتسب وسائل المقاومة ـ الثورة الفلسطينية رجحاناً أكثر فأكثر ،ويتعاظم الاقتناع بتغيير الاختيارات والأساليب الحربية ، والتذبذبات الايديولوجية .

لا يزعم احــد ان المقاومة الفلسطينية قادرة وحدهــا على تخليص البلاد العربية من اخطبوط الصهيونية ، لأن الهدف الستراتيجي للامبريالية من غرس اسرائيل في سويداء الشعب العربي ، يتعدى التكفير عن الذنب تجـاه اليهود ، الى تكبيل الانطلاقة الثورية العربية . ولكن العلاقـة بين القوى الثورية العربية والثورة الفلسطينية هي في حاجة ماسة ، منذ البدايـة ، الى الوضوح التام :

كان هناك خطأ في المنطلق ، منذ ٢٠ سنة ، حينما طرح شعار « القوات العربية تحرر فلسطـين » ، وجاءت عودة الفلسطينيين الى حومة القتال لتصحح الأوضاع وترفع الالتباسات ... ويجب ألا يتحول الشعار الى : « فلسطين تحرر البلاد العربية » .

هنــاك بالحتم ، تفاعل بين القوى الثورية العربية والمقاومة ـ الثورة الفلسطينية ، وهناك ضرورة المساندة والحماية . إلا ان التحليلات والتطبيقـات الثورية (مع افتراض انها نابعة جميعها من الماركسية اللينينية) ينبغي ألا تسقط في التعميم او الاحكام النهائية ، ذلك ـ كما يقول لينين ـ « ان حل التناقضـات المختلفة بمناهج مختلفة لهو مبدأ ينبغي على الماركسيين اللينينيين ان يلتزموا به بصرامــة . اما الجامدون فانهم على العكس لا يلتزمون بهذا المبدأ ، انهم لا يفهمون الفوارق في الظروف التي تتم فيها الثورات المختلفة ، وبالتالي لا يفهمون ان التناقضات المختلفة يجب أن تحل بمناهج مختلفة ؛ انهم يطبقون في كل حالة نفس الصيغة بحذافيرها ويعتبرونها غير قابلة للتغيير . ولا يمكن ان يؤدي هذا الا الى فشل الثورة ، ويعرض للخطر ما كان يمكن الوصول به الى نهاية موفقــة » (بتلهايم ـ الجمود التروتسكي ـ الطليعة ، دسمبر ١٩٦٩) .

وهنا نلتقي بالتشخيص الطبقي لفشل الأنظمة التقدمية ، والذي تقدمه الجبهة الشعبية الديمقراطية والفصائل الثورية العربية المساندة لها . لا جدال أن البورجوازية الصغيرة العربية تلتقي في كثير من الخصائص والعيوب بالبورجوازية الصغيرة الأوروبية التي انتقدها ماركس ولينين ، وتتحمل قسطاً مهماً من مسؤولية تعثر وفشل التجربة الاشتراكية العربية ، ولكن التحليل التفصيلي الذي يراعي الخصائص النوعية لا ينتهي الى الاستنتاج التعميمي المنادي بالتصعيد الثوري على أساس تغيير القيادة الطبقية . ان كثيراً من تجارب الأحزاب الثورية العربية قد اعتمدت على طبقات متعددة أساسية ، وكانت لها تطلعات جذرية ، ومع ذلك توقفت عند منتصف الطريق . بالاضافة الى ان اليسار العربي الماركسي اضطر ـ بعد طغيان التبشيرية على تحليلاته الطبقية ـ الى تعديل تطبيقاته الميكانيكية .

الفشل قائم ولا يستطيع احد الاستمرار في مداراته ، الا أن التحليلات شبه الجاهزة ليس من شأنها أن تتيح تجلية الجوانب المغلقة من التجربة الثورية العربية .

ان تعاملنا مع التاريخ يقتضي الاحتراز من التعلق بالحقائق المطلقة ، ذلك ان الحقيقة المطلقة ـ كما يقول عبدالله العروي [1] ـ ليست معطاة من البداية أو مرفوضة للأبد ، إذ أنه في الحالتين معاً ، يفقد التاريخ ايجابيته » .

ان المقاومة ـ الثورة الفلسطينية ، تنتصب شامخة وسط العالم العربي ـ في هذا الظرف الدقيق من تاريخه ـ لتؤكد الحقيقة التي أكدتها حركة التحرير الفيتنامية للعالم أجمع ، وهي ـ على حد تعبير جان بول سارتر [2] ـ « توسيع مجال الممكن .. ليس معنى ذلك ان كل شيء ممكن ، بل معناه اننا لا نستطيع معرفة استحالة شيء ما ، الا بعد تجريبه والاخفاق في تحقيقه » . والفيتناميون حاولوا المستحيل (ما كان يبدو مستحيلا : الصمود أمام الآليات العسكرية الجهنمية الامريكية) وانتصروا ، فأضافوا بذلك امكانية مهمة للتطبيق الثوري . وهذا ما يضيفه الفلسطينيون الى الثورة العربية : من الممكن تحقيق المستحيل ، من الممكن تجاوز الفشل وتخطي الهزيمة .

محمد برادة
(الرباط)

---

1) Les Arabes et l'Histoire - in revue : Lamalif - Février 1969 - p. 25
2) Le nouvel Observateur - Sartre par Sartre - No. 272 Février 1970.

ابراهيم بدران

مسائل اساسية تواجه المقاومة :
من مؤسسات القتال الى مؤسسات الثورة

لئن كانت احداث ١٩٦٧ كشفت دونكيشوتية الواقع العربي وجدبه وزيفه، واكدت عملياً – بعد ان كان قد وضح نظرياً – ان المؤسسات العربية لا تستطيع بحكم تكوينها ومنهجها ، ان تتجاوز نفسها ومصالحها ودورها التاريخي ، وكشفت ملامح وخطوطاً من حجم المأساة المصيرية التي تترصد الجماهير العربية والأرض العربية وبخاصة تلك المحيطة بفلسطين ،ولئن حطمت بعضاً من جدران السمع والبصر التي فرضت على الجماهير من قبل الآلات الحاكمة ، فإنها لم تستطع – ولا يفترض ذلك – ان تحول هذا الكشف الى نوع من الادراك العميق الذي يتغلغل في عقول الجماهير وضمائرها . ذلك ان تفاعل الجماهير تفاعلاً حقيقياً مع المأساة وادراكها لها وانفعالها بها يعتمد من حيث التجاوب (والايجابية كذلك) على عمق «المساسات» وشمولها (مقيسة بالنسبة الى التناقضات التي تعيشها المنطقة) وعلى « توفر » او « بزوغ » قيادات جماهيرية واعية قادرة على تحريك الجماهير وكسب ثقتها . ويحتاج هذا التفاعل من حيث الزمن الى مدد تتناسب عكسياً مع المستوى الاقتصادي – الحضاري لهذه الجماهير . هذا على افتراض ان تأزمات الكتلة الجماهيرية وتناقضاتها ، تزداد حدة حتى تصل الى حالة الانفجار التدرّجي . وعلى افتراض ان هذه الجماهير تواجه المأساة مواجهة عارية لا تخفف من حدتها اية حقن اقتصادية جماعية (مثل مساعدات الأمم المتحدة للاجئين الفلسطينيين والرساميل الاميركية والأوربية المتغلغلة في الخزائن

العربية) أو سياسية وطنية (مثل حملات الاعلام العنترية العربية في اجتماعات القمم ... الخ) او رشاوية غير مباشرة (مثل المرتبات التي تدفعها الحكومة البريطانية لموظفي حكومة الانتداب أو المرتبات الكبيرة التي تقدمها بعض الحكومات لاعضاء جهازها الوظيفي) يكون من شأنها تهدئة وتخدير الجماهير و«اماتة الشعور» لديها بالأزمة . فاذا استثنينا (مؤقتا) جماهير الشعب الفلسطيني في غزة وفي الضفة الغربية بالاضافة الى الفلسطينيين العرب القاطنين في الأرض المحتلة منذ ١٩٤٨ ، فان سطحية المساسات وانحصارها (حيث يقف الجندي الاسرائيلي) وبقاء القيادات والانظمة والمناهج ، وتدفق المعونات والمساعدات والدعم ...الخ ، هذا كله يجعل الفرق الفعلي بالنسبة للمواطن العربي بين ما قبل حزيران ١٩٦٧ وما بعده ليس فرقاً كبيراً .

وكان من نتائج احداث الخامس من حزيران كذلك ان القت الضوء ــ دون قصد من منفذيها ــ على حقيقة ما كان يدور في «الخفاء المتعمّد» من تشقق في القشرة المتصلبة منذ عشرين عاماً ومن بزوغ براعم يمكن ان تنتمي مستقبلاً ، وبشروط موضوعية اساسية الى فصيلة حروب التحرير الشعبية المعروفة جيداً خارج الوطن العربي والمحجوبة بستار كثيف من الاعلام [1] المضاد في الوطن العربي . وتم انفتاح هذه البراعم اللاتقليدية (وذلك في ضوء المفهوم الذي تمكنت النظم العربية القائمة من غرسه في عقلية الجماهير من ان مسألة اسرائيل مسألة « تخص الحكومة » وبذلك فهي لبست مسؤولية جماهيرية ابداً) على الجماهير الفلسطينية بخاصة والعربية بعامة . وهذا الانفتاح كانت تتحكم فيه قوتان متناقضتان استراتيجياً ومتآلفتان تكتيكياً في هذه اللحظة الحاسمة بالنسبة لكل منهما . القوة الأولى تمثل المؤسسات العربية الرسمية وتكتيكها : «الابتعاد عن أعين الجماهير بالتستر خلف «الفدائيين» حتى يتم التقاط الانفاس » .والقوة الثانية تمثل براعم المقاومة الفلسطينية وتكتيكها:« كسر اللصوص باب السجن وسرقوا سلاح السجّان .. فالى العمل ! » . وادى احتكاك الجماهير بهذه البراعم الى تعاطفها معها وتغذيتها لها مدفوعة بعوامل متنوعة ومعروفة غير انها تتصف بحكم طبيعتها باللااستمرار . ونمت فصائل المقاومة . وبدأت أولى

---

(١) يقصد بالاعلام هنا كل ما يصل الى الجماهير من معلومات وأفكار سياسية واجتماعية وثقافية .. الخ عن طريق الصحافة او الاذاعة او الكتب المدرسية ... الخ .

خيوط التلاحم تتداخل بينها وبين الجماهير الفلسطينية والعربية ١ . لقد أصبح الاحتلال الصهيوني هو التناقض الرئيسي ادراكا ومعاناة بالنسبة للشعب الفلسطيني باسره ... واخذت الجماهير الفلسطينية بصورة رئيسية والجماهير العربية بدرجة اقل (بحكم طبيعة المسألة) تتطلع الى فصائل المقاومة كنواة قيادية عليها مسؤولية حل هذا التناقض عن طريق تنظيمها للجماهير وقيادتها لها في صراعها الطويل ضد القوى المحتلة .

حرب التحرير الفلسطينية والجماهير العربية

ان العلاقة الجدلية بين الواقع العربي والواقع الفلسطيني وبالتالي بين ما قد يتمخض عنها (اي الثورة العربية والثورة الفلسطينية) واضحة كل الوضوح ابتداء من التحليل النظري للمسألة الفلسطينية وحتى الواقع التاريخي الذي يأخذ مكانه كل يوم . واهمية هذه الملاحظة لا ترجع الى غرض استقصائي بحت يهدف الى نفي او اثبات مجردين ، بقدر ما ترجع الى اهميتها التنفيذية لكونها تشكل قاعدة انطلاق للعمل العربي ـ الفلسطيني ،والفلسطيني ـ العربي. وعند تحليل موقف المقاومة من هذه العلاقة نجد أن جميع فصائل المقاومة تعترف بها علناً أو ضمناً ، ابتداء من التحليل النظري وانتهاء بالممارسة اليومية ولا نضيف جديداً اذا قررنا ان الجماهير العربية والأرض العربية تشكل جزءاً اساسياً وحتمياً من الاعتبارات الاستراتيجية والهدفية لحرب التحرير الفلسطينية ، وبالتالي فان علاقة الجماهير العربية بحرب التحرير هذه وتفاعلها معها هي اخطر المشاكل التي تواجه الحركة الفلسطينية . وهي ،كأي علاقة مشابهة ، مهددة دائماً بعوامل داخلية وخارجية مضادة تحاول فصم اي تلاحم بين النواة القيادية والجسم الجماهيري . ناهيك عن ان ما هو قائم الآن لم يتعدّ مرحلة التعاطف والتأييد الذي تفرضه الاحداث وهو معلق بتحركات سياسية على الصعيد العربي الرسمي . وواضح ان مصير هذا التعاطف وهذا التأييد الضمور والتلاشي ما لم تتوفر لها اسباب التطوير وما لم يقوما على اساس متين منظم من المشاركة

---

(٢) واضح ان الهدف استعمال كلمتي «فلسطينية» و«عربية» هو التخصيص بين ساحات العمل من حيث الأحداث والقوى والتنظيمات والاحتكاك المباشر مع العدو . وينسحب هذا على الكلمتين اينما تردان .

المصرية . ان التعاطف الحالي – لكونه تعاطفاً – لا يصلح لامداد حرب التحرير الفلسطينية التي ينتظر ان تطول سنوات وسنوات بالوقود الذي تستهلكه (كما ونوعاً) الحروب الطويلة الامد . أضف الى ذلك ان الجماهير في معظم الساحات العربية ما تزال غير مالكة مصيرها وغير قادرة على التعبير عن ارادتها لأسباب واضحة وبالتالي فان الواقع العربي بصيغته الحالية لا يهيء بيئة تفاعلية منتجة بين الجماهير العربية وحركة المقاومة الفلسطينية انتاجاً يتمشى مع استراتيجية الحركة الفلسطينية واهدافها ، والحركة العربية (الثورية) كذلك واهدافها .

ان خلق البيئة التفاعلية المنتجة ، وتطوير التعاطف ، وتعميق التلاحم والحيلولة دون ضمور او تلاشي تأييد الجماهير العربية للمقاومة الفلسطينية أمر تقع مسؤوليته التخطيطية والتنفيذية على قوى المقاومة الفلسطينية من ناحية رئيسية (من حيث مسألة تحرير فلسطين) وذلك باعتبار ان عامل الزمن أكثر الحاحاً بالنسبة للمقاومة منه بالنسبة للقوى الثورية العربية . وتقع مسؤوليته على الثوريين العرب من ناحية اخرى . ان المسؤولية التاريخية التي يتحملها الثوريون العرب لا تسمح لهم بان يكونوا أقل المحابين من المقاومة الفلسطينية أو ان يكونوا اقل جرأة واستعداداً للتضحية ولا خلاف على ان المسألة الفلسطينية (أو مسألة القوى الصهيونية في المنطقة) تشكل بالنسبة للقوى الثورية العربية اعتباراً اساسياً في محاولاتها لتغيير الواقع العربي . غير ان بحث الموضوع من زاوية مسؤوليات المقاومة الفلسطينية يدفعنا الى تأكيد مسؤوليتها من حيث مبادرتها ، ومسؤوليتها في « استنباط صيغ المشاركة » وتقديمها « لافكار تصلح اساساً كمنطلقات للعمل المشترك » .

استطاعت المؤسسات العربية الرسمية – بدافع التمسك بالسلطة وخدمة المصالح الخاصة بها – وبتنفيذ بارع ، ان تتولى دور الوسيط بين الجماهير العربية وحركة المقاومة الفلسطينية . وقد يكون سبب نجاحها في الاستيلاء على هذا الدور عائداً الى رغبة المقاومة في النمو باسرع ما يمكن من جهة والى انعدام التنظيمات الجماهيرية العربية القادرة على العمل المنظم من جهة أخرى. الا أن دور الوساطة هذا قد تحول الى دور «عزل» بحيث اصبحت المؤسسات الرسمية العربية قادرة على التحكم « بدرجة التوصيل » بين المقاومة الفلسطينية والجماهير العربية بل استطاعت أن « تُغري » بعض فصائل المقاومة « بالاعتماد » عليها وبالتالي

أن تتحكم بها مستخدمة ثقلها للتأثير على سير الأحداث في الساحة الفلسطينية ، مما أسهم في انعـــاش ما يعرف الآن باسم « ظاهرة التشرذم » . ولم يقتصر عمل المؤسسات العربية على دور الوسيط بين المقاومة والجماهير العربية بل تعداه الى دور الوساطة بين المقاومة والقوى الثورية العالميـــة ، ومرة أخرى تحولت الوساطة الى نوع من العزل . ان مسؤوليـــة الثوريين العرب هي ان يبادروا الى تصحيح هذا الوضع بان يأخذوا دورهم الطليعي في أن يكونوا أداة الربط بـين الجماهير العربية والمقاومة الفلسطينية . وعلى قوى المقاومة أن تبادر الى تحقيق هذا التصحيح عن طريق العمل المنظم مع القوى الثورية العربية .

ان تطور الأحداث واقتراحات الحلول والازاحة المستمرة في محـــاور التكتيك في الوطن العربي (على مستوى المؤسسات الحاكمـــة) ولدى العدو الصهيوني ،تجعل مسألة الاسراع (وليس التسرع) في انشاء «تحالف عمل» وعلى أصول مؤسسيّة واضحة ومتينة بين قوى المقاومة الفلسطينية والقوى الثورية العربية أمراً في منتهى الخطورة بحيث يجب أن يعطى الأولوية على غيره من التحركات السياسية والتنظيمية على النطاق العربي . ان العمل المنظم المشترك بين الثوريين العرب والثورة (١) الفلسطينية هو أحد الشروط والضمانات الأساسيـة لنمو الثورتين معاً (العربية والفلسطينية) (٢) .

غير أن تكتيك هذا التحالف وتكتيكه يحتاجان الى دراسة وتحليل واعيين بعيدي المدى يأخذان في عين الاعتبار العلمي ثلاث نقاط اساسية :

١ ـ استراتيجية العدو واهدافه ممثلا بالقوى الصهيونية والامبريالية .

---

(١) تحليلياً نعرف الثورة بانها : استراتيجية تتضمن وتهدف الى خلق وتحريك وتنظيم عملية تفاعل كبرى ، بتوفر وتوفير الأسباب الموضوعية ، على مستوى الأمة ، تكون الديناميكية احدى صفاتها البارزة مستخدمة الخامات البشرية والامكانات الحضارية كمواد ومنشطات لهذه العمليـــة. وهذا التفاعل يخضع ـ ويجب ان يخضع ـ لقوانين ومعادلات تحـــل محل القوانين والمعادلات السائدة . والثورة بهذا هي اداتياً : استراتيجية تغيير الصيغة الحياتية للأرض ومن مــــا عليها . ونتيجة هذا التفاعل هي تغيير الخصائص التي اكتسبتها البقعة سواء كانت هذه الخصائص حصيلة عوامل محلية كسقوط القانون السائد واندحاره وتعفنه (تجاوز المرحلة التاريخية) أو عوامل خارجية اجبرت الكتلة الجماهيرية على تغيير منهاج حياتها وافقدتها السيطرة على واقعها ومستقبلها .

(٢) هناك بالمفهوم المتقـــدم للثورة ، مشروع ثورة فلسطينية ومشروع ثورة عربية وسوف نستعمل كلمتي ثورة فلسطينية وثورة عربية للدلالة على مشروع الثورة .

ب ـ استراتيجية واهداف تغيير الواقع العربي (دور القوى الثورية العربية).

ج ـ استراتيجية واهداف المقاومة الفلسطينية .

كل ذلك في اطار الارتباط المصيري لحركة التحرر العربي باسرها بحركات وقوى التحرر التقدمية في العالم . وفي رأينا ان مثل هذه البيئة التحليلية شرط أساسي للوصول الى الصيغة النضالية المثلى من أجل تحقيق أهداف الثورة الفلسطينية وأهداف الثورة العربية اللتين قد تستطيعان أن تقدما في المستقبل اضافات جديدة للخبرة الثورية العالمية .

الملامح الاساسية للاطراف الثلاثة

أ ـ المؤسسة الصهيونية (والقوى الامبريالية)

ا ـ الاهداف

١ ـ تجميع أكبر عدد ممكن من يهود العالم ـ دون اهمال المتطلبات المرحلية[١] ـ في منطقة اتخذت فيها فلسطين كبؤرة تجمع وقاعـــدة انطلاق الى اهداف اقتصادية[٢] ومساحية[٣] مجاورة ومتصلة بالقاعدة باتجاه شعاعي يغطي اقساماً من الأردن وسوريا ولبنان ومصر والسعودية والعراق .

٢ ـ فتح المساحات المكتسبة كميادين استثمارية للرساميل[٤] التي يسيطر عليها المولون اليهود في دول الكتـــلة الغربية وخاصة امريكا وبريطانيا وفرنسا والمستفيدين حالياً او مستقبلاً من المشاريـــع الصهيونية[٥] .

---

(١) ان ما تسعى اليه المؤسسة الصهيونية في المرحلة الحالية هو هجرة اليهود الذين ليس لهم قوى اقتصادية مؤثرة وخاصة في اوربا وامريكا نظراً لاعتمادها الاساسي على تأثير هذه القوى من أجل تحقيق أهدافها . وفي ظل التوسع الصناعي الضخم الذي تعيشه اسرائيل الآن فان المؤسسة الصهيونية تقدم كل التسهيلات والاغراءات لهجرة الخبرات الهندسية والتكنيكية في الوقت الذي كان تركيزها في أوائل الخمسينات على هجرة الخامات الصالحة للمؤسسة العسكرية .

(٢) من امثلة ذلك استزراع المناطق المنزوعة السلاح والسيطرة عليها .

(٣) احتلال الاراضي العربية اثناء السلم وعن طريق الحرب .

(٤) من امثلة ذلك المصانع الموجودة في اسرائيل، والتي تملكها بيوتات الأموال الصهيونية كمصانع ماركس وسبنسر وغيرهما .

(٥) مؤتمرات اصحاب الملايين اليهود التي تعقد في الأرض المحتلة وخارجها وما ينتج عن هذه المؤتمرات من استثمارات لانعاش الاقتصاد الاسرائيلي وتنميته .

٣ ـ اقامة شكل من الاشكال الامبراطورية جغرافياً والامبريالية اقتصادياً.

ب ـ العلامات الاستراتيجية البارزة لتحقيق الاهداف الصهيونية :

١ ـ التحالف العضوي ـ بحكم التكوين وحكم الدعم المستمر ـ وتبادل المنافع والخدمات مع القوى الامبريالية والعنصرية .

٢ ـ اخلاء المساحات المحتلة من سكانها ما أمكن عن طريق الاحلال السكاني بالازاحة المستمرة من المركز الى المحيط[1] وبالوسائل العسكرية التقليدية .

٣ ـ الانقضاض المركز السريع في حروب دورية (بمعدل كل عشر سنوات تقريباً ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧)،خاطفة بواسطة مؤسسة عسكرية عالية الخبرة التكنيكية والعلمية ، حديثة المعدات تتسم بالديناميكية والتجديد ووضوح الاهداف . هــذا بالاضافة الى عمليات الزحف المساحي البطيء اثناء فترات الاعداد والهدوء الظاهري[2] وذلك انطلاقاً من القاعدة : « ان الجهاز العسكري يمارس الجراحة والجهاز السياسي يمارس التطبيب » .

٤ ـ إبقاء السكان اليهود في الأرض المحتلة في جو من التوتر النفسي المتواصل وشعور بالخطر والتهديد من العرب المجاورين مستفيدة (اي المؤسسة الصهيونية) من الصرخات الهستيرية والخطب العنترية والنوبات الشوفينية التي تحاصر المنطقة المحتلة من كل مكان (والتي لا يغفل الجهاز الدعاوي الصهيوني عن تسجيل حق شواردها) والتي تُحقن فيها الجماهير العربية من قبل مؤسساتها الحاكمة . ولا نضيف جديداً اذا قلنا ان الاعلام العربي بتخبطه وانعدام تخطيطه واخضاعه اساساً لخدمة مصالح الطبقة (أو الفئة) الحاكمة من بيروقراطيات وعسكريات وعشائريات .. الخ قد خدم وما يزال يخدم المؤسسة الصهيونية خدمة مزدوجة من حيث أنه يساعد تلك المؤسسة على تحقيق برنامجها السيكولوجي بالنسبة لرعاياها وبالتالي قبول هؤلاء الرعايا لعمليات « السبرطة » المستمرة ، ومن جهة أخرى يهيء الانسان العربي لقمة سائغة للعدو (وهــذه من الامثلة النادرة في التاريخ) عن طريق اشاعة الشعور بالأمن المزيف وتجهيل المواطنين بقدرة العدو

---

(١) مستعمرات النحال التي تبنى في الهضبة السورية والخليل وسيناء الخ .
(٢) من أمثلة ذلك الاستيلاء على العوجا وجبل سكوبس والاراضي المنزوعة السلاح .. الخ .

وعدم اعداد المواطنين لأية مواجهة دفاعية ناهيك عن الهجومية[١] .

٥ - وجود شبكة ضخمة من الدعاية العالمية يغلفها لباس علمي عالمي يتمثل في الاساتذة والباحثين والمفكرين اليهود الصهيونيين وغير اليهود مدعومة بنفوذ أصحاب الاموال وامداداتهم .

٦ - دراسة المجتمع العربي والأرض العربية دراسة اكاديمية وميدانية تتيح للمؤسسة الصهيونية سلامة التخطيط وواقعيته وتجدديته[٢] .

جـ - الاخطار الرئيسية التي تهدد المشاريع الصهيونية

١ - قيام تنظيم جماهيري علماني واع يدرك نقاط الضعف في الشخصية العربية وتتوفر لديه المرونة والمقدرة على «تثوير» المنطقة لصالح الجماهير التي تتاح لها فرصة ادراك ومعاناة وممارسة التحدي الذي تفرضه عليها المؤسسة الصهيونية وبالتالي تتولى مسؤولية الدفاع عن نفسها ومستقبلها من خلال التنظيم .

٢ - تحول المنطقة العربية وخاصة المجاورة لفلسطين من انظمة تعتمد في ميكانيكيتها على المحركات العشائرية والمحاور الفردية المزاجية ذات الطابع القبلي[٣] الى انظمة تسيرها مؤسسات جماهيرية القاعدة والمصلحة تعتمد في ميكانيكيتها على محركات جماعية نظامية قابلة للتطوير والتجديد بالتوافق مع الانجازات الانسانية التكنيكية والفكرية .

٣ - توقف الهجرة اليهودية نهائياً الى منطقة التجمع «فلسطين»، وهذا العامل

---

(١) عند وقوع الحرب سنة ١٩٦٧ لم يكن هناك ملجأ واحد من الغارات الجوية في الضفة الغربية أو الشرقية وكذلك الحال بالنسبة لبقية الدول العربية المجاورة وطبعاً لم يكن هناك تنظيمات شعبية من دفاع مدني .. الخ . في الوقت الذي تبنى الملاجىء في اسرائيل كجزء أساسي من المباني وتستعمل انواع خاصة من الخرسانة المضادة للقنابل في سقوف المنازل .

(٢) من أمثلة ذلك الدراسات المستفيضة المركزة التي يجريها أساتذة القسم العربي في الجامعة العبرية بالاضافة الى الابحاث التي تجري في مختلف جامعات العالم والتي يحصل عليها اليهود عن طريق تبادل المعرفة الجامعية وكذلك ابحاث كثير من المستشرقين اليهود والعاملين لحساب المؤسسة الصهيونية والمتغلغلين في كثير من البقع العربية العلمية والعملية .

(٣) لا تزال الاجتماعات العربية غير ذات اهمية وغير جدية ما لم تكن مؤتمرات قمة يحضرها رؤساء «العشائر» !

ذو أهمية بالغة في استراتيجية العدو حيث أنه قد يتنازل عن الأرض مؤقتاً في سبيل كسب اعداد من المهاجرين الجدد (من امثلة ذلك نتائج حرب السويس سنة ١٩٥٦) منطلقاً من مبدأ « الهجرة طريقنا للتوسع ».

٢ ـ القوى الثورية العربية

ان تحديد هوية الثوريين العرب من الناحيتين النظاميـــة والانتظامية ، لاسباب سياسية واجتماعية معروفة ، أمر واضح الصعوبة بالنسبة للفرد العادي غير الملتزم ، أما المؤسسات فان التحديد بالنسبة لها أقل صعوبة ، وفي الوقت نفسه أكثر الحاحاً وهذا بطبيعة الحال ينطبق على فصائل المقاومة الفلسطينية . وبشيء من التجاوز يمكن القول إن هذه القوى الثورية المتراوحـــة تطلعاً او انتظاماً من اقصى اليسار الى يسار الوسط ، وبغض النظر عن مستوى النشاط الذي تمارسه أو الانعزال الذي تعانيه ، تجمعها الخصائص العامة التالية :

١ ـ عدم انسجامها الانسجام الأمثل (نوعاً وسعة وكفاءة) مع الواقـــع العربي بكل ابعاده الاقتصادية والاجتماعية والفكرية .. الخ ويتراوح هـــذا اللاانسجام من مستوى الرفض الكلي الثوري [1] لهذا الواقع (عند اقصى اليسار) الى مستوى عدم الرضا (عند يسار الوسط) .

٢ ـ تطلع هذه القوى الى تغيير الواقع العربي بكل محتوياته منطلقـــة من فهمها للتناقضات المحلية باساليب تبتدىء بشبه الطوباوية عنـــد يسار الوسط وتنتهي بأساليب العنف الثوري المسلح عند اقصى اليسار . وتتفق المقاومـــة الفلسطينية مع القوى الثورية العربية على النقطتين المتقدمتين .

٣ ـ عدم وضوح البرامج المقدمة من الثوريين العرب المنتظمين (بوجه عام) سواء بالنسبة للمرتكزات الايديولوجية أو بالنسبة لأساليب العمل . وهـــذا اللاوضوح له أسبابه الموضوعية النابعة من البيئة ومن الشخصية العربية والـــتي تعودت خلال قرون عديدة من الاستعباد والاستغلال (الداخليين والخارجيين) على الخوف والمهادنة والمصالحة وعدم المثابرة ، بالاضافة طبعاً الى الأســـباب الموضوعية العالمية التي تنطبق على معظم المجتمعات المشابهة .

---

(١) حسب تعريفنا المتقدم للثورة.

٤ ـ عجز الثوريين العرب عن كسب تأييد وثقة الجماهير كماً وكيفاً يتناسبان مع ما تقتضيه ضرورات الواقع وبالتالي عجزهم (لاسباب متعددة) عن ادارة آلة الثورة بشكل يضمن لها الاستمرار والانضباط .

ومن الطبيعي والحال كذلك ، أن تكون استراتيجية التغيير غير مبلورة وعناصرها غير متآلفة . وهنا يبرز دور المقاومة الفلسطينية الايجابي تجاه الثورة العربية في أن تعمل مع الثوريين العرب على تبادل الخبرة والتنسيق المشترك .

ان أهم الأخطار التي تواجه القوى الثورية العربية حالياً هي عدم قدرتها على الانتفاض والتخلص من كابوس العشرين السنة الماضية وعدم قدرتها على التحرك بالسرعة المناسبة . **ذلك ان استعمال الفئات العربية المتحكمة قضية فلسطين كأداة كبت وتهديد في وجه القوى الثورية الساعية الى التغيير طوال الفترة الماضية كان له اثره الكبير في تشويه وتحريف أصول التقييم وعلميته عند القوى الثورية بحيث اصبحت اسيرة « الوضع القائم » (خاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وردود الأفعال الاسرائيلية) والمحافظة على الموجود خوفاً من ضياع الكل .. الخ** . ونجحت الفئات المتحكمة في أساليب الكبت والقهر باسم القضية الفلسطينية واقتنعت الجماهير باساليبها الديماغوجية (وما أضعف جماهيرنا أمام الديماغوجية !)من أن كل عمل لا ينبثق عنها (أي الحكومات) هو ضد مصلحة القضية ! واقتنعت الجماهير[١] ـ وساعد في ذلك ميوعة القوى الثورية ايديولوجيا وتنظيمياً ـ الى حد ما ، بأن الحزبية والتنظيمية هما المعوّق الأكبر ، وبذلك عزلت القوى الثورية عن الجماهير واصبحت تتردد في القيام بأية محاولات جريئة خوفاً من ردود الافعال الاسرائيلية وبذلك وقعت في قلب الفخ الذي تنصبه الفئات الحاكمة ، وراحت تدور في حلقات السياسة العربية ، متغافلة الى حد كبير عما يدور في حلقات الاستعدادات الاسرائيلية ومشاريعها الخ ... وبعد سنة ١٩٦٧ ، و« قع كل ما كان يحذره » الثوريون العرب . وبقيت الانظمة كما هي وتساوى التقدميون بالرجعيين .. الخ . ان على الثوريين العرب أن يتحركوا قبل أن تتمكن اسرائيل من هضم ما ابتلعته

---

(١) أصبحت الجماهير تعيش اسيرة المعجزات المنتظرة وساعات الصفر وخيالات صلاح الدين وانتظار اللحظة المناسبة ... الخ .

سنة ١٩٦٧ . وبذلك تصبح قادرة على ابتلاع المزيد وقبل ان ترجع الفئات المتحكمة الى ممارسة اللعبة نفسها . لقد كان التحرك أسهل مما هو الآن في عام ١٩٦٨ والآن هو أسهل مما سيكون مستقبلاً اذا استطاعت القوى الثورية العربية أن تستفيد من الزخم الذي تتمتع به المقاومة في هذه الفترة .

٣ ـ الثورة الفلسطينية

ان مجرد تحرير الأرض من قوى الاحتلال (السياسي او العسكري) لا يصنع ثورة ولكنه قد يكون خطوة دافعة في طريق الثورة وان استعمال اسلوب الكفاح المسلح لا يمكن أن يكون ضماناً مانعاً من ان حركة التحرير ستكون لصالح الجماهير أو أنها ستغير صيغتها الحياتية [١] . غير أن كون حركة التحرير تعمل لصالح الجماهير ولتغيير صيغتها الحياتية تقدمياً هو أحد الشروط الاساسية لضمان الحرب الطويلة الامد ولامكانية استمرارها . لهذا اعتبرنا حرب التحرير الفلسطينية «مشروع ثورة» ما دامت في صيغتها الحالية فكراً وتنظيماً. **والشيء الجديد بالنسبة لحرب التحرير الفلسطينية هو ان الشكل النهائي للحل المطلوب يتمثل في تعايش الفلسطينيين العرب مع يهود اسرائيل على ارض فلسطين . ونظراً للتباين التنظيمي والتكنيكي والكفائي بين طرفي النزاع فان الشخصية العربية الفلسطينية بحاجة الى « التثوير » قبل ان تصبح قادرة على معايشة الشخصية اليهودية في الأرض المحتلة . وعملية التثوير هذه يجب ان تتم اثناء عمليات الصدام المسلح ، وعليه فان « الثورة » هنا شرط اساسي بالضرورة « لتأهيل الانسان » للوضع الجديد الذي يفرضه نجاح حرب التحرير** . ومن هنا فان تقديم التحرير على الثورة [٢] زمنياً والمفاضلة بينهما وفي اولويتها .. الخ ، يشكل خطراً على القضية باسرها من حيث انها قضية انسان وقضية أرض .

ان أهداف حرب التحرير الفلسطينية تتمثل في تصفية المؤسسة الصهيونية في فلسطين وايقاف المد الصهيوني الآتي من خارج المنطقة واقامة دولة على ارض فلسطين ، تقدمية علمانية يعيش فيها العرب واليهود متمتعين بحقوق متساوية .

---

(١) من امثلة ذلك حروب التحرير في كينيا وفي قبرص وفي اندونيسيا الخ .
(٢) المقصود هنا طبعاً الثورة الفلسطينية وتحرير الأرض الفلسطينية .

وهي تحاول تحقيق هذه الاهداف عن طريق اعتماد اسلوب الكفاح المسلح والحرب الشعبية الطويلة الامد كخط اساسي لعملية التحرير ساعية الى تحقيق الوحدة الوطنية للشعب الفلسطيني وابراز الشخصية الفلسطينية بمحتوى نضالي ثوري في المجال الدولي وعاملة على تحقيق التلاحم النضالي بين الشعب الفلسطيني وجماهير الشعب العربي واقامة روابط نضالية متينة مع حركات التحرير العالمية .

بعض المسائل الاساسية التي تواجه حركة المقاومة

نظراً لان حرب التحرير الفلسطينية ما تزال في المراحل الاولى من نموّها، ونظراً للظروف البيئية التي تعيش فيها ، فان المشكلات التي تتحدى الثورة كثيرة ومتنوعة . وسنحاول بحث بعض المسائل الاساسية العربية التي لها علاقة في تمكين الثورة الفلسطينية أو اعاقتها عن تحقيق اهدافها الاستراتيجية والتي بحكم طبيعتها ، وبحكم سرعة تطور الأحداث تفرض نفسها في المقدمة دائماً ، والتي نرى أن من مصلحة الثورة الفلسطينية أن تبحث لها عن الاجابات الصحيحة «مبكراً» مستفيدة من خبرات شعوب العالم التي خاضت تجارب مشابهة ومن الخبرة المكتسبة في الوطن العربي .

١ ـ مسألة حماية ظهر الثورة : ان حركة المقاومة الفلسطينية كغيرها من حركات التحرير تتعرض باستمرار لمحاولات مضادة من الداخل والخارج ومن « الاصدقاء الالداء » و« الاعداء المحبين » ، وهي تواجه أكثر من غيرها من الحركات صعوبة تحديد «الداخل» و«الخارج» وسرعة دوران محوري الصداقة والعداء ، وهي مع هذا لا تستطيع في المرحلة الحاضرة ان تمارس عملها بعيدة عن هذا الجسم المتقلب . فهل تستطيع الثورة ان تحمي ظهرها على المدى الطويل ؟ هل تستطيع ان تقاوم الهجمات الداخلية ـ الخارجية المباشرة أو غير المباشرة ؟ هل تستطيع ان تمنع الدول « المضيفة للمقاومة » حالياً من الرجوع الى موقفها المعروف قبل سنة ١٩٦٧ ؟

٢ ـ مسألة القاعدة الجماهيرية العربية : ان الجماهير العربية خارج الساحة الفلسطينية كانت وما تزال تعيش (بوجه عام) في ظل الانظمة والمصالح التي

مارست عمليات الكبت ضد المقاومة قبل سنة ١٩٦٧ والتي عزلت الجماهير عن كل « احتمال مشاركة حقيقية منظمة » في مواجهة التحدي الصهيوني حتى على ارضها هي ، هذا بالاضافة الى أن الكتل الجماهيرية العربية ما تزال - بطبيعة الحال - تعيش الصراعات والتناقضات نفسها التي كانت قائمة قبل سنة ١٩٦٧ ، وبعدها (كما سيأتي تفصيله). فهل تستطيع المقاومة الفلسطينية أن تتجنب عزلها أو انعزالها عن الجماهير العربية ؟ وكيف ؟ وهل يمكن اخضاع التناقضات المحلية الأساسية لمصلحة التناقض الفلسطيني - الصهيوني[1] وهل ستتحرك (عربياً) في ظل فهمها واعترافها بهذه التناقضات أم ستظل مكتفية بالتحرك على سطح الواقع الجماهيري ؟

٣ - **مسألة دعم الثورة العربية** : لا شك ان حركة المقاومة بحد ذاتها تشكل مشاركة مهمة في « مشاريع » تغيير الواقع العربي وتشكل حلقة من حلقات تطوره التاريخي. فهل تستطيع الثورة الفلسطينية ان تقف عند هذا الحد من المشاركة ؟ بمعنى أن تكتفي بالمشاركة بوجودها ؟ هل تستطيع ان تقف عند حد « الأخذ » من القوى الثورية العربية دون أن تكون مستعدة تنظيمياً للعطاء ؟

٤ - **مسألة الدراسات والابحاث الطويلة الامد** : ان طبيعة المعركة الفلسطينية - الاسرائيلية وطبيعة المتغيرات التي تحكم سير هذه المعركة وسرعة تطور المجتمع والامكانات الاسرائيلية تجعل حاجة المقاومة الى الدراسات والابحاث المتعمقة والجادة والمستمرة امراً حيوياً وعنصراً أساسياً من عناصر التسليح. وهي (اي المقاومة) بهذا تواجه **مسؤوليات غير حربية** أكثر مما كانت تحتاج اليه حركات التحرير الأخرى. فهل تستطيع المقاومة الفلسطينية أن تواجه منفردة هذه المسؤوليات والتي تحتاج الى «قواعد آمنة» نوعاً بالاضافة الى المسؤوليات القتالية ؟

حماية الثورة والقاعدة الجماهيرية العربية

تعتمد حرب التحرير الفلسطينية كأية حركة جماهيرية ، على الجماهير في

---

(١) هذا لا يتعارض ابداً مع بديهية وجود تناقض عربي (عام) - صهيوني .

تغذيتها من ناحية وفي حمايتها من الضربات المضادة من ناحية أخرى . واذا كان هذا الافتراض سليماً من حيث المبدأ فانه في الوضع الراهن وفي هذه المرحلة التاريخية غير قائم تكنيكياً ، وعليه فان التسليم بصحته لا ينبغي ان يؤدي الى «تخيل» تحققه بصورة أوتوماتيكية . ان الجماهير العربية تستطيع أن تحمي الثورة الفلسطينية اذا توفرت الشروط الموضوعية لذلك وهي بصورة أساسية توفر القيادة الثورية وأخذها زمام المبادرة وتعميق مكانة التناقض العربي ـ الصهيوني (بالنسبة للجماهير) حتى تقرب من «الرئيسية».

ان الساحة الفلسطينية كميدان عمل تختلف عن الساحات العربية بشرياً واقتصادياً وسياسياً ، ولذا فان محاولة اخضاع الواقع العربي بكل ثقله وابعاده لحيثيات الساحة الفلسطينية (في الوقت الحاضر) تشكل نظرياً ، فهماً خاطئاً لطبيعة القوى المحركة في المنطقة ، وعملياً ، مجهوداً ضائعاً لكبت عوامل ومظاهر الصراع التاريخي الدائر في مختلف البقاع العربية . وحتى اذا نجحت مثل هذه المحاولات فانها ستؤدي الى تحكم القطاعات الطبقية نفسها التي كانت وما تزال صاحبة المصلحة في استمرار الوضع السائد حالياً في الوطن العربي ، في الوقت الذي اسقطت فيه حرب حزيران عملياً كل العلل والاعذار التي كانت تلجأ اليها من أجل كبت الصراعات المحلية العربية . واذا كان التناقض مع القوى الصهيونية على الصعيد الفلسطيني هو التناقض الرئيسي ، وبالتالي فان الصراع في هذه الساحة يجب أن يكون موجهاً في هذه المرحلة ضد التناقض الرئيسي وبقيادة منظمات تعمل لصالح الجماهير المسحوقة ، فهل ينطبق هذا الحال على الساحات العربية الاخرى ؟ إن الواقع العربي يؤكد انه ليس كذلك[١] . قد يصبح مستقبلاً هو التناقض الرئيسي[٢] (في حالة سيطرة اسرائيل على مساحات أخرى من البلاد العربية مثلاً) . وهو الآن أكثر رئيسية مما كان قبل حزيران سنة ١٩٦٧ بالنسبة لمصر وسوريا وبالطبع الأردن . وهذا ما يتوجب على المقاومة الفلسطينية أن تدركه . **انها لا تستطيع ان تفتعل أو تتخيل «رئيسية» هذا التناقض ولكنها بالتأكيد تستطيع بالاشتراك مع القوى**

---

(١) في الوقت الذي اكتسحت فيه القوات الاسرائيلية ثلاث دول عربية فان الحياة في العواصم العربية ما تزال محتفظة ببريقها أما الارياف فبقيت على حالها غارقة في الظلمة الأبدية .

(٢) لسنا هنا بحاجة الى تأكيد الخصائص الديناميكية لأي نظام من التناقضات .

الثورية العربية ان تعمّق مكانته وتحوله الى تناقض رئيسي . (انّ احد الانجازات التاريخية المهمة التي حققتها حركة المقاومة بقيادة فتح سنة ١٩٦٧ ، انها كانت أحد العناصر الرئيسية التي أدت الى تعميق التناقض العربي ــ الاسرائيلي فجعلته تناقضاً رئيسياً الى الدرجة التي اصبحت فيها جماهير الشعب الفلسطيني مواجهة باللابديل) . ان الرجوع الى تاريخ القضية الفلسطينية وتاريخ العمل العربي لحل هذا التناقض يؤكد استنتاجنا السابق ذلك ان هذه الحقيقة هي من أحد الأسباب الموضوعية التي أدت وتؤدي دائماً الى فشل العمل العربي لحل المسألة الفلسطينية طوال الاربعين سنة الماضية . فحتى سنة ١٩٤٨ وبسبب الاسلوب الذي اتبع في عملية الاستيطان الصهيوني في فلسطين[١] لم تشعر الجماهير العربية [خارج فلسطين وحتى (على درجة أقل) جزء من الجماهير الفلسطينية] « بوطأة الاحتلال » و« حرارة التناقض الجديد » الذي كان في مراحل نموه المبكرة ... أو بعبارة أخرى لم يكن تناقضاً حقيقياً (معاناة وادراكاً) تعاني اثاره الجماهير ، ناهيك عن كونه رئيسياً . ولذا كان رد فعل الجماهير العربية حتى عام ١٩٤٨ مجرد تعاطف لاسباب مختلفة معروفة . وبعد قيام اسرائيل اصبح الاحتلال الصهيوني تناقضاً رئيسياً بالنسبة للشعب الفلسطيني ،غير ان عدم وجود القيادة الجماهيرية الواعية وتحكم زعماء الاقطاع والهيئات الدينية وما شابه ... بالاضافة الى اسباب ومؤثرات عربية وعالمية أدى الى التلاشي التدريجي لحدة التناقض . اما بالنسبة للجماهير العربية فان قيام اسرائيل وطرد السكان العرب لم يغيرا جذرياً من نظام القوى المتحكمة بها أو من نمط التناقضات التي تعيشها[٢] ، بل ان بقعة كشرق الأردن (آنذاك) تمتعت بنوع من الانتعاش النسبي بتأثير الأموال والخبرات التي تدفقت مع القادمين الجدد وباسمهم . غير ان نشاط المقاومة أحالت الاردن بكاملها الى منطقة صراع رئيسية مع الاحتلال الصهيوني وهكذا يترتب على المقاومة الفلسطينية (بل في الحقيقة لا بديل امامها) ان تبني توقعاتها وتصمم استراتيجيتها على هذه الأسس الموضوعية . ولكي

---

(١) لم تتبع المؤسسة الصهيونية أساليب العنف (مثل المستوطنين الامريكيين) ضد السكان العرب ولم يلجأ الى الاصطدام بهم أو مصادرة مواردهم الاقتصادية او تشريدهم بل على العكس اتاحت لهم فرص عمل جديدة كان من شأنها ان خففت من « حرارة » العملية (حتى سنة ١٩٤٨).

(٢) تحكم الاقطاع التقليدي أو المقنع في الأرياف والبيروقراطيات العسكرية والبرجوازيات الصغيرة المستفيدة من الطرفين في المدن .

تستطيع ان تحقق عملياً «فوضية العمق الاستراتيجي عربياً »، عليها ان تعمل بصورة منظمة ومدروسة على دفع التناقض العربي ـ الصهيوني الى المكانة الأولى في نظام التناقضات القائمة وبذا تصبح الجماهير العربية مؤهلة لدوري التغذية والحماية .

ان عدم تواجد المقاومة فيزيائياً في اعماق الوطن العربي (أي مراكز ثقل التجمعات الجماهيرية) ، وعدم مقدرتها على تغيير نظام التناقضات (من باب عدم الأهلية وعدم الاختصاص) ،ولتحقيق الشروط الموضوعية المتقدمة ، هذا كله يجعل الثوريين العرب (وهم مؤهلون مبدئياً لذلك) الحليف الاستراتيجي الوحيد والطبيعي في مثل هذه الظروف .لقد كانت احدى نتائج حرب حزيران ان اتاحت للمقاومة الفلسطينية فرصة أخذ زمام المبادرة «بعد ان كسرت ابواب السجن » ، واذا لم تقم المقاومة خلال الثلاثين شهراً الماضية التي تلت حزيران باية مبادرة جوهرية لاسباب تتعلق بها من حيث النشأة والنمو والاستعداد ، فان استمرار هذا الوضع وفي ظل المناورات المتعددة والجريئة التي يمارسها العدو ،وبعض الأنظمة العربية ،له اثره الخطير على مستقبل الثورة العربية والمقاومة الفلسطينية. ان على المقاومة الفلسطينية أن تختار بين أصدقائها الحقيقيين وللمدى البعيد واعدائها الحقيقيين للمدى البعيد كذلك . ولا نعني بالاختيار هنا ان يكون اختياراً اعلانياً عرائسياً من ناحية او تشهيرياً فضائحياً من ناحية أخرى ـ كما هو سائد في الواقع العربي ولدى الأنظمة العربية ـ ،وهذا الاختيار لا بد أن يكون واعياً تسبقه وتستتبعه دراسات وتعديلات في المواقف الاستراتيجية والفكرية والتنظيمية . ولا يمكن أن ينجح مثل هذا الاختيار ويؤدي الى نتائج تغني الثورة وتزيد من خصبها اذا كان منبثقاً عن اقتناصات تكتيكية أو تنازلات فوقية من جانب المقاومة أو القوى العربية . ان مثل هذا التحالف مؤهل لأن يكون واسطة التحام أساسية بين الجماهير العربية والثورة الفلسطينية ويدعو الى قيام تنسيق ديناميكي انتاجي بين المقاومة الفلسطينية والثورة العربية تفهمان فيه معاني بلورة المفهوم النظري للثورة وفي الدعم العلمي لها . ان يدعو الى اسقاط نظريات «ماذا يسبق ماذا [١]» التي كانت محور العمل العربي السياسي في السنوات

(١) من البديهي انه ليس المقصود هنا اغفال قاعدة «الأولويات» ،غير ان مفهوم هذه القاعدة في العقلية التنظيمية العربية كان ـ ولا يزال ـ يتسم بمعاملة اجزاء النظام System الذي يجب ان يعطى أحد اجزائه أولوية ما وكأنها عناصر Elements منفصلة عن الاجزاء الاخرى وعن النظام بكامله . ولذلك لجأنا الى استعمال عبارة « ماذا يسبق ماذا » للتفريق .

الماضية وكذلك أساليب الهروب من الصعب الى الاكثر سهولة وأمناً .

غير ان هذا التحالف لن يكون محققاً لاهدافه الاستراتيجية اذا استمر على شكله الفردي ،الذي قد تكون نواته موجودة حالياً ، ولا بد ان يقوم (أو يتحول) على أساس مؤسّسي وضمن « برامج عمل محدودة وواضحة ومتناسقة » . ولا تستطيع المقاومة ـ وليس من صالحها أن تفعل ـ ان تحول الساحة الفلسطينية ذاتها الى ميدان يجتمع فيه كل الثوريين العرب بكل امكاناتهم واستعداداتهم . وبمعنى آخر فان «تفرغ» الفئات الثورية العربية بكاملها للعمل الفلسطيني ،عدا عدم امكانية تنفيذه،يترك ظهر المقاومة مكشوفاً . ان مجال وميدان عمل الثوريين العرب هو في البلاد العربية . ان البديل لنظرية «التفرغ» هو ان الثوريين الفلسطينيين يعملون لحل التناقض في الساحة الفلسطينية ، وان يعمل الثوريون العرب في مراكز الثقل الجماهيرية العربية كمؤسسات متحالفة مع المقاومة وتكون مهمتهم تثوير المنطقة لحل تناقضاتها الرئيسية (وهذا هدفهم الاساسي كثوريين عرب) بتنسيق متبادل مع قوى المقاومة وعلى برامج متفق عليها . بهذا التثوير المنسّق فقط تستطيع المقاومة تحقيق فرضيتها الاستراتيجية وهو أن « العمق الاستراتيجي للثورة الفلسطينية يتمثل في الجماهير والاراضي العربية » . وفي الوقت نفسه تشارك الثورة الفلسطينية في حل التناقضات العربية عن طريق دعمها للمؤسسات الثورية العربية العاملة معها دون أن تصرفها عن هدفها الأساسي ومهمتها الرئيسية .

وحتى يمكن قيام مثل هذا التحالف فان على قوى المقاومة الفلسطينية ان تنفض عن نفسها الغبار الذي خلفته العشرون سنة الماضية في الذهنية العربية وان تسعى الى التخلص من عقد الفشل التي رافقت التنظيمات العربية . **ان عليها ان تعيد تقييم مرتكزاتها الايديولوجية ـ ان وجدت ـ وان تبحث عن مرتكزات خالية من التعميات والديماغوجيات تؤهل الانسان الفلسطيني فكراً وممارسة ، للامتزاج بالانسان اليهودي في دولة فلسطينية تقدمية .** لا تستطيع المقاومة ان تقيم تحالفاً مثمراً اذا استمرت تعيش في فكرها اللامتميز معتمدة على الترصيعات والاقتباسات والاستعارات غير المتجانسة لأنها بذلك تقع في الاخطاء نفسها التي وقعت فيها بعض القوى الثورية العربية خلال العشرين عاماً الماضية . وبعبارة اخرى إن شرط نجاح هذا التحالف هو أن تتحول فصائل المقاومة من مؤسسات قتالية الى مؤسسات ثورية او ان تتحول

المقاومة من مشروع ثورة الى ثورة [١].

دعم الثورة العربية

ان دعم المقاومة الفلسطينية للقوى الثورية العربية (وهو كما رأينا سابقاً دعم متبادل) شرط أساسي لتنشيط عملية التفاعل بين الجماهير العربية والمقاومة من جهة ، وبين الجماهير العربية وطلائعها الثورية من جهة أخرى وهو أساسي كذلك لالغاء دور الوساطة الذي تتولاه المؤسسات العربية التقليدية بين المقاومة والجماهير العربية . ونظراً لطاقة الحركة التي تتمتع بها قوى المقاومة في الظروف الحالية ونظراً لممارستها القتالية (وشبه الثورية) المتواضعة ونظراً للعطف الجماهيري الذي ما تزال تتمتع به ،فانها مسؤولة (لصالح المقاومة نفسها ولصالح الثورة العربية) عن اعطاء دفعة البدء للثوريين العرب (وواضح أن المقصود هنا تولي مسؤولية العمل نيابة عن الثوريين العرب بقدر ما هي تبادل الخبرات من خلال تنظيمات متحالفة) . ولعل في تحليلنا المتقدم للعلاقة بين المقاومة والقاعدة الجماهيرية العربية ما يكفي لتغطية هذه المسألة في هذا المجال .

الدراسات والابحاث

سبق أن ذكرنا أن احتياج حركة المقاومة الفلسطينية الى الدراسات والابحاث الطويلة الأمد يفوق احتياج حركات التحرير المعروفة . ذلك ان نوعية الحل المنشود [٢] يمكن اعتباره من الحلول المعقدة « هندسياً » من ناحية ، وان العدو الصهيوني يتمتع بمقدرة تكنيكية عالية تتميز بالتطور المستمر . وعليه فان هذا الدراسات تنقسم الى قسمين أساسيين :

أ ـ دراسات اقتصادية ـ سياسية ـ اجتماعية .

ب ـ دراسات وابحاث علمية تطبيقية .

---

(١) غني عن التعريف أن مثل هذا التحول لا يتم برفع الشعارات او باعلان التحالفات الاسمية .. الخ ولا يتم ارتجالاً .

(٢) اقامة دولة فلسطينية تجمع العرب واليهود .

أما القسم الاول فيجب أن يتناول الواقع العربي والشخصية العربية لتلمّس نقاط الضعف الخطيرة والمزمنة التي استفحلت في هذا الواقع (بما فيه الشخصية العربية) ولدراسة تطور هذا الواقع مع الزمن من جهة ، ومن جهة اخرى ان يتناول موضوعياً دراسة المؤسسة الصهيونية ودراسة المجتمع الاسرائيلي الذي يتغير بسرعة تحتاج الى المتابعة المستمرة لتحقيق آنية [١] المعلومات لدى المخطط والمنفذ الفلسطيني والتي يفتقدها المخطط العربي بوجه عام .

وكما هو معروف فان نتائج مثل هذه الدراسات تعتمد الى حد ما على القواعد الايديولوجية المستخدمة في تحليل المعلومات ، واستنباط صيغ تنفيذية من النتائج يعتمد ايضاً على هذه القواعد ، وعليه فان اسناد مثل هذه الدراسات الى فئات يمينية وغير تقدمية سيؤدي بطبيعة الحال الى نتائج هزيلة تضر بمصلحة الثورة وتتيح للعدو فرصة أكبر للتفوق . والمكتبة العربية غنية بالامثلة خاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية . كذلك فان اختيار المخطط للدراسات «المتوفرة» يعتمد الى حد ما على «تقبـله» الايديولوجي ، الامر الذي يؤثر مرة اخرى في الصيغ التنفيذية. ومن هنا تبرز أهمية تحديد المرتكزات الايديولوجية للمقاومة الفلسطينية **فهي ليست « للترف الذهني » و« المتعة الثقافية » .. الخ . وانما هي ضرورة للتقييم وضرورة للاختيار وضرورة للتخطيط** . ولعل عدم الوضوح الفكري لدى بعض فصائل المقاومة هو الذي يدفعها الى الاقتباسات الشعارية التي كثيراً ما تكون متناقضة ، أو التضمينات العبارية « الرائجة » التي تفتقر الى بيئتها التحليلية الصحيحة .

أما القسم الثاني من الدراسات فيتعلق بالابحاث التكنولوجية والتي تحتاج اليها المقاومة لكي تواجه العدو المتفوق تكنولوجيا وتكيّف نفسها ومعداتها حسب اساليبه المتجددة دائماً ... ومثل هذه الابحاث تتيح للانسان العربي فرصة للممارسة والابتكار وترفع الكفاءة التكنيكية للفلسطيني (المشترك بها) والتي ستكون ضرورية بعد انتهاء مرحلة التحرير ، بل ستكون إحدى الضمانات

---

(١) اي أن تكون المعلومات صحيحة في حين استعمالها ولم تتحول بعد الى « معلومات في ذمة التاريخ » . وهذا على جانب كبير من الأهمية كما هو واضح . ولا يزال المخططون العرب ينظرون الى اسرائيل كأنها لا تزال في عام ١٩٤٨ وبعضهم يفترض انها في عام ١٩٩٠ ستكون كما هي الآن.

الرئيسية لعدم عودة العناصر الصهيونية للتحكم في المنطقة من جديد وعن طريق الكفاءات العلمية .

ان المقاومة الفلسطينية بامكانياتها البشرية والعلمية وبالظروف التي تمر بها لا تستطيع القيام بهذه المهات منفردة ولا تستطيع مجاراة العدو بأبحاثه وتطبيقاته التي يستخدمها بدأب ونشاط . وهنا لا بد للمقاومة ان تتعاون مرة أخرى مع القوى الثورية العربية للقيام بمثل هذه الدراسات (ولسنا بحاجة لتبيان موقف المؤسسات العربية الرسمية في هذا الصدد) وهي لا تستطيع ان تفعل ذلك باتفاقات فردية خاصة في الدراسات الطويلة الأمد والتي تحتاج الى وسائل خارجة عن امكانية الفرد . ان التحالف المؤسسي بين المقاومة والقوى العربية الثورية « والتي لها قواعدها الآمنة » هو الأسلوب الأمثل لمواجهة المتطلبات الدراسية التي تقتضيها الحرب والتي تشكل عنصراً مهماً من عناصر مواجهة العدو . عن طريق هذا التحالف وحسب تستطيع المقاومة ان توسع قواعدها العلمية .

الخلاصة

لقد ساعدت حرب حزيران على تعميق مكانة التناقض العربي ـ الصهيوني في نظام التناقضات القائم في الواقع العربي وخاصة في الدول المحيطة بفلسطين . غير انه (باستثناء جماهير الشعب الفلسطيني والأردني) لم يصل الى المكانة الرئيسية لدى الجماهير العربية الأخرى التي ما زالت تعيش وتمارس صراعاتها التاريخية المحلية والتي لم تتأثر جذرياً بنتيجة الحرب . وبتحليل العناصر الأساسية لاستراتيجيات وأهداف القوى الصهيونية والامبريالية والقوى الثورية العربية وقوى المقاومة الفلسطينية نجد أن قوى المقاومة تستند الى بعض الفرضيات الاستراتيجية غير القائمة تكنيكياً من ناحية ،وتمارس عملها في بيئة « قلقة » ما تزال القوى التقليدية تلعب فيها الدور الرئيسي من ناحية ثانية . وهي (أي المقاومة) لكي تحقق تلك الفرضيات عملياً ولكي تواجه العدو بكل اهدافه وامكاناته وحتى تتمكن من الاستمرار والنمو في هذه البيئة القلقة لا بد لها من ان تبحث عن حليف

لا تتعارض مصالحه الاستراتيجية مع مصالح الجماهير العربية وهـــذا الحليف هو القوى الثورية العربية . لا بد لهـــا ان تتحالف معها كمؤسسات تقدمية تعمل على تثوير المنطقة لصالح الجماهير العربية ولحل تناقضاتها الرئيسيـــة في مراكز تجمعها معمقة بذلـــك مكانة التناقض العربي ـ الصهيوني الأمر الذي يعتبر شرطاً موضوعياً لتحقيق التلاحم الديناميكي بين المقاومة والجماهـــير العربيـــة وبحيث يؤدي هذا التحالف الى خلق نظام انتاج متعدد المحاور منسق البرامج بين الثورة العربية والمقاومةالفلسطينية . وهذا بدوره يتطلب من المقاومة أن تبحث عن نفسها فكريـــاً لا لغرض « الانتماءات الفخرية » وانمـــا لايجاد قواعد علمية تصلـــح أساساً للبحث والتخطيط والتنفيذ ، آخذة بعين الاعتبار ان الدولة الفلسطينية التقدمية العلمانية تتطلب اعداداً خاصـــاً ، فكراً وممارســـة ، للانسان الفلسطيني ومثل هذا الاعداد يحتاج إلى سنوات وسنوات من «التجربة والخطأ» ويجب ان يسير جنباً الى جنب مع الكفـــاح المسلح . ان على المقاومة ان تتحول من مؤسسات قتالية الى مؤسسات ثورية .

ابراهيم بدران

شفيق الحوت

اسئلة واجوبة حول بعض قضايا الثورة الفلسطينية

السؤال الاول

* تتردد في اذاعات بعض فصائل المقاومة الفلسطينية وبعض نشراتها شعارات وتعابير دينية يوحي ترددها بان الثورة الفلسطينية هي في بعض جوانبها على الأقل، ثورة دينية. كيف توضحون هذه الظاهرة، وما هو موقفكم منها، وكيف تحددون صلة الثورة بالدين، ان كنتم تعتقدون بهذه الصلة ؟

الهوية النهائية للثورة

ـ قبل الاجابة عن السؤال، لا بأس من توضيحه. فأنا من الذين يؤثرون التصريح على التلميح ما استطعت الى ذلك سبيلاً. ان للثورة الفلسطينية اذاعتين هما اذاعة منظمة التحرير الفلسطينية وصوت فتح. ومن هنا نستنتج ان السؤال يستهدف بالذات صوت فتح، لان اذاعة المنظمة تخضع في توجيهها النهائي لقيادة المنظمة المنبثقة عن مجلس وطني فلسطيني يجمع بين كل المنظمات الفلسطينية (باستثناء واحدة) على ما بينها من تباين وربما تناقض في تطلعاتها الفكرية ونظرياتها الفلسفية والاجتماعية هذا اذا جاز لنا أن نعتبر المحتويات الفكرية لهذه التنظيمات وصلت المستوى الذي يمكن تسميته بـ « النظرية ». أما

«صوت فتح» فيخضع لمنظمة «فتح» ومنهجها الخاص في التفكير السياسي، وبالتالي يمكن اعتباره صوتاً عاكساً لمعتقدات«فتح» ونظرتها الشاملة للحياة. ولأعترف، قبل الاجابة عن السؤال، انني لم الحظ ما يبدو أن «مواقف» قد لحظته من ترداد للشعارات والتعابير الدينية في «صوت فتح»، بالشكل الذي يستدعي اثارة هذا الموضوع. فاستهلال برامج الاذاعة ببعض آيات من القرآن، أو اذاعة بعض أناشيد أو أغنيات تحمل بعض التعابير الدينية، لا يعني أبداً ان الثورة التي يعكسها هذا الصوت هي ثورة دينية على الاطلاق. ولا أظن ان «فتح» أو غيرها من المنظمات المقاتلة وذات الوزن في الساحة الفلسطينية تنهج في مسيرتها منهجاً دينياً أو طائفياً على الاطلاق. ومن الطريف ان نلاحظ بيانات بعض المنظمات ذات التوجه الماركسي مستهلة بـ «بسم الله الرحمن الرحيم». واني أميل الى الاعتقاد ان فتح وغيرها تعتبر الدين منارة من منارات الفكر الانساني، وتراثاً حضارياً لا يمكن انكاره ولا انكار آثاره على الجماهير العربية، وبالتالي فهي تستثمر هذه الطاقة الروحية لدفع الروح المعنوية على طريق القتال. ولا يجوز لنا ان ننسى او نتناسى بان الهدف الاساسي للثورة الفلسطينية هو تحرير الأرض الفلسطينية قبل أن تكون ثورة اجتماعية تستهدف تغيير وجه مجتمع معين وقلب مقاييسه ومفاهيمه الاجتماعية والاقتصادية. ولو نظرنا الى ثورة الجزائر، بل وثورة كوبا، فاننا نجد بانه على الرغم مما نسب الى الأولى من هوية دينية وللثانية من هوية رومانسية، فان الاثنتين انتهتا الى غير ما نسب اليهما. وهذا يدلنا على حقيقة نضالية مادية، بان الذي يصنع النصر – الجماهير – يقرر بالنهاية وضمن قوانين التطور العلمي لحركة المجتمع الهوية النهائية للثورة. أختتم الجواب بحكاية طريفة حول أغنية وطنية اذيعت ذات يوم من «صوت فتح». ومن سوء حظي – في هذه المناسبة – ان كلماتها لا تحضرني، ولكني أذكر أنه كان فيها من كل شيء: من اليسار واليمين. وكانت النتيجة ان هوجمت تلك الاغنية من بعض اليساريين الجدد، كما هاجمها ملك عربي مسلم لدرجة انه اوردها سبباً للتهرب من الاستمرار في دفع بعض المال لفتح. «فتح» هي تجمع وطني عريض يركز على قضية التحرير الوطني، والحقيقة ان المسؤولية في تقييم ما يصدر عنها لا يعكس حقيقتها وحسب، بل يعكس في الوقت نفسه حقيقة الذي يقيمها.

السؤال الثاني

* الثورة الفلسطينية عربية الهوية والبعد والمعنى وان كانت فلسطينية المنطلق والاطار ، أي انها جزء من الثورة العربية الشاملة. هذا يجعل مجابهتها للانظمة العربية القائمة أمراً لا مفر منه. كيف تنظرون الى احتمالات هذه المجابهة ونتائجها ؟

الثورة والانظمة

– كما في السؤال الأول ، اجد نفسي مرة أخرى ملزماً بالتدقيق بالسؤال بل استجوابه لان الطريقة التي طرح بها ليست طريقة موضوعية وتحمل من الايحاء والمغالطة ما لا بد لي من التعليق عليه . فاذا كانت الثورة الفلسطينية كما وصفت في السؤال ، وهي كذلك ويجب ان تتأكد هويتها هذه ، فلماذا يفترض السؤال حتمية المجابهة بينها وبين الأنظمة العربية ؟ هذا من ناحية ، ومن ناحيـة اخرى اليس من المغالطات الكبرى – موضوعياً – اعتبار الانظمة العربية القائمـة متشابهة في موقعها من الثورة الفلسطينية والثورة العربية الشاملة ؟ واذا كانت « مواقف » ترى في الأنظمة القائمة في العربية المتحدة وسوريا والعراق وليبيـا والسودان والجزائر واليمن الجنوبية نفس ما تراه من الانظمـة في الدول العربية الأخرى ، فمن أي ثورة عربية يتحدث السؤال ؟

ربما تجيب « مواقف » بانها تتحدث عن ثورة عربية محتملة او كامنة . فاذا كان كذلك فكيف تريد منا أن نجيب عن السؤال دون ان تحدد مفهومها لتلك الثورة غير المنظورة . او على الاقل كان على « مواقف » ان تشير الى خط ما من الخطوط الثورية المطروحة في الساحة حتى نعرف كيف نقيم الحوار .

بعد هذا لا يبقى لي من مجال كبير للرد على السؤال باعتباره غير مستقيـم على أسس موضوعية سوى القول بانني – على ضوء الواقع والموجود – ارى ان الثورة الفلسطينية تتكامل – كجزء من الثورة العربية – مع بعض الانظمـة وتتناقض مع أخرى . وليست المجابهة محتمة الا ضد الانظمة المتواطئة – بحكم تكوينها مع الامبريالية العالمية ، وخصوصاً مع امريكا .

أما نتائج المجابهة فهي من غير شك ، وبحكم منطق حركة التاريخ ، ايجابية والى جانب الثورة .

السؤال الثالث

* هل بدأت تتكون بوادر نظرية ثورية خاصة بالثورة الفلسطينية ، وهل لكم ان تحددوا عناصرها الأساسية او تكشفوا لنا عن منحاها العام ؟

ثورة يسارية

ـ الثورة الفلسطينية ، كما اشرت ، هي ثورة تحرير لوطن مغتصب . وهي لذلك تجمع حولها اعرض قاعدة شعبية ممكنة ، بغض النظر عن المدى والعمق الذي يمكن ان تشارك به هذه الفئة أو تلك ، او هذه الطبقة أو تلك . مع ايماني الخاص بان الطبقة الفقيرة هي أكثر الطبقات عطاء وتضحية في هذه الثورة . الامر الذي ــ وبسبب الوعي الاجتماعي الذي يسود المنطقة ــ سيترك بصماته على أي محتوى فكري أو اجتماعي للثورة الفلسطينية . واذا ارتضينا استعمال التعابير السياسية الشائعة بشكل عام ، فان الثورة الفلسطينية ــ حكماً ــ ثورة يسارية . فهي بطبيعة العدو الذي تتصدى اليه معادية للاستعمار ــ ، معادية للصهيونية العنصرية ، معادية للرجعية العميلة . وبالتالي فهي ثورة تقدمية وطنية . واذا توخينا الامانة في تقييم ما هو قائم الآن في الثورة الفلسطينية من الناحية الفكرية ، فلا يمكننا الزعم باننا تجاوزنا مرحلة الحوار والصراع الذي يجري فوق ارضية ساخنة من الكفاح المسلح . ولا شك ان الثورة الفلسطينية ستخرج بتجربة ثورية خاصة شبيهة بالتجربة الجزائرية ، بمعنى ان التجربة لن تخرج بها عن الاطار العربي العام للثورات التي شهدتها المنطقة العربية في السنوات الأخيرة . ستكون التجربة الفلسطينية في الوطن العربي ، كتجربة كوبا وكوريا او فيتنام في العالم الشيوعي ، ولا اتصور انه بقدرة أي فصيلة ثورية فلسطينية ان تخرجها عن اطارها القومي .

السؤال الرابع

* كيف تنظرون الى طبيعة الصلة بين حركة المقاومة الفلسطينية وحركات التحرر الأخرى في العالم ، وما هي الاسس التي تعتمدونها لتوثيق الارتباط والتفاعل بين الثورة الفلسطينية والثورات التحررية في العالم ؟

ـ لقد اعلنت حركة المقاومة الفلسطينية ، بجميع فصائلها ، بانها جزء من حركة التحرر العالمية ، وربطها بالشعوب المناضلة من اجل حريتها واستقلالها روابط الرفقة بالسلاح ضد العدو الواحد ذي الوجوه والاقنعة المتعددة . وهناك من فصائل الثورة الفلسطينية من اورد هذا الكلام في مواثيقها ودساتيرها . وهذا بالطبع أمر طبيعي ومنطقي . وليس سراً ان صلات وطيدة تقوم اليوم بين حركة المقاومة الفلسطينية وحركة التحرر العالمي سواء على الصعيد القتالي حيث الزيارات المتبادلة والتدريبات المشتركة ، أو على الصعيد السياسي والاعلامي حيث اللقاءات المستمرة على مستويات ثنائية وجماعية . فحركة المقاومة تشارك رسمياً في مؤتمر الشعوب الآفرو ـ آسيوية ، كما تشارك في مؤتمر القارات الثلاث ، وأخيراً تم الاعتراف بها بين مجموعة دول عدم الانحياز . هذا بالاضافة الى الاتصالات المستمرة لتوطيد مثل هذه العلاقة مع القوى التقدمية والثورية في أوروبا الغربية وامريكا الشمالية ، التي بدأت تبدي مزيداً من الاهتمام والتفهم لقضية الشعب الفلسطيني .

السؤال الخامس

★ تشدد بعض الاتجاهات المرتبطة بانظمة عربية معيّنة على خطر ما تسميه بالقطرية في العمل الفلسطيني . هذا التشديد يفترض من هذه الاتجاهات وهذه الانظمة انها تقوم بالممارسة الوحدوية على مختلف المستويات وهذا غير حاصل في الواقع العملي الملموس . كيف تعللون هذا الرفض للقطرية ، الذي لا ترافقه ممارسة وحدوية حقيقية ؟ وكيف تحددون وضع الثورة الفلسطينية بين القطرية والوحدوية ؟

القطرية والوحدوية

ـ مرة ثالثة لا بد من تسجيل الملاحظة نفسها ، بان السؤال يحمل بين طياته الايحاء الممهد لجواب ، يصبح معروفاً ومنتظراً . لذلك لا بد لكي يستقيم السؤال موضوعياً من الاشارة بان موضوع «القطرية» و«الوحدوية» قد طرحه ، بالاضافة الى من أشار اليهم السؤال ، مناضلون وحدويون يستهدفون بالفعل تحذير الثورة الفلسطينية من الوقوع في المنزلق الاقليمي ، بعد أن اصبح مثل هذا الوقوع شبه حتمية ثورية في الوطن العربي . أما أن يقول البعض غير ما يمارسون ، فهذه شيزوفرينيا سياسية شائعة في نضالنا السياسي بغض النظر عما نحمل من

هويات ايديولوجية وسياسية . وهي أيضاً مأساة قومية وقضية يجب التركيز على كشفها لان الاقليمية الجديدة ، بغض النظر عن محتوى النظام الذي تتبناه ، هي في النهاية خصم للحركة الوحدوية وتقف منها موقف التناقض الذي سيشتد أكثر وأكثر مع الأيام .

أما بالنسبة للثورة الفلسطينية فلا خوف عليها لعدة أسباب منها :

أولاً : رفض العدو الاسرائيلي لخصومة الشعب الفلسطيني وحسب ،وتجاوز ذلك للأمة العربية ككل . هذا اذا لم نعكس الكلام ونضعه في صيغته الايجابية بان هذه هي نظرة الامة العربية للعدو .

ثانياً : لان طبيعة الثورة الفلسطينية تفرض ـ موضوعياً ـ على الجوار العربي أن يكون في المعركة وان يتأثر بنتائجها سلباً وايجاباً .

ثالثاً : لان شعب فلسطين ، بعد مأساة ٤٨ انتشر في الوطن العربي وحيث لم يتوافر الـكمّ الفلسطيني توافر النوع ، الامر الذي ربط الأمة ، او زاد ربط الامة العربية بهذه القضية .

رابعاً : لان شعب فلسطين ، تاريخياً ، لم يرفع راية نضالية اقليمية على الاطلاق ، وكما شارك في ثورات اشقائه ، افسح المجال الرحب لهؤلاء الاشقاء للمشاركة في ثورته ، بل في قيادة هذه الثورة أحياناً .

خامساً : لان الثورة الفلسطينية ، بقياداتها الجديدة ، المغايرة تماماً للقيادة التقليدية العشائرية التي قادتنا الى النكبة عام ١٩٤٨ ، تدرك حقيقة الدور الذي يمكن ان تؤديه كطليعة عربية ، وتدرك بالتالي الدور العربي الحاسم في هذه القضية .

ومن هذا كله ، نستنتج ان الثورة الفلسطينية ان لم تكن جزءاً من الثورة العربية ، أو المدخل الجديد لها ، فلن يكون في قدرتها ان تصمد وتستمر وتحقق ـ بالتالي ـ الاهداف التي قامت من اجل تحقيقها .

ان « الفلسطينية » اليوم هوية سياسية أكثر منها هوية اقليمية . ولولا متطلبات الضرورة الستراتيجية لاعلان رفضنا « للكيان الاسرائيلي » ولا سيما على المستوى الدولي لما كان يهم شعبنا كثيراً ان يشير الى « فلسطينيته » مكتفياً بهويته العربية .

السؤال السادس

* كيف تنظرون الى قيام جبهة ثورية واحدة عربية ـ يهودية تشترك فيها العناصر اليهودية التقدمية المعادية للصهيونية ، خارج اسرائيل وداخلها ، وهل تعملون لقيام مثل هذه الجبهة وكيف ؟

العرب واليهود والثورة

ـ عندما نتحدث عن العرب فاننا نتحدث عن شعب أو أمة لها مقومات الوجود القومي . فهل ينسحب هذا المفهوم على « اليهود » ؟ أي هل اليهود شعب أو أمة . أم ان اليهودية ليست سوى دين كأي دين آخر على وجه الكرة الارضية . فأنا اعرف مثلاً ان حركة المقاومة الفلسطينية تتعاون وتتعامل عبر جبهات ومؤسسات وأحزاب مختلفة مع اشخاص يدينون بشتى انواع الديانات ومنهم كذلك يهود . ولكن هؤلاء أنفسهم يقدمون أنفسهم لنا وللدنيا كلها بهوياتهم القومية كفرنسيين أو المان أو روس أو امريكان الخ .. ونذكر منهم على سبيل المثال المفكر مكسيم رودنسون ، والصحفية آنيا فرانكوس ، والحاخام بالمر وغيرهم كثيرون . اذن فالحديث عن عرب ويهود في جبهة واحدة ينطوي على خطأ في النظرة الأساسية لبعض الحقائق البديهية ، وهي محاولة لجمع ما لا يجمع . ففي كفة نضع قومية وفي كفة اخرى نضع عقيدة دينية . وهذا ـ بالنسبة الي شخصياً ـ غير مقبول . أما بالنسبة ليهود اسرائيل فالامر في رأيي أشد خطورة . لان اليهودي الذي وفد الى اسرائيل ، رغم وعيه للحقائق السياسية التي رافقت نشأة هذه الدولة ، فانه لا يمكن ان يكون تقدمياً أو ثورياً الا اذا ابتدأت تقدميته وثوريته بانكار هويته العنصرية ورفضه للكيان العنصري الذي فرض بالقوة والاغتصاب .

غير ان هذا لا يعني بالضرورة ان كل من ولدوا في اسرائيل ، أو من وفدوا اليها نتيجة للتضليل أو الاضطهاد يتحملون جميعاً مسؤولية الجريمة الكبرى . وقد يكون من بينهم من يمكن قبوله في حركة المقاومة الفلسطينية الهادفة لاعادة الحق في فلسطين ولكشف زيف المحاولة الصهيونية الكاذبة لحل ما يسمى بمشكلة اليهودي المضطهد . عندما نتكلم على اليهود او اليهودية ، نطرح

في المقابل المسلمين والاسلام ، والمسيحية والمسيحيين ، ولا يجوز ان نطرح مقابل ذلك العرب والعروبة . لان الاعتراف باليهود كأمة انما هو اعتراف باهم اساس من أسس الحركة الصهيونية العنصرية ، وبالتالي بداية الانحراف في مفهومنا التقدمي لثورتنا غير العنصرية .

السؤال السابع

* كيف تنظرون الى فكرة الدولة الفلسطينية الديمقراطية كحل لمشكلة فلسطين ؟

الدولة الفلسطينية الديموقراطية

ـ كان قيام دولة اسرائيل بقوة السلاح والاغتصاب والخديعة ، خطأ ارتكبته القوى الاستعمارية والعنصرية والرجعية بحق المسيرة التاريخية أكثر من أي شيء آخر . وكلنا يدرك ان أي حرف لمسيرة التاريخ عن مسارها الطبيعي المحكوم من قبل قوانين عامة لا تتغير ، انما يفرض حتماً قيام الثورة كأداة لتصحيح الخطأ والعودة بحركة التاريخ الى مسارها الطبيعي . من هنا فان فكرة الدولة الفلسطينية الديمقراطية تؤمن تصحيح هذا الخطأ . فهي تعيد فلسطين الى الوجود ، فلسطين الأرض والاسم والتاريخ . كذلك تعيد فلسطين الشعب . الشعب بتكوينه التاريخي الذي جاء نتاجاً طبيعياً لحركة التطور الاجتماعي في تلك البقعة من الدنيا عبر آلاف السنين . يبقى بعد هذا قضية انتماء هذه الدولة الفلسطينية الديمقراطية . وهو موضوع حساس ومهم يثيره اعداء هذه الفكرة بين فترة واخرى بقصد استفزاز الثورة الفلسطينية والرأي العام العربي بشكل عام . كما قلت في بداية جوابي ان زوال الكيان الاسرائيلي ، واعادة الكيان الفلسطيني انما هو تصحيح لمسيرة التاريخ . ومن الطبيعي اذن ، مع اعادة هذا الكيان الى الوجود ، ان نعيد معه علاقاته وانتماءاته الطبيعية والتاريخية . اذ لا يمكن ان تكون فلسطين ـ كاسرائيل الآن ـ جسماً غريباً في المنطقة أو امتداداً للحضارة الغربية في قلب المنطقة العربية . فهوية فلسطين الديمقراطية وانتماؤها لا يمكن ان يكون خارج الحيز الجغرافي والتاريخي الذي نحيا في اطاره . وأي حديث عن تفصيلات الاجهزة في الدولة الفلسطينية المذكورة يبقى

في رأيي هامشياً وغير مهم اذا ما اتفقنا على المبادىء الاساسية وحلنا بينها وبين أي تناقض مع قوانين حركة التاريخ العامة .

السؤال الثامن

* هناك شبه اجماع على نقص التنظيم في حركة المقاومة . نعتقد بالاضافة الى ذلك ، بان النقص الاساسي في هذه الحركة، هو انعدام او غموض المنظور السياسي - الايديولوجي العام . ذلك ان التنظيم لا يتم ولا يكمل الا وفقاً لوضوح هذا المنظور . ان كنتم موافقين ، فكيف تحددون هذا المنظور ؟

المقاومة والايديولوجية

- اذا كان المقصود بالمنظور الايديولوجي ، ان يكون لحركة المقاومة نظرية متكاملة تتناول نظرتها الواضحة لجميع ظواهر الحياة ، ابتداء من كيفية نشأة الحياة في الكائن ذي الخلية الواحدة ، وانتهاء بوجود او عدم وجود الله ، فانا طبعاً من غير الموافقين على ضرورة ذلك . اما اذا كان المقصود بالمنظور الايديولوجي برنامجاً سياسياً يتناول القضايا الحياتية الأساسية والنظرة العامة للمبادىء الأساسيةالتي تفرز بين قوى الثورة والتقدم ، وقوى الرجعية والتخلف والاستعمار ، فهذا موضوع آخر ، ولا اظن أن هناك بين فصائل الثورة من يختلف عليه . ولا ادري الى أي مدى تورط بعض المثقفين الثوريين من ابناء فلسطين وغيرهم في الخلط بين متطلبات ثورة التحرير الوطني وثورة التحرير الاجتماعي . وقبل ان يبادر واحد من هؤلاء للتجني والاتهام بانني افصل بين هاتين الثورتين او اني لا ارى ما بينهما من روابط عضوية لا مفر منها ، فاني ابادر للقول باني مع ادراكي لهذه الحقيقة ، ارى انه من الممكن لثورة التحرير الوطني ان تنمو وتنتصرضمن برنامج سياسيعام ودون نظرية متكاملة كالنظرية اللينينية - الماركسية مثلاً . ومع ارتقائنا لسلم المطالب الاجتماعية لا بد ان نرتقي ببرنامجنا السياسي على طريق اكتمال النظرية الثورية . بكلمة اخرى لست من المؤمنين بانه بلا نظرية متكاملة لا تقوم ثورة تحرير ، فاغتصاب الأرض من قبل سلطة اجنبية كفيل بان يحرك الشعب للثورة على هذ الواقع ، وكاف - كمحرك - لاستمرار هذه الثورة وتأمين النصر فيها . ولا داعي لسرد الأمثلة.

إن نظرة على ما يجري اليوم في اكثر من مكان يكفي كدليل على صـــواب هذا الرأي .

السؤال التاسع

* هل تعتقدون بان من الممكن انتصار الثورة الفلسطينية بدون ثورة عربية شاملة تقضي على مختلف اشكال التخلف والرجعية والارتباط بالامبريالية والاستعمار ؟ وان كنتم تعتقدون بهذا الترابط بين الثورتين فكيف تحددون طبيعته وكيف تنظرون الى واقعه ومستقبله ؟

ـ إني من المؤمنين بان الثورة الفلسطينية قادرة على تحقيق عـــدة أمور على طريق النصر :

اولاً : ابقاء القضية الفلسطينية حية وحامية ومحط انظار واهتمام العالم باسره .

ثانياً : ابقاء الكيان الاسرائيلي مزعزعاً غير قادر على تأمين الحد الادنى من الامان المطلوب من قبل سكانه .

ثالثاً : تخفيف الهجرة الى اسرائيل وضرب مشاريعها السياحية .

رابعاً : تمزيق اوصال اسرائيل ومواقعها الاستراتيجية ونشر حالة الرعب بين الجنود والسكان على حد سواء .

خامساً : نشر الوعي الثوري المضاد لاسرائيل عبر الوطن العربي كله .

اما تصفية الكيان الاسرائيلي ، وهو الهدف الستراتيجي للثورة ، فلا يمكن الا ان يكون مهمة قومية تتحمل مسؤولياتها الأمة العربية باسرها بشكـــل أو بآخر . وأظن انه فيما سبق من حديث حول علاقة الثورة الفلسطينية بالحركة الثورية العربية في الاجوبة السابقة ما يغطي الجزء الثاني من هذا السؤال .

السؤال العاشر

* هل ترون ان وحدة المقاومة مسألة ضرورية لا بد منها لنجاح هذه الحركة ام ترون ان الاختلاف في وجهات نظر الفصائل التي تكون حركة المقاومة ، وفي طرائق عملها ، عامـــل اساسي في جعل الحركة اكثر غنى وتنوعاً وفعالية ؟

وحدة حركة المقاومة

ـ ان وحدة حركة المقاومة ـ في رأيي ـ مسألة ضرورية تحتمها أهداف الحركة بالذات . فكما اشرت سابقاً ان حركة المقاومة هي حركة تحرير وطني بالاصل وتستهدف تحرير ارض مغتصبة . ولذلك فانه من الممكن تحت هذا المفهوم ان ينطوي تحت لوائها قاعدة عريضة من المناضلين مهما تنوعت آراؤهم السياسية . واذا كان التنوع الحالي يغني حركة المقاومة فكرياً ، فاني لا أرى الغنى نفسه على الصعيد القتالي . والقتال في حركة المقاومة اساس اذا انهار ينهار من فوقه كل نضال فكري ونظري . ولو نظرنا لحركة المقاومة الفرنسية اثناء الحرب الماضية وجدنا انها كانت تحوي بين فصائلها رهبان الكنيسة الكاثوليكية جنباً الى جنب مع الديغوليين والشيوعيين لأدركنا مدى امكانية وحدة العمل النضالي في الساحة الفلسطينية ، ولأدركنا كذلك قيمة هذه الوحدة على صعيد النتائج العسكرية .

وفي رأيي المبني على ملاحظتي للواقع لا يوجد ما يحول دون وحدة فصائل الثورة الفلسطينية رغم كل ما يقال وما هو قائم بالفعل من تباين في وجهات النظر وطرائق العمل .

السؤال الحادي عشر

* ما هي في رأيكم الخصائص التي تميز حركة المقاومة الفلسطينية بالنسبة الى المكان الخاص الذي تشغله في حركة التحرر العربية الشاملة ، والى المكان الخاص الذي تشغله في جبهة الصدام المباشر مع الصهيونية والامبريالية ؟

ـ ان حركة المقاومة الفلسطينية بحكم الهدف الذي تتصدى اليه ، وهو تحدي الوجود الصهيوني والامبريالي المباشر فوق الأرض العربية هيأها موضوعياً لتكون أوسع مدخل للثورة العربية الشاملة ، وممراً تنصهر خلال عبوره معظم الخلافات القائمة بين الاجتهادات والتنظيمات الثورية المختلفة .

كذلك فان موقع المعركة الجغرافي ، في منطقة حساسة من الوطن العربي فرض على عدد كبير من الدول العربية المشاركة الحقيقية في هذه الحركة ،بغض النظر عن نوعية هذه المشاركة سلباً او ايجاباً . اقصد من هذا ان اقول بان ما

كان مطروحاً كقضية نظرية حول عروبة القضية الفلسطينية ، اصبح اليـــوم، وخصوصاً بعد حرب ٦٧ ، قضية عملية وممارسة .

واخيراً فان حركة المقاومة الفلسطينية ، هي بين الحركات الثورية العربية الوحيدة تقريباً المتصدية للحرب ضد الصهيونية والاستعمار ـ باسـلوب مباشر ويعتمد الكفاح المسلح . بينما معظم الحركات الاخرى ما تزال في طور النضـال السياسي المجرد .

السؤال الثاني عشر

★ نرجو ان تقيموا حركة المقاومة : ما هي اخطاؤها ونواقصها ،وماذا حققت من خطوات؟

ـ بحكم موقعي الرسمي في الثورة ، كل ما استطيـع قوله رداً على هـــذا السؤال ، انه في الميزان العام لسلبيات الثورة وايجابياتها يمكن تقييم الحركة بانها دون ما يتمنى ابناؤها وثوارها ، ولكن فوق ما يقدر ويتمنى لها اعداؤهـــا . ولا يجوز ان ننسى ان عمر الحركة لا يتجاوز السنوات الثـلاث . ولا يجوز ان ننسى كذلك اننا ما زلنا نعمل ضمن واقع عربي لم يقذف بكل قواه الى المعركة، بل هنالك جزء منه لا يريد فعلاً أن يدخل هذه المعركة .

جبران مجدلاني

المقاومة الفلسطينية ومضمونها الثوري الوحدوي

الحديث عن الوحدة العربية يستدعي بادىء ذي بدء توضيحاً فرضته التساؤلات التي اثيرت حول القومية العربية، سواء في بعض الأوساط اليسارية، أو بين العناصر الاصلاحية من اليمين الانعزالي. ان الربط النظري المطلق بين الفكرة القومية ونظام اقتصادي واجتماعي معيّن يشكو من التعميم المفتعل والسطحي. ذلك ان انتماء الفرد الى ارض والى مجموعة بشرية هو من الخصائص البشرية الثابتة. وتثبت الدراسة غير المتحيزة لتاريخ المجتمعات البشرية، ان التعلّق بمحيط بشري وارضي كان دائماً أحد المحركات الفاعلة في حياة الجماعات. وهذا لا يعني طبعاً تجاهل العامل الاقتصادي وأولويته في الحالات العادية أو التقليل من أهميته. انما القصد هو ابراز حقيقة اصبحت موضوعية باستمرار ذاتيتها عبر العصور وهي ان الانتماء القومي ولد قبل النظام الرأسمالي واستمر حيث تجووز، فالذي تطور عبر التاريخ هو اطار القومية الجغرافي ومحتواها الفكري والاقتصادي والاجتماعي. إن التجربة الانسانية، بتعبير آخر، اكدت حتى الآن ان تطور النظام الاقتصادي ـ السياسي الاجتماعي يؤدي الى تطوير المفهوم القومي لا الى ازالته. وهذا يعني ان القومية سلاح خطر على الشعوب في يد النظام الرأسمالي ولكنها في الوقت نفسه اداة تحرر وتقدم في يد الشعوب المستعمَرة والمتخلفة اقتصادياً واجتماعياً.

أشير الى هذه المسألة للتدليل على ان الدعوة الى الوحدة العربية لا تعني التخلي عن الثورية او التقدمية بل على ان مقياس الحكم في هذا المجال هو المحتوى

الذي يُعطى لهذه الدعوة والهدف المتوخى من ورائها .

كذلك اود ان اشير الى انه لا مجال للربط او الالتباس بين موقف اليساريين والانعزاليين اليمينيين ازاء موضوع القومية . فبينما ينبثق انتقاد بعض اليساريين للفكر القومي من التصور الرأسمالي للعامل القومي المندمج حتمياً بعوامل عنصرية وتوسعية واستغلالية فان سلبية الاصلاحيين الانعزاليين ازاء القومية ليست سوى محاولة تبرير عقلاني لعقدة الاقلية المسيطرة عليهم .

عودة قصيرة الى التاريخ

برزت الدعوة الى الوحدة العربية في القرن التاسع عشر بعد عصور طويلة من الانحطاط والتمزق . الا ان هذه الدعوة انحصرت في اطار بعض اوساط المثقفين والادباء ولم تأخذ مطلقاً طابع الدعوة الجماهيرية . والجدير بالذكر ان المسيحيين لعبوا دوراً أساسياً في طرحها ، ولا غرابة في ذلك لأن فكرة الوحدة العربية كانت في ذلك الظرف تعبيراً عن مقاومة دولة الخلافة العثمانية : تجسد من جهة النزعة الاستقلالية ، وتحمل في طيّاتها ، من جهة ثانية ، رغبة الاقلية الواعية في التخلص من الطابع التيوقراطي للدولة وفتح آفاق المساواة في المواطنية للاقلية المسيحية . فالوحدة العربية كرد على دولة الخلافة كانت تعني بالنسبة لطارحي شعارها من المسيحيين فصل الدين عن الدولة ووضع المسلمين والمسيحيين على قدم المساواة في جامع العروبة المشترك . وهذا ما يفسر لنا نوعاً ما سبب عدم انتشار هذه الدعوة في اوساط الجماهير الاسلامية في تلك الفترة . فكما أن نظام الخلافة كان بالنسبة للعناصر المسيحية المتسيسة عامل تحريك ومقاومة فانه كان في الوقت نفسه عنصراً مخدراً للجماهير الاسلامية التي عُبئت نفسياتها عبر القرون على اساس اعتبار الخلافة تجسيداً نظامياً وسياسياً لمعتقداتها الدينية . وبالتالي أصبحت مقاومة دولة الخلافة العثمانية بالنسبة لهذه الجماهير كأنها خطر على اسلامها وتحد لايمانها . وظلت صيحة ابراهيم اليازجي « تنبهوا واستفيقوا ايها العرب » كنداء في الصحراء على المستوى الجماهيري الى ان اقدمت الامبراطورية العثمانية نفسها على انهاء عهد الخلافة وعلى ابراز طابع الدولة التوراني .

وكانت نهاية عهد الخلافة وتورنة الدولة نقطة انطلاق تحسس الجماهير

الاسلامية بعروبتها كعامل متميز عن بقية الشعوب الاسلامية وكإطار جغرافي سياسي (Géopolitique) لتحركها ونشاطها وقد حصلت بداية هذا التحول قبيل الحرب العالمية الأولى .

ونجحت بريطانيا في استغلال نمو هذا الشعور القومي في حربها ضد العثمانيين ولعبت دوراً لا يجهله احد في ما سمي بالثورة العربية عام ١٩١٦ . وكلنا يعلم ان الدولة العربية التي اتفقت بريطانيا والشريف حسين على انشائها كانت تشمل بنوع خاص فلسطين . ويتبين لنا هنا ان موضوع فلسطين اقترن تاريخياً منذ بدايته الحديثة بمحاولة التجسيد الأولى ، ولو جزئياً ، لفكرة الوحدة العربية في عصرنا .

من وعد بلفور الى اليوم

جاء عام ١٩١٧ باخطر ظاهرة في النضال القومي العربي. ففي ٢ تشرين الثاني من ذلك العام اعطى اللورد بلفور تصريحه المشهور باقامة وطن في فلسطين لما اسماه الشعب اليهودي . قد يكون هذا التصريح ـ الوعد ابرز عامل تاريخي للترابط العضوي بين موضوع فلسطين والقضية العربية . فاقامة دولة صهيونية في فلسطين أمر لم يكن في ذهن الغرب ولا في ذهن الصهيونيين ولا في التحسّس العربي محصوراً بحدود فلسطين الاقليمية بل كان بالنسبة لجميع الاطراف موقفاً يتعلّق بالمشرق العربي ككل .

فبالنسبة للغربيين وبنوع خاص بالنسبة لبريطانيا كان التحالف مع الصهيونية الذي عبر عنه وعد بلفور يهدف الى حماية المصالح البريطانية في المنطقة وبنوع خاص الى ابعاد فرنسا عن الممر الستراتيجي الذي يحمي قناة السويس[1] . فلم يكن الوطن القومي اليهودي في تلك الفترة يشكل تبريراً للاضطهاد الجماعي الذي يتعرض له اليهود . ذلك انه سابق للاضطهاد الذي تسلحت به الدول الغربية بعد الحرب العالمية الثانية كستار لمخططاتها الاقتصادية والسياسية والستراتيجية . اما الاضطهادات التي عاناها اليهود في روسيا القيصرية (Pogroms) وبنوع خاص في عام ١٨٨١ فقد ادت الى هجرات جزئية اتجهت باغلبيتها الساحقة الى الولايات المتحدة بينما لم يأت الى فلسطين كنتيجة لها سوى بضعة مئات من اليهود[2] . وهذه الهجرات كلها سبقت بعشرات السنين الاتفاق

البريطاني – الصهيوني . واكبر دليل على ارتباط وعد بلفور بالمنطقة العربية الشرقية أي بالقضية القومية العربية وعلى انه لم يكن في لحظة من اللحظات موقفاً محصوراً بالاقليم الفلسطيني أو منبثقاً عن اعتبارات انسانية هو ما نشره حايم وايزمان اول رئيس لدولة اسرائيل في كتابه . اذ قال في مجال تعليقه على الموقف البريطاني آنذاك ما حرفيته « ان ليوبولد إمري – الذي كان امين سر المجلس الحربي البريطاني – أدرك أكثر من أي شخص آخر اهمية فلسطين يهودية ضمن المخطط الاستعماري البريطاني » فاقامة الدولة الصهيونية كانت بالنسبة لبريطانيا خطة تتجاوز الاطار الفلسطيني وتتناول المشرق العربي على اعتبار ان فلسطين بالنسبة للغرب جزء لا يتجزأ من آسيا العربية .

أما الصهيونيون فانهم لم يخفوا مطلقاً حقيقة اطماعهم وان مطاليبهم تتناول قسماً كبيراً من الشرق العربي . فقد حدد تيودور هرتزل في يومياته ارض اسرائيل (Eretz Israïl) بانها المساحة الممتدة من جداول مصر حتى الفرات وأضاف ما حرفيته : « اننا سوف نطلب الأرض التي نحتاج اليها وكلما زاد المهاجرون زادت حاجتنا الى أراض جديدة » . وفي مؤتمر السلام الذي عقد سنة ١٩١٩ طالبت المنظمات الصهيونية بالاضافة الى فلسطين ، بجنوب لبنان وجنوب سوريا حتى ابواب دمشق ، وبالاردن وقسم من شبه جزيرة سيناء[٣].

ففلسطين بنظر الصهيونية لم تكن يوماً من الايام فلسطين التي نحددها اقليمياً بل هي التسمية ذات المغزى الديني لقلب الوطن العربي الجغرافي . كذلك اعتبر شعب فلسطين منذ البداية جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية وليست له بالتالي قضية خاصة مستقلة عن شعوب المنطقة العربية . هكذا نجد ان طرح قضية فلسطين تم بالنسبة للغرب الاستعماري ممثلاً ببريطانيا في ذلك الوقت وبالنسبة للصهيونية على اساس انها قضية عربية لا قضية اقليمية . ولا ننسَ في هذا المجال ان اقتطاع فلسطين عن الاقطار المحيطة بها شكل ضربة قاصمة لأول حلم بتحقيق دولة عربية في القرن العشرين . ومنذ ذلك الحين لم تتغير الصورة العربية الشاملة لقضية فلسطين فبعد اعتراف بريطانيا بالوكالة اليهودية واعطائها جوازات سفر فلسطينية لكل يهودي في العالم يطلب ذلك ، انفجرت المقاومة العربية ضد هذا الغزو الجديد . والجدير بالذكر ان حركات عام ١٩٢١ و ١٩٢٩ و ١٩٣٣ و ١٩٣٦ ضد الاحتلال البريطاني والغزو الصهيوني كانت تحمل جميعها الطابع العربي اذ شارك فيها ابناء لبنان وسوريا والاردن وغيرها جنباً الى جنب

مع اخوانهم الفلسطينيين لانقاذ انفسهم عن طريق المشاركة في انقاذ الجزء الذي اريد له ان يكون نقطة انطلاق .

وفي عام ١٩٤٨ عندما دخلت الجيوش العربية اقليم فلسطين لم تكن تقصد في الواقع الدفاع عن الأرض الفلسطينية انطلاقاً من حسها القومي فحسب ، بل انها كانت كذلك تحسب في موقفها نتائج قيام الدولة الصهيونية على مستقبل الأراضي العربية المحيطة بالجزء المغتصب من فلسطين وعلى تطور الاقتصاد العربي . وبعد الكارثة الأولى على ارض المعركة تغيّر وجه الصراع وشكله دون ان يتغيّر المحتوى العربي لهذا الصراع . ولا يمكننا أن نفسر تحولاً واحداً في المشرق العربي بمعزل عن القضية الفلسطينية وعن التحدي الصهيوني . ففي عام ١٩٤٩ قام الانقلاب العسكري السوري الأول على يد حسني الزعيم باسم فلسطين . وزيف هذا الادعاء لا يغيّر شيئاً في تأثير قضية فلسطين على الوضع السوري . فلولا النقمة الشعبية العارمة ضد الانظمة التي اعتبرت مسؤولة عن الهزيمة لما وجد الانقلابيون العسكريون السوريون المناخ الجماهيري المؤاتي لقلب نظام الحكم ، ولما وجدوا في مراحل الانقلاب الأولى هذا التأييد العاطفي الذي أفسح لهم مجال تركيز قواعدهم القمعية والعسكرية . وفي عام ١٩٥١ قامت حركة يوليو على ايدي مجموعة من الضباط حركت مشاعرهم هزيمة فلسطين وفضائح العهد الملكي وكان اكثرهم من الذين شاركوا في القتال في منطقة النقب . وفي عام ١٩٥٤ كان الهجوم الاسرائيلي على منطقة غزة نقطة تحول السياسة المصرية على الصعيدين العربي والخارجي ، فهو الذي فتح باب كسر احتكار الاسلحة الغربية في المنطقة العربية الذي ادى بدوره الى تأميم شركة قناة السويس .

وكان عام ١٩٥٦ كذلك برهاناً عملياً ساطعاً على ترابط القضية الفلسطينية بالمصير العربي . ولم تكن الغاية من تآمر اسرائيل مع بريطانيا وفرنسا لغزو القطر المصري ، حماية اسرائيل ككيان مهدد عسكرياً بل كان غرضه إزالة نظام عبدالناصر واستعادة النفوذ الذي فقده الغرب الأوروبي . فلقاء اسرائيل مع الاستعمارين البريطاني والفرنسي كان يتعدى الكيان الفلسطيني لضم اراض عربية جديدة لاسرائيل من جهة ولاعادة رسم الخريطة السياسية والاقتصادية في المنطقة العربية ، من جهة ثانية .

وليس غريباً عام ١٩٥٨ هو الآخر والذي اعتبر احدى قمم النضال العربي، عن القضية الفلسطينية. ان تحقيق الوحدة بين مصر وسوريا في شباط ١٩٥٨ جاء نتيجة ضغط شعبي لم يرد من الوحدة أن تكون تعبيراً عن الشعور القومي والوطني فحسب بل أرادها كذلك وسيلة لتحرير فلسطين. ذلك ان قضية فلسطين اعطت المد الوحدوي الذي حركته باستمرار سبباً جديداً للتعمّق وهو ضرورة الدفاع عن النفس. فبعد ان كانت الوحدة العربية أمنية قومية يوحيها الماضي، أي تجد منبعها في وحدة الشعور والتاريخ والاماني والتراث، أعطتها القضية الفلسطينية بعدين جديدين: بعداً ذاتياً هو التمرد للكرامة وبعداً موضوعياً هو رغبة الاستمرار والحرص على الاستقلال المهدد. أي ان قضية فلسطين جعلت من وحدة النضال العربي الاداة الحيّة لصهر الأجزاء العربية. ومنذ الوحدة المصرية ـ السورية نجد في مراجعة الأحداث التاريخية في المشرق العربي صدى ثابتاً للقضية الفلسطينية واثرها المباشر في كل التحولات الداخلية والخارجية الى ان نأتي الى هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ التي كرست بشكل سلبي استحالة الفصل بين القضية الفلسطينية والقضية العربية ككل. ونعيش منذ عام ١٩٦٧ مرحلة جديدة سنأتي الى تحليلها فيما بعد، انما يمكننا القول منذ الآن ان تداخل القضية الفلسطينية بالمصير العربي لم يعد بعد حزيران الاسود تحليلاً ذهنياً او تصوراً سياسياً بل اصبح واقعاً جغرافياً وحقيقة تعيشها كل يوم الاقطار المحيطة بالاقليم الفلسطيني.

ان هذا السرد التاريخي المقتضب والناقص توخّى من خلال اختيار بعض التواريخ المهمة ابراز الدور الذي لعبته القضية الفلسطينية في تحول الانظمة في المنطقة وفي قلب موازين القوى والاتجاهات في المشرق العربي. الا ان هذا الأثر على اهميته أقل خطورة وعمقاً من تأثير القضية الفلسطينية على التحسّس الوحدوي على المستوى الشعبي من جهة، ومن تأثير المقاومة الفلسطينية على تعبئة هذا التحسس وتحويله الى اداة ثورية قادرة على تجسيده، من جهة أخرى.

١ ـ اثر القضية الفلسطينية على التحسس الوحدوي الشعبي

قبل عام ١٩٤٨، عام الكارثة الأولى، لم يكن للحركات العقائدية الوحدوية

اي وجود سياسي فعلي . فحزب البعث كان عبارة عن مجموعة من المثقفين لا يتعدى اشعاعهم بعد جدار جامعة دمشق . وحركة القوميين العرب لم تكن قد شكلت .

أما الأحزاب الاشتراكية أو المسماة كذلك الموجودة في ذلك الحين في الاقطار العربية فقد كانت قطرية الطابع والتنظيم وان كان بعضها يستنسب في بعض الفرص طرح شعار الوحدة العربية كتمنٍّ غيبي يشابه طرح شعار الوحدة الافريقية في ايامنا هذه . والفئات الشعبية لم تكن قد اجتازت في تحسّسها الوحدوي القوالب التقليدية وكانت اكثريتها في مرحلة يلتبس في ذهنها القول مع العمل وكأن الحديث عن الوحدة بداية لتحقيقها . ان الالتباس بين الاستقلال القانوني والاستقلال الفعلي في ايام الجلاء الأولى جعل من الطبقات العربية الحاكمة رمزاً وطنياً وقومياً . والتحسس القومي الذي تغذى باساطير ما سمي بالثورة العربية وببطولات المقاومة العربية في فلسطين لم يتجاوز نفسه الى وعي المحتوى والأدوات القادرة على تحويله الى قوة ايجابية فاعلة . بل ظل يدور في مستوى ردة الفعل دون ان يصل الى مرحلة الفعل الى ان قامت دولة اسرائيل وهزمت الانظمة العربية التقليدية عام ١٩٤٨ وشرد شعب فلسطين .

ان بداية مأساة شعب فلسطين العربي تشكّل نقطة تحول نوعي في المد الوحدوي العربي . لقد ادركت الجماهير العربية بعد الصدمة ان الشعارات التي لا تعبر عن محتوى فكري وتصميم سياسي وتخطيط اقتصادي والتي لا تتسلح بادوات منسجمة مع اهدافها ليست سوى عنصر تخدير وتخريب للنضال العربي الوحدوي . وبالفعل فقد اقترن ضياع فلسطين بتغيّر جذري في موازين القوى داخل الحركات السياسية وبدأت الاحزاب العقائدية الوحدوية تتحول من جماعات صغيرة من المثقفين الى مجموعات ضاغطة ، ومن ثم الى حركات ذات قواعد شعبية مناضلة واسعة فاصبح حزب البعث نتيجة مأساة فلسطين قوة سياسية متعاظمة وولدت حركة القوميين العرب كردة فعل للهزيمة وان كانت في الوقت نفسه ردة فعل للبعث الذي رفضت عند نشوئها دعوته الاشتراكية . ونمو التيار الوحدوي المتمثل بحزب البعث وحركة القوميين العرب مدين جزئياً لانخراط جماعات كبيرة من الفلسطينيين في صفوفها . لقد ادرك المشردون

الفلسطينيون ان الرد على التحدي الصهيوني لا يمكن ان يكون بعد الانتصار الاسرائيلي رداً فلسطينياً بحتاً وان وسيلة المجابهة الوحيدة هي الرد العربي الشامل. كذلك أدركوا ان طريق تحرير فلسطين تمر بتحرير الجزائر وكل جزء عربي مهدد أو مستعمر. ولعبت بالفعل العناصر الفلسطينية دوراً مهماً في تحريك القوى الوحدوية وتحريرها من الشوائب الاصلاحية والعقليات القطرية اللاواعية. ولا يخفى على أحد مدى تغلغل المناضلين الفلسطينيين في قيادات الفئات الوحدوية. ان الدور الكبير الذي لعبه حزب البعث ١٩٤٨ حتى ١٩٦٣ والدور الجزئي الذي لعبته حركة القوميين العرب مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالقضية الفلسطينية وبمشاركة العناصر الفلسطينية الفعّالة في معركة المصير العربي.

الا ان ثغرتين كبيرتين تسللتا الى الصف الوحدوي وكانتا في الواقع من البذور السلبية الطبيعية التي حملتها المأساة. الثغرة الأولى كانت النفسية التي نمت داخل الجماهير الفلسطينية. ان الاخلاص للذات يفرض علينا الاعتراف بان ما عاناه عرب فلسطين من ابناء أمتهم في الاقطار العربية ـ طبعاً على يد الانظمة العربية ـ كان اكثر إذلالاً وأخطر جذوراً من محاربة الصهيونيين الوحشية لوجودهم. لقد استعملت الانظمة العربية كافة الوسائل المادية والمعنوية لاشعار شعب فلسطين بانه شعب لاجىء مع ما يحمله هذا الشعور من ضرب لغريزة الكرامة الانسانية وتعميق لعقدة الذل. وكان من نتيجة نمو هذه النفسية التي تتحمّل مسؤوليتها الأولى الانظمة العربية أن فقدت نسبة كبيرة من الفلسطينيين ثقتها بنفسها كعامل حي وفعّال في معركة التحرير والتوحيد وتخلت نتيجة لذلك عن دور المشاركة لتلعب عملياً دور الأداة لبعض الانظمة ولبعض الحركات. ان عملية اذلال الفلسطينيين وتحويلهم الى زنوج عرب غذّت في نفوسهم روح الاتكالية وحولت قسماً كبيراً منهم من قوى مناضلة الى عناصر قدرية تجد في سراب البطل المنقذ ـ اي خارجها ـ طريق الخلاص والكرامة. وهذه الثغرة الخطيرة التي خلخلت روح التمرد الجماعي عند الفلسطينيين أسهمت في فتح باب الثغرة الثانية التي حورت مسيرة القيادات العربية الجديدة. لقد ورثت القوى العربية الجديدة أمراضاً تأصلت في عصور الانحطاط واخطر هذه الامراض الموروثة هو، كما أرى، ضعف امكانية التصميم النضالي المبني على وعي حقيقي للصعوبات والعراقيل. وهذا العجز عن التصميم ادى في كثير من الأحيان

الى فقدان قدرة التحليل العلمي والى الاستعاضة عن التصميم بالحماسة . فالعربي عاش زمناً طويلاً في حالة الغيبوبة عن الواقع وفي مأمن من التمرد عن طريق اجترار الماضي . وكان الافتخار بالاسلاف يشكل له بديلاً للافتخار بنفسه . فاعتاد نفسياً على اللانضال الذاتي واكتفى بحس الكرامة بالوراثة . فصورة البطل التي تعاظمت في نفس العربي لم تؤد الى الهروب من النضال فحسب بل انها شوهت كذلك صورة الواقع وحسّ المسؤولية الفردية والجماعية . ذلك ان وجود البطل المنتظر دوماً يخفف من حدة الصعوبات ويجعل استمرارها امراً ذهنياً مستحيلاً .

وفي مأساة فلسطين صورة حيّة لأثر هذا المرض المزمن على النضال السياسي العربي . لقد حركت ولادة اسرائيل مشاعر ملايين العرب وفجّرت رغبة الجماهير في ازالة الهزيمة . غير ان حقيقة الكيان الصهيوني وانعكاساته البعيدة المدى ومكامن القوة فيه كانت أعمق من ادراك القيادات العربية في ذلك الوقت. لقد اعتبرت القيادات العربية نشوء الدولة الصهيونية سحابة غير زائلة وهذا بالفعل ما صرح به عزام اول أمين سر للجامعة العربية . ان هذا التصور السطحي لحقيقة وامكانيات الحركة الصهيونية لم يستدع أكثر من الحماسة، والحماسة من خصائص العرب الأصيلة . فاكتفت الحركات العربية الناشئة بالثورة على الانظمة القائمة ملبسة اياها كل أسباب الفشل دون أن تثور على ما ورثته من المناخ المهترىء الذي أعطى الحياة لهذه الأنظمة ، فعاشت المنطقة العربية مداً شعبياً التبس فيه الانتصار على بعض الأنظمة التقليدية مع الانتصار على عوامل التجزئة التي تشكل اسرائيل احد مظاهرها المأساوية . وهنا انفك الرباط بين النضال الفلسطيني والنضال الوحدوي بشكل لا واع . ورغم ان الدعوة الى الوحدة العربية وجدت تجسيدها في قيام الجمهورية العربية المتحدة ، ورغم ان قناعة الجماهير العربية بان هذه الوحدة تشكل الخطوة الأولى للتوحيد الشامل ولتحرير فلسطين مما دفعها الى تأييد دولة الوحدة بكل مشاعرها ، فان شكل هذه الوحدة والتحديد الفعلي للأولويات جعلاها عاجزة عن تحقيق الأماني المعلّقة عليها . لقد شاركت الجماهير العربية ، بضغطها وحماستها ، في اقامة اول دولة للوحدة ، الا ان مشاركتها توقفت عند عملية النشوء ولم يعد لها بعد ذلك سوى دور التأييد والعطف . لهذا كانت عملية الوحدة عملاً شعبياً وكانت دولة الوحدة امتداداً لنظام . أي ان الوحدة التي تمت بين مصر وسوريا كانت

وحدة فوقية ولم تصبح شعبية بالمعنى الصحيح . فالثغرة التي نقصدها على الصعيد العربي ، نتجت عن اكتشاف خطورة الظاهرة الصهيونية واستحالة ازالتها بمجرد تعديل بعض القوالب الحكومية . فعندما أدركت الحركات العربية الوحدوية اهمية الصعوبات التي تعترض المجابهة مع الصهيونية اتجهت نحو العمل الوحدوي كمقدمة للنضال التحرري الفلسطيني وبررت تأخير معالجة قضية فلسطين بنظرية اولوية الوحدة على التحرير . ان هذا التحديد النظري للأولويات وان كان يعني ظاهرياً تقسيماً زمنياً محضاً في ترتيب الأهداف ، عبر في الحقيقة عن الفصل العملي بين النضال الوحدوي والنضال الفلسطيني . فهذا الاتجاه شبه الهروبي نحو الوحدة لم يكن ليؤدي في منطقه واسلوبه الا لوحدة جمع تغني عن التفتيش عن اسباب الفشل الحقيقي وبالتالي عن سبل تجاوزها . ومما ساعد في تعميق هذه الثغرة انها اتسمت من جهة بطابع الانتصار وأن الاقطار العربية غير الفلسطينية لم تعان في قطريتها مأساة الاغتصاب ولم تشعر بالضغط الشعبي الفلسطيني للاسباب التي ذكرناها آنفاً .

لقد قامت جميع الانقلاب باسم فلسطين انما لم يتم شيء جدي من اجل فلسطين . ونستنتج مما تقدم ان قيام دولة اسرائيل قد قوّى النزعة الوحدوية عند الجماهير العربية الا ان الأدوات السياسية حوّرت هذه النزعة الى فهم سطحي للوحدة والى تشويه للنضال الوحدوي الذي لا يجد متنفسه وتجسيده المنطقي الا فيما يتجاوز مستوى الانقلاب . واكبر دليل على هذا التحرير الناجم عن عدم تحرر الحركات الوحدوية من امراض مجتمع عصور الانحطاط هو التحول الذي طرأ بعد انفصال عام ١٩٦١ . ان انهيار دولة الوحدة في الجمهورية العربية المتحدة ابرز الصعوبات التي تواجه النضال الوحدوي واثبت ان الحماسة لا تشكل مناعة ضد قوى التجزئة ولا بديلاً للثورة الجماهيرية . فما كان من الحركات الوحدوية الا ان حددت أولويات جديدة للتهرب من الصعوبات . فبرز شعار لقاء الثورات العربية بدلاً من وحدة الثورة العربية . وانتشر شعار تحقيق الاشتراكية كمقدمة للوحدة العربية كما طرحت في السابق فكرة الوحدة العربية كمقدمة لتحرير فلسطين . ان مأساة فلسطين كانت الصدمة المهيّئة للانتفاضة الوحدوية العميقة الا ان عدم ادراك حقيقة معناها وعمق نتائجها ادى الى اقتصار العمل على قلب بعض الاطر دون التطرق الهجومي الى المحتوى . ان هذه الثغرة الثانية التي تحدثنا عنها اي الثغرة العربية هي استمرار للعجز في تحديد

الصعوبات ومواجهتها ولم تكن لتبقى لولا ضعف المشاركة الشعبية الفلسطينية من جهة ولولا أن الاغتصاب الصهيوني شمل ، من جهة ثانية ، قطعاً خارج القطر الفلسطيني . وهنا نأتي الى حرب حزيران عام ١٩٦٧ والى ولادة المقاومة الفلسطينية كقوة ذاتية .

٢ ـ اثر المقاومة الفلسطينية في ولادة أداة الوحدة العربية

لقد حققت هزيمة حزيران غرضين اساسيين :

١ ـ تحطيم صورة البطل المنقذ عند الجماهير العربية بشكل عام وعند الجماهير الفلسطينية بشكل خاص . وهذا بدوره حطم جدار الاتكالية التي كانت تختبىء وراء الحماسة التصفيقية .

٢ ـ أما الغرض الثاني فهو "فلسطنة" الاقطار العربية المحيطة باسرائيل. ان توقف الصهيونيين عند جزء من القطر الفلسطيني ساعد حتى عام ١٩٦٧ على تشجيع سياسة النعامة في الاقطار العربية فركبت القناعة بان الخطر الصهيوني هو خطر جزئي لا يتعدى حدوداً جغرافية قطرية معينة ولا يهدد بقية الاقطار العربية الا من الخارج . فجاء توسّع اسرائيل اثر حرب الايام الستة يبتلع ما تبقى من القطر الفلسطيني وجزءاً من سوريا ومصر . فلم تعد دولة اسرائيل مأساة شعب فلسطين فحسب بل اصبحت في الواقع مشكلة مصرية وسورية واردنية ولبنانية . ولا بد لنا من تحليل انعكاسات هذين الغرضين واثرهما على تطور النضال الوحدوي .

١ ـ ولادة المقاومة الفلسطينية الجديدة

لم تولد المقاومة الفلسطينية بعد عام ١٩٦٧ ، فهي بالفعل لم تتوقف منذ قيام دولة اسرائيل عام ١٩٤٧ ، الا انها مرت بمراحل ثلاث : **المرحلة الأولى** كانت مرحلة فلسطينية صرفة وقد تميزت بعدد من العمليات الصغيرة التي لم تكن خاضعة لتطويق الانظمة العربية التام واستمرت هذه المرحلة حتى عام ١٩٥٤ عندما اعتدت القوات الصهيونية على الجيش المصري في منطقة غزة . **والمرحلة**

الثانية جاءت بعد عام ١٩٥٦ حين طوقت المقاومة الفلسطينية من قبل الانظمة العربية واصبح المقاتلون الفلسطينيون جزءاً من الجيوش النظامية العربية . اما **المرحلة الثالثة** السابقة لحرب حزيران فقد ابتدأت بشكل عملي في اول عام ١٩٦٥ حين قررت حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح» مباشرة الكفاح المسلح التصاعدي بمعزل عن الحكومات والانظمة العربية . الا ان هذه المقاومة ظلت في تلك المرحلة الأخيرة ضيقة الامكانيات وضعيفة الفعالية بسبب عدم التفاف الجماهير الفلسطينية حولها ـ اذ انها كانت تعلق كل الآمال على جيش مصر بقيادة عبد الناصر ـ وبسبب عداء الانظمة والأحزاب العربية لها ، ولا يخفى على احد أن اول شهيد من منظمة فتح سقط على أيدي القوات الأردنية ، فطابع المقاومة في المرحلة الأخيرة التي سبقت حرب حزيران لم يتعد الجماعات الصغيرة ولم يخلق مناخاً جماهيرياً واسعاً مؤيداً لها . غير ان هذه المبادرة على ضعفها كونت النواة الصلبة التي فجرت في عام ١٩٦٧ عهد المقاومة الفلسطينية الجديد . لقد حاربت الاحزاب الوحدوية مبادرة « فتح » بحجة ان مقاومة اسرائيل مسؤولية عربية لا يجوز ان ينفرد بها أحد ولم تدرك هذه الأحزاب ان موقفها العدائي هذا كان دفاعاً عن الانظمة العربية وليس عن المصلحة العربية . ولو نجحت المحاولات العربية في اخماد نشاط « فتح » وفي القضاء عليها في ذلك الحين لتغيرت صورة النضال العربي ولربما دفنت اليوم ولأجل بعيد قضية فلسطين . ان هذه الشراذم الصغيرة من المقاتلين الفلسطينيين الذين صمدوا في وجه الحقد الصهيوني والعداء العربي هي التي اعادت الى الجماهير العربية ثقتها بنفسها عندما دب اليأس في اعماقها على اثر انفخات طبل القوى العربية التقدمية أو التي حسبت على الصف التقدمي . ان الموضوعية والتجرد يفرضان الاعتراف اذن بان بذور المقاومة الفلسطينية ترجع الى اول كانون الثاني عام ١٩٦٥ .

ان عام ١٩٦٧ ليس اذن عام ولادة المقاومة الفلسطينية بل هو عام ولادة عهد جديد في المقاومة . انه عام تحولها نوعياً وتصاعدياً . واذا جاز لنا الانجراف الى استعمال الأسلوب العاطفي غير المتناقض مع الواقع نقول ان حزيران عام ١٩٦٧ هو تاريخ انبعاث شعب فلسطين كقوة محركة للثورة العربية وانبعاث المقاومة الفلسطينية كأداة أساسية وكرأس حربة لتحدي الهزيمة من جذورها دون الاكتفاء بمظاهرها وبمعض نتائجها . لقد قضت حرب الأيام الستة

على القطيعة بين المقاومة الفلسطينية والجماهير الفلسطينية والعربيـــة . واول نتيجة ايجابية تسجل للمقاومة بعد هزيمة حزيران هي نجاحها في اعـــادة حس الكرامة والتمرد الى شعب فلسطين .

يأخذ كثير من المثقفين العرب وعدد من الأحزاب العربيـــة على بعض المنظمات الفدائيـــة دورها في احياء الشخصية الفلسطينية ، ويعتبرون هذا النشاط الهادف الى اشعار الفلسطينيين بكرامتهم وأهميتهم دليلاً على النزعـــة الانعزالية وتعميقاً للرواسب القطرية . هذا التصور يكشف ، كما أرى ، عن جهل لأهمية العامل الذاتي في تعميق النضال القومي . ولربما كان الاستئناس بالامثلة افضل باب للرد على هذه التهمة . ولا أجد أصلح من مثل زنوج الولايات المتحدة وسيلة لشرح ما أعني ، خصوصاً انني سميت الفلسطينيين زنوج العرب. ان الإذلال المتمادي للزنوج في المجتمع الاميركي ولّد في نفوسهم عاملاً اخطر واعمق من الحقد على المجتمع الأبيض الا وهو التأثر بالادعاءات العنصرية . لقد نجح الاضطهـــاد المعنوي المضاف الى الاستغلال المادي في اضعاف حس الكرامة عند عدد كبير من الزنوج وفي اشعارهم بانهم حقيقة اذلاء وانهم غير متساوين مع الرجـــل الابيض . وقد الصقت بهم نواقص وغرائز اصبحت شبه قناعات عنـــد الكثرة منهم لكثرة ما نشرت وعممت . ولعب نمو عقدة النقص عند فئة كبـــيرة من الزنوج دوراً مهماً في انتشار الحركات الزنجية الانفصالية . ذلك ان فقدان الزنجي ثقته بكفاءته ومواهبه جعله يشعر بانه عاجز عن مواجهة المجتمـــع في اطار وطني واحد فالتجأ الى فكرة المجتمع الأسود ليحمي نفسه لا من استغلال الأبيض فحسب بل من تفوقه كذلك . هكذا نجد ان الشعور بالذل والضعف دفع الى الانعزال والانكماش وظلت هذه العقلية الانعزالية مسيطرة بزعامة «المسلمين السود » « black muslims » الى ان انشق عنهم مالكولم اكس ، ونشأت بعد ذلك حركة «الفهود السود» « black panthers ».وكان اول عمل قام به التنظيم الجديد هو نفخ روح العزة في الزنجي الاميركي وابراز شخصيته واشعاره بقوته ومواهبه. وكان اكثر شعار يردده اعضاؤه : افتخر بزنجيتك . الا ان الشعارات لم تكن لتكفي لمحـــو رواسب قرون الذل فلجأ الفهود السود الى نوع من الكفـــاح المسلح لا بقصد قلب المجتمع الأبيض بل لاسباب نفسية محضة ، فقد شاؤوا ان يشعروا الجماهير الزنجية ان الزنجي قادر على مجابهة الرجل الأبيض وتحديه وانه قادر كذلك على قتله .. وبالفعل ادى نضال الفهود السود عن طريق تحـــدي

يسعى الى مساعدة القوي بل تحول بفضل كفاح المقاومة الفلسطينية ورفعها للروح المعنوية في نفس الفلسطيني الى طلب الند للند او طلب المقاتل من المستعد للقتال . لقد انتهت اسطورة الفلسطيني القابع تحت كابوس سلطة الامن وبالتالي انتهى بفضل مبرزي شخصية الفلسطيني المناضل عهد الانعزال الفلسطيني ، فكما ان تخلص الزنوج الاميركيين من عقلية المجتمع الانعزالي الاسود تم بفضل شعورهم بالمساواة مع أسياد البارحة البيض ، فانه من الاولى ان يقال ان بروز الشخصية الفلسطينية وشعور الفلسطينيين بانهم لا يقلون عن اي عربي فعالية ومقدرة على القتال والتضحية ، لا بل ان لهم رسالة لعب دور رأس الحربة في الصراع العربي الشامل ، ـ كان كل ذلك انجع وسيلة لاندماجهم في المجتمع العربي وللقضاء على فكرة المجتمع الفلسطيني الأسود .

هنا يتبين لنا التناقض بين الادعاء والتجسيد في اقامة منظمات فدائية تابعة لبعض الانظمة العربية . ان تبرير اضافة عدد آخر من المنظمات استند الى القول بان الغاية من هذه المبادرة هي حماية المنطلق الذي هددته على حد زعم انظمة معينة بعض الحركات عن طريق تركيزها على ابراز الشخصية الفلسطينية . لقد اوضحنا ان ابراز الشخصية الفلسطينية ونفخ روح العزة والافتخار عند عرب فلسطين كان ضرورة نفسية لبعث الروح النضالية فيهم من جهة ولاشعارهم ،من جهة ،بمساواتهم مع اشقائهم العرب وهي الطريقة الوحيدة لاخراجهم من قوقعتهم ولتهيئة المجال لاندماجهم عربياً . ولنبحث الآن ، وان بشكل مقتضب نتائج ولادة المنظمات التابعة من زاوية الصراع الوحدوي : هل انها سدت فعلاً الثغرة القطرية وعمقت شعور الانتماء القومي عند الفلسطينيين ؟

ان الرد على هذا السؤال يقتضي استقصاء فيما اذا كانت الأنظمة التي انشأت امتداداتها الفلسطينية تثبت فعلاً باسلوبها هذا أن العربي الفلسطيني يتمتع حقيقة بالحقوق المعترف بها ذاتها لابناء قطرها واذا كان طمس شخصيته خاصة في الحالة النفسية الجماعية التي جر اليها يمكن ان تجعل منه مناضلاً عربياً ؟ اني اعتبر ان مجرد اقامة تنظيم فدائي تابع هو بحد ذاته مناقض للمنطلق الوحدوي . ان جعل أي حركة مقاومة في موقف التبعية المالية والسياسية تجسيد صارخ للمنطق القطري اذ انه يعبر عن الاعتقاد المخيف حقاً بان الفلسطينيين غير أهل لاخذ مبادرة القتال دون وصاية حكومية أو في اسوأ الاحتمالات يسخر منظمة فدائية لسياسة قطر او نظام ، وهكذا فان أي منظمة فدائية بحكم تبعيتها

المالية والسياسية انظام قائم محكوم عليها بان تكون قطرية النتائج ، رغم ظاهرية شكلها القومي ، لان نهجها في النضال ومشاركتها في التحرير لا ينطلقان من متطلبات النضال التحرري بحد ذاته بل من مصالح وسياسات النظام العربي الذي يمدها بسبل الحياة ومن امكانية استفادة هذا النظام من مبادراتها ونشاطها .

ولا افهم في الحقيقة كيف يستطيع البعض ان يفسروا التحرر من وصاية الانظمة وبث روح الافتخار في شعب حطم معنوياً بقصد تحويله الى اداة نضالية كبرهان على القطرية وفي الوقت نفسه فلسفة تبعية حركة مقاومة فلسطينية لنظام عربي كدليل على قومية هذه الحركة . ألم تثبت الحقيقة التي رسختها التجارب بان الاستغلال والتبعية هما ثديا القطرية ؟ والجدير بالذكر في هذا المجال ان اكثر الانظمة تحمساً لفظياً للثورة العربية ولمعاداة القطرية لم يعين ضابطاً فلسطينياً واحداً في قيادة أي وحدة من وحدات منظمته الفدائية ومنع من جهة ثانية الفلسطينيين حتى الآن من الدخول الى الأرض التي يحكمها بهوياتهم بعد ان سمح لهم لبنان الانعزالي بحرية التنقل .

ب - المقاومة الفلسطينية كصانعة لاداة الوحدة العربية

ان ولادة المقاومة الفلسطينية الجديدة قد حركت من عدة جوانب امكانية الصراع الوحدوي العربي : اعادت ، من جهة ، الشعب الفلسطيني الى حلبة الصراع بعد ان خمد دوره في السنوات الاخيرة واصبح بعض افراده أدوات لانظمة تحركهم لمقاصد تآمرية او قطرية . وعبأت من جهة ثانية الجماهير العربية ونفخت فيها روح التمرد والانتفاض في وقت حطمت فيه الانظمة العربية ثقة الشعب العربي بنفسه . وخلقت من ناحية ثالثة المناخ الثوري في الاقطار العربية المحيطة باسرائيل ذلك المناخ الذي يستطيع وحده ان يعمق امكانيات النضال الوحدوي . وتحدت اخيراً لا آخراً الاعتبارات القطرية مسجلة بذلك سبقاً قومياً عندما اصرت على حرية العمل داخل جميع الأراضي العربية المحيطة باسرائيل غير متأثرة في تصميمها بالتخوفات القطرية المحتوى والاستسلامية النتائج . وهذا التحدي

للاعتبارات القطرية الحكومية هو ، خلافاً لما يعتقده البعض، مشاركة عملية مهمة في خلق اداة الصراع الوحدوي . ان الذين يفسرون رفض الاعتبارات القطرية في طرح حرية العمل الفدائي عبر الاراضي العربية كبرهان على القطرية الفلسطينية يجهلون أو يتجاهلون في الواقع حقيقتين ناصعتين :

الحقيقة الأولى طبيعة حرب التحرير الفلسطينية . ان المقاومة الفلسطينية التي تقودها قوى متحررة من وصاية الانظمة هي من الوجهة الموضوعية ومن خلال واقع شعب فلسطين خميرة ثورية وحدوية بالضرورة . وهذا ما ادركته الدول الكبرى وجميع الحركات الثورية في العالم : ان بلداناً متباعدة جغرافياً او عقائدياً مثل كوبا والصين والولايات المتحدة وصلت الى الاستنتاج نفسه وهذا ما يفسر تأييد الدولتين الأوليين الحار لمنظمة فتح مثلاً وما يبرر عداء الولايات المتحدة الحاد لحركة المقاومة وسعيها الحثيث للوصول بسرعة الى حل سياسي للازمة المتصاعدة . ويبدو ان ما فهمه الجميع في الخارج بفضل تحليلهم الواقعي لحقيقة النضال الفلسطيني ما زال غائباً او متجاهلاً لدى كثير من الأنظمة والحركات العربية . ان انطلاقة شعب فلسطين في معركة تحرير ارضه لا يمكن ان تكون انطلاقة عربية ، فبالاضافة الى انتماء الفلسطينيين العضوي الى البوتقة الشعبية العربية فان وضعهم الجغرافي وتوزعهم في الاقطار المحيطة بالأرض المغتصبة يجعل تحركهم من هذه الأراضي ضرورة استراتيجية . ومن البديهي ان الحرب الشعبية لا تستطيع التحرك في أي بقعة الا اذا كان شعب هذه البقعة متفاعلاً معها وحامياً لوجودها وتحركها . فطبيعة حرب التحرير الفلسطينية تفرض اذن بضرورتها العملية والاستراتيجية وبصرف النظر عن المرتكزات العقائدية – غير المفقودة على كل حال – تعريب النضال الفلسطيني وخلق اخوة النضال والسلاح بين المقاتل الفلسطيني وابناء المناطق العربية التي يجتازها . ومن جهة اخرى فان الشعب الفلسطيني لا يشكل بمفرده القوة الكمية القادرة على هزم اعداء يفوقونه عدداً وعدة ومصممين على التسمّر في كيانهم ومواقعهم . وهذا يجعل المشاركة العربية القتالية على المستوى الشعبي ضرورة بشرية كذلك .

والحقيقة الثانية التي تجعل طابع معركة التحرير الفلسطينية ونضال طليعتها المقاومة ذات محتوى ثوري وحدوي هي طبيعة الدولة الصهيونية نفسها وارتباطها العضوي بالاستعمار الاميركي . فبن غوريون في معرض رده على سؤال

وجهه اليه اريك رولو مراسل جريدة Le monde برر رفض اسرائيل توضيح حدودها الثورية بتشبيه الوضع الصهيوني بنشوء الولايات المتحدة التي رفضت رسم حدودها عندما كانت مؤلفة من ١٣ ولاية وتوسعت فيما بعد لتشمل ٥٠ ولاية ممتدة من المحيط الاطلسي الى المحيط الهادي . وقد علقت جريدة ها آرتز الاسرائيلية على هذا التصريح بقولها ما حرفيته : « ان العرب ـ وليس الفلسطينيون ـ هم بكلمة اخرى هنود اسرائيل الحمر [٥] » . كذلك فان ليفي اشكول الذي اعتبر في الغرب أكثر الزعماء الاسرائيليين اعتدالا قال للمراسل نفسه « لم يبق من فلسطين القديمة سوى عشرين الف كيلو متر مربع [٦] » . مشيراً بذلك حسب تعليق رولو الى ان قسماً من سوريا والضفة الغربية والأردن وقسماً من العراق يدخلان ضمن اطار فلسطين القديمة . ومن جهة ثانية فان وجهة نظر الاستعمار الاميركي هي امتداد للمنطق البريطاني ايام وعد بلفور . وان تعدل شكل النظرة الاميركية فانه اصبح في الوقت نفسه اكثر شمولاً وغدت منطقة الشرق الأوسط العربية منطقة واحدة في التخطيط الأميركي . ويتبين مما تقدم ان طبيعة الحركة الصهيونية والكيان الاسرائيلي ومخطط الاستعمار الأميركي جعلت هي ايضاً من قضية فلسطين قضية عربية شاملة . فمباشرة الكفاح المسلح الفلسطيني لم تكن ردة فعل عربية الاطار الجغرافي والمحتوى والنتائج ازاء التحدي الصهيوني ـ الاميركي فحسب ، بل اصبحت كذلك ، بتعمق جذورها الشعبية ، الخميرة الطليعية لخلق اداة الوحدة العربية عن طريق تجسيد وحدة النضال الشعبي الفعلي .

٢ ـ اثر التوسع الصهيوني في خلق المد الثوري الوحدوي

ان التوسع الاسرائيلي خارج الاطار الفلسطيني الاقليمي خلق بعداً جديداً لا تقل اهميته على المستوى العربي عن ولادة وتصاعد المقاومة الفلسطينية . فاحتلال شبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان وقسم من جنوب غرب سوريا واعادة الأردن الى حدود ما قبل عام ١٩٤٨ خلقا في نفوس عرب الاقطار المعرضة للاحتلال شعوراً مشابهاً الى حد بعيد لشعور عرب فلسطين بعد عام ١٩٤٨ . ولئن كان الغزو الجديد لم يؤد الى تشريد شعوب جديدة باكملها فقد عمّق الشعور بالخطر المصيري ووضع الشعب العربي في سائر ارجاء

مشرقه في وضع الاختيار الحتمي بين التخلي عن طموحه في البقاء الجماعي أو الوثوب الى مجابهة التحدي والعدوان . فنمو عامل الخطر الذاتي صهر جميع ضحاياه في معاناة واحدة وفي ولادة تصميم واحد . ان تصاعد مقاومة الشعب الفلسطيني الذي لم يعتمد على امكانيات أية دولة عربية شكل بالبرهان الحسي مثالا حياً على امكانية الصمود والتحدي . لا بل ان دينامية المقاومة الفلسطينية فعلت فعلها في نفوس فئات لم يتجه الغزو المباشر صوبها فاختارت مشاركة مصير الضحايا المباشرين ووضعت نفسها تلقائياً في صف المشردين المناضلين . واخص بالذكر هنا ابناء جنوب لبنان الذين اصبحوا بارادتهم وانتفاضتهم فلسطينيي لبنان الجدد . ان فلسطنة العرب التي عجلت خطاها حرب عام ١٩٦٧ اصبحت كالمقاومة الفلسطينية طريق تعريب فلسطين .

ان النزعة الوحدوية عند الجماهير العربية نمت قبل وعد بلفور بالاستناد الى عوامل تجد خصبها في جذور الماضي . فجاءت قضية فلسطين تفرض عليها الاتجاه نحو مشكلات الحاضر . واذا كان لقضية فلسطين من فضل حاسم على النضال الوحدوي العربي فانما يعود هذا الفضل الى كونها اضافت الى عوامل التراث والتاريخ عناصر تجعل من تحديات العصر ومن الشعور بخطر الزوال الكياني سبيلا للانتفاض الجذري ولتجاوز الواقع الراكد المريض . ففلسطين عام ١٩٧٠ هي لحمة العرب ومناعتهم ضد الضياع . كذلك فان الكفاح المسلح كأسلوب بداية لحرب التحرير الشعبية ، هو الاداة لتجسيد تطلع الجماهير نحو الوحدة العربية .

وهذه الصورة للوحدة العربية هي الصيغة الثورية لتحقيقها وحمايتها . اذ انها ، بفضل محتواها واسلوب النضال من اجلها ، تعبير عن تجاوز المنطق الشوفيني وعن تحويل الانصهار العربي الى وسيلة لتحرير الانسان العربي اجتماعياً ونفسياً ، ولخلق القوة القادرة على المشاركة الجدية في معركة انعتاق الانسان في كل مكان .

جبران مجدلاني

المراجع

١ ـ حايم وايزمان ـ جريدة « جون افريك » عدد ٤٧١ تاريخ ٦ كانون الثاني ١٩٧٠ . وتابيتا تبران ـ وهي كاتبة وصحفية شيوعية اميركية يهودية ـ « فلسطين والعرب والصهيونية » . مجلة تريكونتيننتال العدد الرابع صفحة ٣٩ .

٢ ـ ماكسيم رودنسون «اسرائيل واقع استعماري» ـ مجلة الأزمنة الحديثة (Les temps nodernes) حزيران ١٩٦٧ .

٣ ـ الوثيقة المقدمـــة من المنظمة الصهيونية لمؤتمر السلام في باريس ٣ شباط ١٩١٩ في كتاب ج. د. هوروتز « الديبلوماسية في الشرقين الادنى والأوسط » الوثائق المسجلة ١٩١٤ ـ ١٩٥٦ الجزء الثاني برنستون عام ١٩٥٦ صفحة ٤٥ الى ٤٨ .

٤ ـ « جون أفريك » عدد ٤٧١ تاريخ ٦ كانون الثاني ١٩٧٠ مقال : « اميركا او نقاط ضعف عملاق » .

٥ ـ جريدة « ها آرتز » عدد ٢٠ تشرين الاول عام ١٩٦٧ .

٦ ـ « له موند » عدد ١٣ كانون الثاني ١٩٦٧ ـ وكتاب اريك رولو وجان فرنسيس هلد: « اسرائيل والعرب » باريس عام ١٩٦٧ صفحة ٦٦ الى ٦٩ .

عصام نعمان

النظام اللبناني والعمل الفدائي

لئن كان الحكم اللبناني قد شارك في مؤتمرات القمة العربية منذ ١٩٦٣ والتزم ظاهرياً بقراراتها فان دوره الفعلي في المجموعة العربية لم يتعد دور « الحكواتي » ولم يتعد ، طيلة سني عضويته في جامعة الدول العربية ، لغير مسؤوليات الاعلام للقضية العربية في الخارج ، وهو امر لم يتكشف عن أي مردود عملي حتى الآن .

أما على الصعيد العسكري فقد تجنب لبنان الانضمام الى اي من الاتفاقات العسكرية الثنائية التي تمت بين مصر وسورية من جهة ومصر والأردن من جهة اخرى . وحتى في نطاق مشروع تحويل روافد نهر الأردن (الحاصباني والسريد في جنوب لبنان وبانياس في سورية واليرموك في الأردن) واستغلال مياهها الذي أقره مؤتمر القمة العربي الأول كانت مشاركة لبنان فاترة ومحدودة . وعندما بدا ان انجاز اعمال التحويل ـ وسط المقاومة الاسرائيلية لها ـ مستحيل دون تمركز قوة عربية رادعة في لبنان لرفد قواته المسلحة انتحل الحكم اللبناني شتى المعاذير وساق مختلف التحفظات وابرزها مشكلة الوضع الداخلي الخاص ، للتهرب من توسيع دائرة التزاماته العربية .

أما على الصعيد العربي فقد بدت الاتفاقات العسكرية الثنائية اشبه ما تكون بتحالفات سياسية ظرفية هدفها تجميد العدو بطريق الايحاء بان ثمة تنسيقاً وبناء عسكرياً وراء مظاهر التضامن الخارجي وذلك لثنيه عن اسلوبه التقليدي في الانفراد بكل جبهة عربية على حدة ، والحؤول بالتالي دون احراج الانظمة

العربية المتفرجة خلال هذه العملية المكرورة .

ويتذرع أهل النظام اللبناني احياناً بان هشاشة الوضع العسكري العربي وعدم جدية الحكومات العربية في التصدي للعدو الاسرائيلي هما العاملان الأساسيان في ايثار لبنان البقاء بمنأى عن الاتفاقات العسكرية وبمأمن من وجود قوة عربية في اراضيه لتلافي «تورطه» في ما لا قبل له على مواجهته . والحق ان تفكك الوضع العربي هو ذريعة وليس سبباً موجباً . فأهل النظام يؤثرون الاعتقاد ، منذ هزيمة ١٩٤٨ ، بان لبنان ليس مهدداً من اسرائيل ، وانه لو اصبح في يوم من الايام عرضة لمثل هذا التهديد فان ثمة ضمانات دولية وقوى معنوية تهرع الى نجدته في الوقت المناسب لتدفع عنه غوائل الاشرار[١] .

وثمة سبب آخر لتجاهل الخطر الصهيوني اقرب الى الواقع والصق بطبيعة النظام : ان الاعتراف بالخطر يستوجب الارتفاع الى مستواه وهذا يستتبع بالتالي احداث تغييرات بنيوية في مؤسسات النظام . وبما أن أي تغيير بنيوي سيخل بتوازن القوى الراهن ، وسيكون بالتالي على حساب مصالح اهل النظام وامتيازاتهم المادية والمعنوية فان هؤلاء يؤثرون تجاهل الخطر والسكوت عنه ومحالفة الزمن ضد قوى التغيير على اية « مغامرة » اخرى .

واذا ما القينا نظرة اعمق على تهرب لبنان التقليدي من التزاماته العربية نجد ان امراً واقعاً انعزالياً يثوي في الوضع اللبناني منذ عقود ، افرزه قيح الجراحات الطائفية ، فتعهدته الأوساط الاستعمارية بعنايتها الفائقة وغذته بارسالياتها التبشيرية ورفدته بمراكز نفوذها ودعمته بمصالحها الاقتصادية ونسجت حوله هالة من المهمات الحضارية وغلفته بغلالة من الضمانات والاهتمامات الدولية الباهتة .

هذا الأمر الواقع الانعزالي لا يمكن ان يتوائم مع امر واقع جديد بل نقيض اسمه الحركة الفدائية وذلك لأسباب سيوضحها هذا البحث .

انبثاق العمل الفدائي

لئن كان العمل الفدائي فكرة راودت بعض المناضلين الفلسطينيين منذ

اواسط الخمسينات ، كما يؤكد قياديو حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) ، فان اول تماس للرأي العام العربي مع هذه الظاهرة الثورية كان في مطلع ١٩٦٥ . ومنذ ذلك الحين انتزعت «فتح» وسائر المنظمات الفدائية التي اعقبتها في الظهور اعجاب اوسع الجماهير العربية في المشرق والمغرب .

ولانبثاق الحركة الفدائية دوافع ومبررات [٢] عديدة يمكن تلخيصها على النحو التالي :

أ ـ احياء القضية الفلسطينية

بعد انقضاء زهاء عقدين على هزيمة ١٩٤٨ شعرت الطليعة الفلسطينية بان قضية فلسطين كادت ان تنتهي على أيدي الحكومات العربية الى قضية لاجئين وحراسة ممتلكات وتحويل روافد . لقد اخفقت الانظمة في تجاوز اسباب الهزيمة ، كما اخفقت في طرح قضية فلسطين بوجهها الاصيل . من هنا تحركت الطليعة الفلسطينية لاحياء القضية الأصلية بطريق تذكير العدو ، والعرب ، والعالم ـ بالقول والفعل الثوريين ـ بان قضية فلسطين هي قضية وطن استبيح وشعب شرد وحقوق اغتصبت ومطامع لن تقف عند حدود وقف اطلاق النار بل تتخطاها الى رقعة موعودة بين الفرات والنيل . وهل ثمة وسيلة افضل للتذكير من انتفاضة الفداء المترع بالاصالة والتصميم ؟

ب ـ انتزاع القضية من ايدي الحكومات

تحولت قضية فلسطين على ايدي الحكومات الى سلعة في سوق الدعاوة السياسية واداة للضغط حيناً وللمساومة حيناً آخر . اما أصحاب القضية فقد عزلوا عنها ، وحجز عليهم في المخيمات ، رحيل بينهم وبين تنظيم انفسهم ، وتركوا لوكالة الاغاثة لتشتري كبرياءهم الوطنية بجرايات الاغذية ومنح التعليم . لذا تحركت الطليعة الفلسطينية لتنتزع القضية من حكومات « البلدان المضيفة » غير المضافة ولتعود بها الى اصحابها الحقيقيين ، الى الكوادر المناضلة والقوى الحية ، الى شعب فلسطين بوصفه رأس حربة الوجود العربي في صراعه مع الاستعمار الصهيوني وقوى الامبريالية العالمية .

ج ـ زج العرب في معركة المصير

ولأن الأنظمة العربية لم ترتفع الى مستوى الاخطار المشعة من اسرائيل ولم تفهمها تحدياً محيقاً بالوجود العربي ذاته ومن ضمنه الكيانات الاقليمية ، ولأن الأنظمة العربية ظلت سادرة في سياساتها القطرية الضيقة وتعاملها المشبوه مع حلفاء اسرائيل الامبرياليين فقد توصلت الطليعة الفلسطينية الى قناعة مفادها ان ايقاظ الجسم العربي من هجعته لن تتم على وجه صحيح وسريع الا بتعريضه للسعات العدو ، يتجرع سمها بمقدار ما يستفز جوارحه وطاقاته لمغالبة السم ، حتى اذا بلغ النقاهة اصبح أقدر على تحمل جرعات اكبر من سم العدو واسرع لمغالبته وقهره ، الى ان يتصلب عوده وتنصقل طاقاته وتشتد عزيمته فيقبل على العراك الطويل بثقة وخبرة وشجاعة وتصميم . وبكلام آخر ، فقد وجدت الطليعة الفلسطينية في تخطي خطوط وقف اطلاق النار ومهاجمة العدو في مؤسساته وقواته سبيلاً قصيراً الى توعية الدول العربية المحيطة باسرائيل على جسامة الخطر وحتمية التحفز والاستعداد ، كل ذلك لأن العدو سيحمّل الدول المحيطة به مسؤولية اعمال الفدائيين وسيضربها في عقر دارها وسيعكر دعتها وسكونها الأمر الذي سيحفز القوى الحية فيها على التحسس بالاخطار المحدقة والنهوض بمسؤوليات التصدي والدفاع وتعبئة جميع الطاقات وزجها في معركة المصير الواحد .

د ـ ارباك العدو واستنزافه

والى ان تنهض الجماهير العربية بمسؤولياتها كافة بارساء قواعد التصدي ، سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وحضارياً لاسرائيل ، يستطيع الفدائيون ان يربكوا العدو بسلسلة من اعمال التخريب والاستنزاف التي من شأنها تعطيل مخططاته المرسومة او تجميدها على الأقل .

من أجل هذه الأهداف انبثقت الحركة الفدائية وانتظمت في وحدات قتالية في الأرض المحتلة وفي جوارها ، وانطلقت نزوعاً شعبياً وتعبوياً في المخيات المزروعة في اصقاع البلدان وضواحي المدن ، تتفاعل مع القوى الحية في البلاد العربية ، وتتواصل مع قوى التحرر في العالم من اجل خلق

الظروف الموضوعية الكفيلة بتحطيم البنية الاستعمارية الفاشية لدولة اسرائيل ، وحل قضية فلسطين حلا ديموقراطيا اشتراكيا في اطار وحدة البلاد العربية وسلامتها .

العلاقات اللبنانية - الفلسطينية

بدخول الفدائيين الفلسطينيين الى لبنان طويت صفحة في تاريخ العلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية وفتحت صفحة جديدة .

لم يتصد النظام اللبناني للوحدات الفدائية الرائدة اول الأمر . لعل ذلك يعود الى جملة اسباب اهمها صغر حجم الوحدات ، الفعالية المحدودة للعمل الفدائي آنذاك ، تلافي صدم المشاعر الشعبية المتوفزة بعد هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، القدرة على احتواء الوحدات المتمركزة ، والرغبة في امتصاص نقمة الجماهير على عدم مشاركة لبنان بقية الأقطار العربية في مسؤولية التصدي للعدو .

باتساع العمل الفدائي وازدياد فعاليته بدأ النظام اللبناني يستشعر حرجه الشديد وعدم قدرته على السيطرة على ردود الفعل المختلفة . وعندما ضربت اسرائيل بعض قرى الحدود ـ بعد ان دمرت اسطول لبنان الجوي قبل ذلك (٢٨ كانون الأول «ديسمبر» ١٩٦٨) ـ اتخذ الجهاز الحاكم قراراً بالتصدي للعمل الفدائي عبر الأراضي اللبنانية وبالتضييق على رجاله والمتعاونين معهم من اللبنانيين بغية تقليصه واذا أمكن تصفيته . وعندما استشعرت الحركة الوطنية اللبنانية هذا الخطر التصفوي بادرت الى الرد بالاحتكام الى الجماهير وبالمبادرة الى تعبئتها وطنياً ومشاغلة النظام بسلسلة من التظاهرات لصرفه عن مقاتلة الفدائيين في جنوب لبنان .

وظن أهل النظام ان ما يمكن عمله وقتذاك قد يستحيل عمله بعد ذلك . وعليه فقد تصدوا بعنف السلطة لتظاهرات الحركة الوطنية ، الأمر الذي ادى الى سقوط عشرات القتلى والجرحى في مختلف المدن اللبنانية . ولقد كان من نتائج هذه الهجمة الكاسرة ان اختل ميزان القوى داخل النظام نفسه لدرجة ان اطرافه عجزوا ، طيلة نيّف وستة شهور عن التوصل الى نقطة توازن

جديدة تحفظ الأمر الواقع الانعزالي بموازاة الامر الواقع الفدائي المستجد . وعندما استجمع أحد أطراف النظام قواه في منتصف تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٩ ليضرب ضربة خاطفة تضعه في مركز سياسي افضل انفجر الوضع الشعبي مرة اخرى ووقع صدام مكشوف بين قوى النظام وقوى الفدائيين ، انسحب بردود فعله على مجمل الاقطار العربية وعرّض النظام نفسه لخطر الانهيار . واذا كان قد أمكن لاهل النظام وقيادات الفدائيين ان يتوصلوا في القاهرة بتاريخ ١٩٦٩/١١/٣ الى اتفاق حال دون توسع الحريق فان ذلك لا يعني ابداً ان الأزمة قد انفرجت . وعليه ما زال من الضروري الاحاطة بالتناقضات والملابسات التي تكتنف هذه الأزمة منذ بدايتها .

يمكن تلخيص تحفظات النظام اللبناني حيال العمل الفدائي بما يلي :

ا ـ التواجد الفدائي على الأراضي اللبنانية انتقاص من سيادة الدولة وحد من سلطتها .

ب ـ العمليات العسكرية الفدائية عبر الحدود اللبنانية تعريض لسلامة لبنان من جانب قوى لا سيطرة له عليها ، ووضع عذر في فم اسرائيل لتبرير اجتياحها شطره الجنوبي .

ج ـ تعريض لبنان لخطر الهجمات الانتقامية الاسرائيلية غير محمود العواقب في هذه المرحلة بالنظر الى ضعف قوة لبنان الرادعة وعدم استعداده .

د ـ التواجد الفدائي في احدى بقاع لبنان دون موافقة سلطاته يثير حساسيات بعض الجماعات المتخوفة دائماً من قلب موازين القوى داخل البلاد .

هـ ـ العمليات العسكرية الفدائية عبر الحدود تعزيز لمزاعم اسرائيل بانتهاء مفعول اتفاقية الهدنة المشتركة وتحويل للحدود الى خطوط لوقف اطلاق النار وبالتالي جعلها خاضعة للتفاوض شأن سائر الحدود العربية في اعقاب هزيمة الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .

و ـ السماح لعناصر متطرفة باستخدام الاراضي اللبنانية ينال من سمعة

لبنان كبلد مسالم ويضعف بالتالي من امكان اعتماده على ضماناته الدولية وصداقاته الروحيــــة .

على هذه التحفظات ردّت الحركة الوطنية اللبنانية والقيادات الفدائيــــة بما يلي :

أ ـ في السيــــادة :

اذا كان المقصود بالسيادة السيادة القانونية فان الوجود الفــــدائي لا يتعرض مطلقاً لمفهوم السيادة من حيث ما « للدولة من سلطان تواجه به الافراد داخـــل اقليمها وتواجه به الدول الأخرى في الخارج [٣] » . فالوجود الفدائي لا يعطـــل ارادة الدولة في ما يصدر عنها من تصرفات ، ولا يحد من الاختصاصات المتفرعة عن الملكية الاقليمية كتنظيم اداة الحكم وادارة الاقليم والتشريــع والقضــــاء . هذا مع العلم بان لا وجودفي الواقع للسيادة المطلقة في العلاقات الدولية المعاصرة . فالدولة ، أية دولة ، مقيدة في ممارستها لسيادتها بقواعد القانون الدولي العـــام الذي ينظم العلاقات بين الدول في ضوء مصالحهــــا المشتركة والتزاماتها المتبادلة واحترام سيادات الدول الأخرى [٤] .

ثم انه لا بد من التمييز بين السيادة القانونية والسلطة الفعلية ذلك انــه من الجائز ان تحتفظ دولة ما بشخصية دولية مستقلة ، اي بوضع قانوني متميز ، وان تترك لدولة اخرى ، حامية او وصية ، ان تمارس مظاهر السيادة بالنيابة عنها ، اي أن يكون للدولة الحامية او الوصية سلطة ممارسة الحقوق الناجمة عـــن السيادة [٥] . ان قوات الطوارىء الدولية ، مثلاً ، تمارس السلطة الفعلية بالمحافظة على السلام في اقليم دولة ما وذلك بالنيابة عن الدولة المعنية بل في اطار سيادتها كشخصية دولية مستقلة .

ان الفدائيين لا يريدون شيئاً من هذا القبيل . فلا هم يبغون تمثيـــل دور الدولة الحامية ولا دور الدولة الوصية ولا هم بصدد ممارسة السلطة الفعليـــة لمظاهر السيادة اللبنانيــــة . جل ما يطلبون هو حرية الحركة ضمن الأراضي اللبنانية المجاورة لاسرائيل ، وهو مطلب لا يتعارض مع السيادة اللبنانيــــة ولا مـــع سلطة الدولة الفعلية في ممارسة الحقوق الناجمة عن سيادتهـــا على اقليمها .

غير ان للسيادة مفهوماً آخر في منطق أهل النظام يتلازم مع مفهوم الاستقلال ويكاد ان يندمج بفكرة الانعزال . فعندما يتحدث أهل النظام عن السيادة فهم يعنون في الواقع توكيد استقلال لبنان عن العرب واحتجاجهم على كل ما من شأنه كسر طوق الانعزال وزج الشعب اللبناني في قضايا الحاضر العربي ومستقبله . ان السيادة ، في مفهومهم ، هي القدرة على الاختيار خارج موجبات الاسرة العربية وعلاقاتها . انها حرية رفض العرب وحرية رفض التغيير .

هذا الموقف اللاواقعي واللاعصري يؤكد ما سبق أن ألمحت اليه من ان امراً واقعاً انعزالياً يثوي داخل النظام اللبناني ، وان هذا الامر الواقع الانعزالي – وهو بالتأكيد غير الشعور الانعزالي البريء الناجم عن رد فعل عفوي حيال مساوىء وامراض متوفرة في الحياة العربية – قد بوشر باقامته وانمائه وفرضه منذ زمن بعيد وبتعاون وثيق بين القوى الرجعية المريضة في بيئتنا وبين القوى الاستعمارية الطامعة يوماً بتركة «الرجل المريض» والطامعة ابداً بخيرات المنطقة العربية ومواردها الطبيعية الهائلة .

والحقيقة أن قوى الاستعمار الغربي في سعيها المحموم للسيطرة على المشرق العربي ونهب خيراته قد توسلت الامر الواقع اللبناني الانعزالي كموطىء قدم ومخلب قط في وقت سابق لنضوج الحركة الصهيونية ومباشرتها اقامة امرها الواقع الاستيطاني الاقتلاعي في فلسطين . ولئن اصبح الأمر الواقع الصهيوني الآن موطىء القدم الثابتة والأداة الرئيسية للقوى الامبريالية في المشرق فان الأمر الواقع اللبناني الانعزالي ، على محدوديته وضموره المضطرد ، ما زال يشكل رديفاً مناسباً لبعض المهام والأدوار [٦].

ب - في السلامة

هل اسرائيل بحاجة حقاً الى اعذار لاجتياح لبنان ، وهل كانت تعوزها الاعذار عندما مدت سيطرتها عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩ الى الحصة المعطاة للعرب في مشروع التقسيم ؟

وفي عام ١٩٥٦ ، هل اهتمت بتقديم عذر مقنع لغزو مصر ؟ وفي سنة ١٩٦٧ هل كان ما يعوزها هو العذر وحسب لاجتياح الضفة الغربية لنهر الأردن

وقطاع غزة وسيناء والجولان؟ ثم، هل ان توسع اسرائيل هو «توسع اعتذاري» أم توسع اقتداري مخطط له منذ زمن بعيد؟

ان ما يتحكم بتقرير اعتداءات اسرائيل التوسعية عاملان: حاجتها لمهاجرين جدد وقدرتها على استيعابهم، والظرف الدولي المناسب لتوقيت العدوان. ولعل ما كشفه الكاتبان الصهيونيان جون ودافيد كيمشي عام ١٩٦٠ يشكل برهاناً قاطعاً على الفكرة القائلة بانه «على ضوء التحرك الصهيوني العقائدي والعملي يمكن الاستنتاج بان ما يعوز الصهيونية في مسيرتها التوسعية نحو استكمال الدولة ليس «المبرر» ـ والتوسع عقيدتها وعلة وجودها ـ بل «التوقيت» المناسب، وعلى سبيل التحديد «التوقيت الدولي» بالذات[٧]»، ذلك ان الجيش الاسرائيلي، باعتراف الكاتبين المذكورين، وضع خطة عسكرية كاملة لاحتلال الضفة الغربية عام ١٩٤٩ اطلق عليها اسم «عملية شن تاف شن» Shin - Tav - Shin وانه علق تنفيذها في اللحظة الأخيرة لعدم توفر الظرف الدولي المناسب.

ثمة نقطة اخرى تتعلق بقضية السلامة: في أي منظور يريد لبنان ان يعالج موضوع سلامته؟ اذا كان المنظور لبنانياً فحسب فهل اعتبر اهل النظام السلامة اللبنانية معرضة للخطر منذ ١٩٤٨، وإذا كان الأمر بالنفي فلماذا... واذا كان الأمر بالايجاب فما هي التدابير التي اتخذت لصون سلامة لبنان، وهل ان بوسع لبنان منفرداً ان يؤمن الشروط المادية والبشرية والسياسية اللازمة لضمان سلامته؟

واذا كان المنظور دولياً فهل يعقل ان يحارب أحد، لله وللتاريخ، ذوداً عن حياض اللبنانيين المشغولين عن ذلك بما هو اجدى وانفع؟

واذا كان المنظور عربياً، اي اذا كان مصير لبنان وسلامته، حيال اسرائيل وحلفائها لا يمكن فصله عن مصير الجوار العربي وسلامته، فهل يجوز الانعزال والتقوقع والتماس الاعذار الواهية للتهرب من مجابهة العدو المشترك؟ واذا كان لا بد من مواجهة العدو جبهة واحدة وارادة واحدة في حرب واحدة طويلة الأمد فهل يبقى مجال للبحث في بقعة من الأرض العربية الواسعة نخسرها حيناً ونستردها حيناً آخر في معركة كرّ وفر ستطول حتى عشية النصر؟

ج - في الانتقام والردع

ان منطق الانتقام الاسرائيلي لا يتأثر باخلاقية النظام اللبناني ولا بدماثته. انه جزء من الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية التي تتأثر، في ما تتأثر به، بواقع توازن القوى وتوزيعها بين العرب واسرائيل. لنأخذ، في التدليل على ذلك، مثلاً لبنانياً صارخاً:

ـ ان مجرد مرور فدائيين في مطار بيروت بغير علم السلطة اللبنانية لضرب طائرة «العال» الاسرائيلية في آثينا لا يبرر حجم الضربة القاصمة التي وجهتها اسرائيل الى الاسطول التجاري الجوي اللبناني ليلة ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٨.

اذن، ثمة أهداف وملابسات اخرى لتلك الضربة غير ارهاب لبنان الصغير الذي لم يكن قد «عانى» بعد ازمة الوجود الفدائي في أراضيه، فماذا تراها تكون؟

انها ارهاب المنظمات الفدائية والدول الحاضنة لها في آن واحد وإشعارها بمدى الضرر الذي يمكن ان ينجم عن العمل الفدائي. ولكن، كان من المفروض ان توجه الضربة الى سورية والأردن بالدرجة الأولى نظراً لكثافة الوجود الفدائي فيهما، فلماذا وجهت الى لبنان دون سواه؟ لأن ضربة موجعة بهذا الحجم لا يمكن، في الظروف القائمة آنذاك، توجيهها الى سورية والأردن بالنظر الى قدرة قوتها الرادعة نسبياً، بالتعاون مع الفدائيين، على افشالها. اما في لبنان فان ضعفه القياسي ـ الذي يجد فيه بعض الواهمين سر قوته! ـ جعل الضربة في اراضيه مضمونة النجاح. وعليه فان اخلاقية النظام اللبناني لن تجعله بمأمن من منطق الانتقام الاسرائيلي مهما بالغ اهله في اعتماد السلوك الحسن.

أما ضعف الرادع اللبناني فليس حجة مقنعة لاجتناب التحرك الفدائي. ان الاصرار على ابقاء قدرة لبنان الدفاعية دون المستوى المطلوب دعوة سافرة لاسرائيل لتنتقص من سيادته وكرامته في كل آن فضلاً عن كونها ـ اي انخفاض القدرة الدفاعية ـ ذريعة مقصودة لتبرير تهرب لبنان المستمر من

المشاركة الفعلية في الالتزامات العربية تجاه قضية فلسطين وتجاه بناء القـــوة العربية الذاتية .

ولا شك في ان اضافة قوة الفدائيين الى قوة لبنان النظامية من شأنها رفـع قدرته الدفاعية حيال عدو لا جدال في انه طامع باراضيه ومياهه [٩] . امـــا التخوف من امكان احتلال العدو لجنوب لبنان لوقف هجمات الفدائيين المنطلقين من اراضيه فهو امر بعيد الاحتمال للاسباب التالية :

ـ لأول مرة منذ اغتصابها فلسطين تبدو اسرائيل في المحافل الدوليـــة بمظهر الدولة المحتلة ، العدوانية ، المتمردة على قرارات الامم المتحدة . من هنا تستهدف سياسة اسرائيل في المرحلة الراهنة تحسين صورتهـــا في مرآة الرأي العام العالمي واشعاره بقدرتها على ادارة المناطق المحتلة بهدوء ريثما يتقرر مصيرها في مفاوضات مباشرة . ودولة هذه سياستها لا يعقل ان تسيء الى مصالحهـــا واهدافها في المستقبل القريب باحتلال اراض عربية جديدة واقتطاعها .

ـ ان احتلال منطقة حاصبيا حيث يتمركز الفدائيون أحياناً لا يحـــل مشـكلة اسرائيل مع الفدائيين اذ بوسع هؤلاء التراجـع الى منطقة راشيـــا والعودة من جديد الى ضربها واستنزافها . من هنا فان هدف اسرائيل في الوقت الحاضر ليس طرد الفدائيين وابعادهم بل شل حركتهم وتصفيتهم ، وهذا لا يمكن تحقيقه باحتلال مواقعهم اذ بامكانهم دوماً ان يتمركزوا في مواقع جديدة ضمـن العمق الستراتيجي العربي .

ـ ان اسرائيل تحتاج الى زمن ليس بالقصـــير لهضم ما ابتلعته من اراض عربية في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ قبل ان تبادر مجدداً الى ابتـلاع اراض جديدة .

د ـ في قلب موازين القوى

ان الزعم بان التواجد الفدائي يثير حفيظة الخائفين من انقلاب موازين القوى داخل النظام مردود شكلاً ، مقبول اساساً . ان التواجد الفدائي ، في مرحلته الأولى ، لا يطالب النظام اللبناني باكثر من حرية الحركة . ولذا فهو بعيد عـن لعبة موازين القوى اللبنانية ولا مصلحـــة مباشرة له في الانزلاق الى فخها .

والواقع أن العمل الفدائي شكا في الآونة الأخيرة من ان بعض القوى سعت الى استدراجه الى لعبة الصراع على السلطة في لبنان دونما طائل « لحرصه على عدم التدخل في الشؤون الداخلية للاقطار العربية [١٠] » .

غير ان تطور العمل الفدائي المنشـــود الى حرب البؤر الثورية ومن ثم الى حرب العصابات فحرب التحرير الشعبية الطويلة الأمد سينطوي بالضرورة على احداث تغيير واسع ليس في موازين القوى داخل الاقطار العربية فحسب بـل كذلك في اوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على نحو جذري شامل. ان منطق الصراع القومي والطبقي مع العدو الصهيوني المدعوم بالقوى الامبريالية سيفرض ذلك الانقلاب الجذري المنشود في الأوضاع العربية . والفدائيون يكونون « ملومين » لارهاصهم بهـــذا التغيير في حالة واحدة فقط هي تجرؤ لبنان على اعتبار نفسه خارج حومة هذا الصراع المصيري الطاحن .

هـ - في انتهاء مفعول اتفاقية الهدنة

لم ينتظر العدو الاسرائيلي دخول الفدائيين الى لبنان وتحركهم عبر حدوده ليتخذ من ذلك ذريعة لنفض اليدين من اتفاقية الهدنة المشتركة . قبل ذلـك بكثير وصل العدو الى هذا الموقع بسلسلة من التبريرات والتحركات رصـدها بدقة أحد المختصين بقضية فلسطين على النحو التالي :

- « اعلن وزير الخارجية الاسرائيلية ابا ايبان في ١٩٦٧/٨/٣ ، ان « خطوط الهدنة الهزيلة » يجب استبدالها « بخطوط ثابتة لصلح متفق عليه » دون التفريق بين خطوط الهدنة التي اكتسحتها اسرائيل عسكرياً أو الخط الوحيد المتبقي من اتفاقات ١٩٤٨ ، اي خط الهدنة اللبناني - الاسرائيلي » .

- « بعد أيام قليلة من تصريحه السابق ، اعلن ابا ايبان انه يعتبر ان اتفاقية الهدنة اللبنانية - الاسرائيلية قد اصبحت « لاغية » نتيجة قبول لبنان بقرار وقف اطلاق النار في حزيران ١٩٦٧ ، رغم ان الاتفاقية تنص صراحة على انها تبقى نافذة الى ان يتم التوصل الى « تسوية سلمية » بين الأطراف المعنية ».

- « وفي ١٩٦٧/٩/٧ عاد رئيس الوزراء ليفي اشكول ، الى تحريك المبررات الاقتصادية للمطامع الاسرائيلية التوسعية في لبنان ، فاعرب عن « اسفه » لذهاب

نصف مليار من مياه نهر الليطاني «هدراً» كل عام في البحر عوضاً عن استغلالها لصالح « شعوب المنطقة » .

- «وفي ١٩٦٧/١٠/٢ عاد وزير الدفاع موشيه دايان الى تحريك المبررات الستراتيجية للمطامع الاسرائيلية في لبنان فقال انه يعتبر ان الأراضي التي احتلتها اسرائيل في ٥ حزيران تشكل « حدوداً مثالية للدولة اليهودية فيما خلا الحدود اللبنانية التي لم تجتحها وتعد بالتالي تخطيطها [١١]» .

و - في ان سلامة لبنان في ضعفه :

الزعم القائل بان ضعف لبنان وسلوكه المسالم يدران عليه عطفاً عالمياً وتضامناً روحياً وضمانات دولية هو مجرد وهم لا يصدقه حتى مروّجوه . فضربة المطار وغزوة حولا وهجمة عيترون التي نفذتها اسرائيل بوحشية ،شواهد حيّة على ان لبنان بقي في ضعفه ومأساته وحيداً ، وان اسهام القوى الروحيــة والضمانات الدولية لم يتعد تحصيل الحاصل : معسول الكلام الذي تتقن مضغه اجهزة الاعلام .

مستقبل العلاقات اللبنانية - الفلسطينية

قد تبدو المناظرة السابقة غير ذي موضوع بالنسبة الى البعض . ألم ينص اتفاق القاهرة على شرعية العمل الفدائي ؟ اذن لم يبق الا ان يتكيف النظام مع الظروف المستجدة ، وهذا أمر ممكن شرط قيام حكومة تمثيلية قوية !

الواقع ان الأمور ليست بهذه البساطة .

ان التناقض بين الأمر الواقع الفدائي والأمر الواقع اللبناني الانعزالي (والانظمة العربية المعادية جميعها لحركة الجماهير) تناقض عميق شامل لا يمكن حله بمفاوضات على مستوى القمة ولا بتكييف سياسي على مستوى تأليف الوزارة . ثمة اختلاف بنيوي حاد بين تكوين العمل الفدائي وتركيب النظام اللبناني (وسائر الانظمة العربية) تجعل من الصدام امراً محتوماً . ففي حين

ان النظام اللبناني يقوم على ركائز طائفية ، اقطاعية ، بيروقراطية ، تجعل من « الوضع الخاص » مزرعة لا وليغارشية مالية كومبرادورية ووسيطاً لقوى امبريالية تنهب موارد المنطقة العربية ، نرى ان العمل الفدائي يقوم على وحدة وطنية فلسطينية عضوية صنعتها وحدة الكفاح منذ الثلاثينات ، فافرزت طلائع شعبية مقاتلة وكوادر ثورية متقدمة تسعى ، بالتنظيم والتعبئة والمحاكمة العلمية لمؤسسات الحاضر العربي ، الى تفجير تناقضات الأوضاع الفاسدة ، من أجل خلق ظروف موضوعية تكفل تعميق الثورة العربية وتوسيعها وبالتالي تحطيم البنية العنصرية والفاشية للدولة الصهيونية ، وتحرير فلسطين من الاستعمار والامبريالية .

وحتى لو بدا هذا التقييم للعمل الفدائي ومرتجياته مغالياً فان ثمة مظاهر للصدام بين الامرين الواقعين المشار اليها لا يمكن تجاهلها :

أ ـ قضت المقاومة الفلسطينية في أسابيع معدودة على عزلة لبنان السياسية ، وبدا سور الأمر الواقع الانعزالي ـ على سماكته وعلوه ـ اعجز من ان يصد قفزة ثورية نوعية من مستوى الكفاح المسلح . ولئن ظهر النظام اللبناني الآن بمظهر المستعد للتراجع فان تراجعه ليس سوى مناورة تكتيكية تسمح له بالتقاط الانفاس وبالاستعداد للقيام بحركة التفاف واسعة .

ب ـ ليس الفدائيون العرب قوة مستقلة عن النظام اللبناني فحسب بل هم قوة يصعب جرها ، بفضل تكوينها واهدافها وسلوكها ، الى فخ اللعبة التقليدية القائمة على توازن القوى داخل منظومة الشتات الفئوي . وطبيعي ان يؤدي هذا الواقع المستجد الى انقلاب في موازين القوى داخل النظام في المدى البعيد .

ج ـ والفدائيون السالكون درب الكفاح المسلح محكوم عليهم بالتطور باتجاه الحرب الشعبية . وبما ان ذلك سيفضي الى الخروج من اسار القطرية الفلسطينية والالتحام بالثورة والجماهير العربية فان الوجود الفدائي في مرحلته الراهنة وقياساً على ما سينتهي اليه يمثل جنين الحركة الوحدوية الثورية المتناقضة مع وضع التجزئة . وعندما تكون القوى الامبريالية صاحبة المصلحة الأولى في تأبيد الشتات العربي فهي لا شك ستجد نفسها منساقة الى محاولة كبح الحركة

الوحدوية في قالبها الثوري الجديد . وفي كل ما تقدم سيكون « للوضع اللبناني الخاص » دور في محاولة لجم قوى التغيير .

د ـ ان القضايا الاجتماعية التي تمكن النظام اللبناني سحابة عقود عدة من اغراقها في مستنقع المنازعات الطائفية المفتعلة بدأت الآن تطفو على السطح ، ذلك أن العمل الفدائي في حواره المسلح مع العدو ، ومناخ الأولويات الوطنية الذي نشره في سماء الحاجات اللبنانية بدأ « يلعب دور القوة الرئيسية المحركة والمساعدة على احداث استقطابات وطنية ـ طبقية اكثر وضوحاً وتحديداً [١٢] » .

التناقض حاد والصدام محتوم . وفي حومة الصراع سيكشف ذوو الارادات الحسنة ان اضعف الايمان هو الاسهام في تسهيل حركة التاريخ .

٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٩

عصام نعمان

المراجع

(١) « بيت بلا سقف » . افتتاحية غسان تويني في جريدة النهار ، العدد الصادر بتاريخ ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٨ .

(٢) هذه الدوافع والمبررات مقتبسة من مجمل ادب المقاومة الفلسطينية السياسي وقد بلورتها حركة «فتح» في نشرتها رقم ١ بعنوان « من منطلقات العمل الفدائي » (لا تاريخ).

(٣) الدكتور علي صادق ابو هيف ، القانون الدولي العام . منشأة المعارف ١٩٦٤-١٩٦٥ صفحة ١٣٠ - ١٣١ .

(٤) المصدر نفسه ، صفحة ١٣١ - ١٣٢ .

(٥) المصدر نفسه ، صفحة ١٢٩ - ١٣٠ .

(٦) مجلة الحرية ، المرجع السابق الذكر .

(٧) وليد ابي مرشد ، «العلاقات اللبنانية الفلسطينية » . محاضرة القيت في المؤتمر الوطني لبناء لبنان المنعقد بتاريخ ١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٩ وقد نشرت على حلقتين في جريدة «الانباء» بيروت بتاريخ ١٩٦٩/١١/٨ و ١٩٦٩/١١/١٥ .

(٨) جون ودايفيد كمشي ، «جانبا الهضبة» . لندن ١٩٦٠ .
Jon and David Kimche, Both Sides of the Hill, London, 1960.
والمعلوم ان رئاسة الاركان الاسرائيلية وضعت مستنداتها ووثائقها تحت تصرف هذين الكاتبين الصهيونيين المعروفين .

(٩) وليد ابي مرشد ، المرجع السابق الذكر . كما يراجع كتاب عبد الوهاب كيالي : المطامع الصهيونية التوسعية ، الصادر عن مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ١٩٦٦ ، وخاصة الصفحات ٨١ - ٨٩ .

(١٠) «رسالة من فتح الى الشعب اللبناني » مؤرخة في ٢٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٩ ، وقد نشرت جريدة «النهار» مقاطعها الأساسية بعددها الصادر بتاريخ ٢٧ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٩ .

(١١) وليد ابي مرشد ، المرجع السابق الذكر .

(١٢) محسن ابراهيم ، « حقيقة الخلاف مع الحزب الشيوعي » (٤) «مجلة الحرية» (بيروت) العدد الصادر بتاريخ ٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٩ .

رجا يازجي

حركة المقاومة ومشكلة التنظير العقائدي

يجب ان نكرس الكثير من الوقت لاقامة الأدلة المحسوسة على الأعمال والقليل من الوقت للحديث عن النظريات الفارغة .

ماوتسي تونغ

تستقطب حركة المقاومة مشاعرنا القومية في كل مكان . انها بالنسبة الينا تعبير عن ارادة البقاء ، وحافز جديد لارادة النهوض والتغير .

عندما انهار كل شيء صبيحة الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، أنظمة الحكم وايديولوجياتها ، القديم منها والجديد بدت لنا حركة المقاومة بارقة الأمل الوحيدة بالنصر وأكثر من ذلك مثلت وما تزال تمثل للكثيرين منا طليعة الثورة الشاملة على واقع الانهيار والفساد والتخلف .

هنا تبدو أهمية هذه الحركة وخطورة المسؤوليات التي تحملها هي ويحملها إياها الشعب . فقد أهين الشعب ثلاث مرات خلال عشرين عاماً وذاق مرارة الخيبة بما فيه الكفاية بحيث لم يعد ممكناً تحمل هزيمة أخرى . هذا ما يجعل آمالنا بالانتصار مفعمة بالخوف والقلق من أن تقضي عليها عقلية الارتجال والديماغوجية . وعلى رجال حركة المقاومة أن يدركوا هذه المسألة بجميع ابعادها البسيكولوجية والتاريخية ومدى علاقة ذلك بمعنويات الشعب وسمعته في المستقبل وكذلك بثقته بنفسه وثقة العالم به . فحركة المقاومة مدعوة للانتصار مهما كانت طبيعة الدور الذي ستلعبه جزئياً كان أم شاملاً ، ومهما

كان حجم هذا الدور كبيراً كان أم صغيراً . وهـــذا يقتضي أن تحدد حركة المقاومة دورها وأهدافها بكل وضـــوح وأن تمارس العقول الكبيرة والقلوب الكبيرة مسؤولياتها كاملة .

فما هو دور حركة المقاومة ؟ هل تقع عليها وحدها تبعات التحرير بعد أن كادت الجيوش أن تستنفد كفاءاتها وقواها في النزاع على السلطة ؟ اذا كان ذلك ما يفرضه واقع الأشيـــاء فهل الحرب الشعبية أمر ممكن ضمن الشروط الموضوعية القائمة ؟ أم أن اعادة بناء الجيوش النظامية أمر حتمي وأن الدور الأفضل لحركة المقاومة هو أن تكون رديفاً قوياً لجيش قـــوي ينهض في المستقبل ؟

ثم هل تلقى عليها تبعات تغيير الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعيـة وتحريك ثورة شاملة تنقل الشعب من وهـــدة التخلف الى رحاب التقدم ؟ وبكلام آخر هل يطلب من حركة المقاومة أن يكون لها استراتيجية عسكرية كاملة ودور عسكري كامل يؤدي في حال انجازه الى النصر النهائي الحاسم ؟ وهل يطلب منها أن يكون لها مضمون ايديولوجي ينسخ الايديولوجيات القائمة ليحل محلها ؟

نلاحظ أولاً أن عملية التنظير العقائدي لحركة المقاومـــة يصاحبها حوار صاخب في صفوفها وفي صفوف مريديها .هذا الحوار لا يتسم دائماً بالموضوعيـة كما أنه لا يتلمس دائماً الاسباب الايديولوجية الخالصة ، ذلك لأن أنظمة عربية حاكمة ومنظمات عقائدية وسياسية معينة تريد أن تركب موجة الكفاح المسلح للوصول بسرعة الى شاطىء أهدافها ، أو من أجل استمرارها في الحـكم أو من أجل تهديد أنظمة أخرى ، ويهمها أن تأخذ حركة المقاومة بمفاهيمها وخططها وأن تخضع لرقابتها .لكن اذا تجاوزنا هذه المسألة ، فاننا نرى عمليـــة التنظير تتركز حول مسألتين أساسيتين :

١ ــ الاستراتيجية العسكرية لحركة المقاومة .

٢ ــ المضمون الايديولوجي للحركة .

١ ــ إن حركة المقاومة مدعوة ،بعد مرور خمس سنوات على تأسيها وأكثر من سنتين ونصف السنة على دخولها عنصراً رئيسيـــاً في القتال ضد اسرائيل ،

أن تضع لنفسها خطة طويلة الأمد فقد حفلت هذه السنوات بكثير من الاختبارات في عديد من الحقول وصار ممكناً أن تضع خططها وأن تعيّن أهدافها . إن الاشكال الراهنة لعمليات الكفاح المسلح تتبلور في أشكال ثلاثة يتمم بعضها الآخر :

أ ــ أعمال عنف ضد العدو وممتلكاته في مختلف أنحاء العالم ، وهذا الأسلوب حقق نجاحاً اعلامياً في قسم كبير من عملياته .

ب ــ تجمعات عسكرية للفرق المقاتلة على طول خط وقف القتال من أجل التسلل الى المناطق المحتلة وضرب المراكز العسكرية والصناعية للعدو .

د ــ جيوب سرية تنطلق من الأرض المحتلة نفسها للقيام بعمليات محددة.

هذه الأشكال بمجموعها في نظر قادة حركة المقاومة وفي خططهم تعتبر تمهيداً لعمليات أكبر تتصاعد لتصبح في المستقبل حرباً شعبية على غرار ما حصل في الصين وفيتنام وكوبا والجزائر . فالغرض إذن هو الحرب الشعبية أي حرب العصابات على أوسع مدى وأعمقه . وفكرة الحرب الشعبية تستهوي جمهور الشعب هذه الأيام ، بعد تكرار هزائم الجيوش النظامية في ثلاث حروب متتالية ، وبعد أن يئس الشعب من اصلاح المؤسسات العسكرية . ان الأحلام التي صدمتها الهزيمة لا تلبث أن تجد فسحتها في عالم الحرب الشعبية وجميع فرق المقاومة تتحدث عن هذه الحرب . وفيما تبدو «فتح» أقلها اسرافاً فيه ، نجد المنظمات الأخرى تطيل الحديث عن تفاصيله . فالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ترى « اختيار الطريق الفيتنامي الكوبي لمجابهة حرب حزيران بحرب شعبية تمتزج فيها مهمات الطوابير النظامية بحرب العصابات الشعبية ضمن القانون العام لحروب التحرير الشعبية [1] . وجاء كذلك في كتابين أصدرتها الجبهة الشعبية الديمقراطية (حواتمه) « ان اختيار طريق الحرب النظامية ليست في صالح العرب وليست في صالح أي بلد متخلف وفقير يخوض معارك تحرره الوطني مع قوى متفوقة عليه علمياً وتكنياً [2]» .

---

(١) التقرير السياسي للجبهة الشعبية ٢ آب ١٩٦٨ ، ص ٥٥ .

(٢) حول أزمة حركة المقاومة الفلسطينية ، الجبهة الشعبية الديمقراطية ، ص ٦٧ .

و« إن الجبهة تناضل من أجل تطوير العمل الفدائي الى حرب عصابات داخل المنطقة المحتلة ضد الاحتلال عن طريق شن حرب تحرير شعبية [١]». ولا يقتصر الحديث عن الحرب الشعبية على المنظّرين العقائديين لحركة المقاومة بل يشمل كثيراً ممن هم غير ملتزمين بموقف معين ، ويكاد الأمر يصبح مطلباً عاماً وتصبح فكرة حركة المقاومة مرتبطة بالضرورة بمبدأ الحرب الشعبية . فهل تتمكن حركة المقاومة فعلاً أن تقوم بحرب شعبية في المستقبل القريب أو البعيد ؟ وهل ينتفي معنى حركة المقاومة اذا لم تتمكن من ذلك ؟ يصعب علي كثيراً أن أتصور سهولة قيام حرب شعبية في بلاد كبلادنا وفي شروط جغرافية وطوبوغرافية وبشرية كالشروط المتوفرة لدينا وأخشى أن تكون الغاية الاعلامية قد طغت على كل تفكير عملي عند الذين يتسابقون في الحديث عن الحرب الشعبية ، كما انني لا اجد مبرراً للتصور أن حركة المقاومة تفقد معناها ومبرر وجودها اذا لم تتحول الى حرب شعبية . لعل ماوتسي تونغ أعظم صانعي الحروب الشعبية في التاريخ . وقد كتب عن هذه الحرب بكثير من الدقة والتفصيل الناتجين عن خبرته العملية الطويلة فيها . ومن يقرأ ماوتسي تونغ في هذا الموضوع يستخلص عدداً من المبادىء العامة الواجب توفرها للبدء بهذه الحرب كاتساع ميدان المعارك وصعوبة التضاريس وتشابك الانهار والمستنقعات وكثرة الأودية وكثافة الغابات ... الخ . ففي حديثه عن تكتيك حرب العصابات يوصي عند ضرورة الافلات من العدو « أن نستخدم الممرات الجبلية حتى لا يرانا [٢] » . وعند نصب الكمائن للعدو يوصي بأن « نختار بقعة يكون فيها الطريق ضيقاً يخترق تضاريس جبلية مختلطة ونرسل اليه جزءاً من قواتنا للاختفاء في الجبال المحاذية لطريقه أو في الغابة كي ينتظروا حتى تعبر قواته الرئيسية عندئذ نلقي الصخور على رجاله من الجبال أو نمطرهم بوابل من الرصاص [٣] » . وفي حديثه عن التنظيم يقول : « ان الغابات الكثيفة والمستنقعات الكثيرة القصب التي نستطيع أن نختفي في أعماقها هي أكثر فائدة لهذا الغرض [٤] » . وعند مطاردة العدو يوصي بضرب مؤخرته كما يلي : « وفي التضاريس الجبلية الوعرة حيث الممرات ضيقة وحيث

---

(١) حركة المقاومة في واقعها الراهن ، ص ١٣٧ .
(٢) حرب العصابات، ترجمة ناجي علوش ، ص ١٩ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٣٢ .

تتشابك الأنهار والجداول لا يكون هناك العديد من الجسور فان قوات العدو الأمامية حتى لو أرادت أن ترتد الى الوراء فان هذه الحركة تتطلب الكثير من الوقت [١]» . وله توصية مهمة عن ميدان العمليات تقول : «لأن التضاريس المكشوفة توفر القليل من التغطية الجيدة فانه من غير المؤاتي أن تقوم وحدات العصابات بعمليات هناك. أما التضاريس المغطاة والجبلية الوعرة فانها مؤاتية ويجب أن تكون وحدات العصابات عارفة بالتضاريس في منطقة عملياتها سالكة طرقاً سرية خفية مثل الأودية والغابات والممرات الضيقة المتعرجة [٢]».

هناك اذن عنصر مهم ورئيسي في حرب العصابات وهو جغرافية المنطقة وطبيعتها الطوبوغرافية ، الى جانب أمور أخرى لا تقل عنها أهمية ويأتي في رأسها الانسان المحارب بالذات . فعلينا أن نوفر لرجال حركة المقاومة مجال درس وتأمل توصيات ماوتسي تونغ والاطلاع على تاريخ حروب العصابات واستخلاص اسباب نجاحها وفشلها وأن يدققوا ويقارنوا ويقيّموا قوانا وأوضاعنا وطبيعة أرضنا ليتمكنوا من وضع خطط عملية وحقيقية لعملياتهم . الأرض الفيتنامية أو الصينية متنوعة الأقاليم صعبة التضاريس تغطيها الغابات وتتخللها الأودية والأنهار والمستنقعات ومناطق كثيرة منها يغشاها الضباب أشهراً كاملة. أما عندنا فالأرض سهول متموجة وهضاب جرداء تخلو من الغابات والمغاور والكهوف والوديان العميقة والأنهار والمستنقعات . ان سماء منطقتنا ، عدا ذلك ، زرقاء صافية تغطيها الشمس مما يعطي فاعلية عظمى للطيران في عملياته ويجعل اقامة حرب عصابات أو حرب شعبية غاية في الصعوبة . الى جانب ذلك فالمنطقة المحتلة عام ١٩٤٨ تسكنها أكثرية يهودية ساحقة والفلسطينيون العرب يعيشون في مناطق خاضعة للحكم العسكري وتحت رقابة شديدة ويصعب كثيراً تشكيل جيوب سرية كما يصعب تنقل الأشخاص دون اكتشاف أمرهم . أما القسم المحتل بعد ١٩٦٧ فتزداد رقابة جيش الاحتلال على مناطقه وقراه وطرق مواصلاته يوماً بعد يوم ويضيق فيه الخناق على تحركات السكان .بالاضافة الى هذا فالانسان الفيتنامي ، يتساوى بذلك مع الصيني والياباني – صبور كثير الجلد على الحياة وقساوتها ،شديد القناعة ، بسيط ، يمتاز بالدقة والمهارة والطاعة

(١) المصدر السابق ، ص ٢٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٥٥ .

والانضباط ، قليل التذمر ذو ذكاء عملي ودربة على التكيّف مع أوضاع محيطه. ان الذين شاهدوا الصيني أو الياباني أو الفيتنامي في محترفه الصغير أو في المعمل أو في حقول الأرز أو يمارس هواياته يلاحظون هذه الصفات متألقة فيه ويزداد تألق هذه الصفات في حرب كالتي يخوضها الفيتناميون حيث تلهب خيالهم ووجدانهم مُثل الوحدة والحرية والتقدم ويثير شعورهم القوي اعتداء القوى الاستعمارية الاميركية على أرضهم بكل قواها المدمرة وأساليبها الوحشية. أما الانسان عندنا فمختلف كثيراً في نسيجه النفسي ـ الاخلاقي وفي كفاءاته الفطرية واستعداداته الأولية. إن استلهام الحرب الفيتنامية والاقتداء بأمثلتها في الصبر والثبات والشجاعة يجب الا يغيب عن قادتنا وجنودنا المخططين والمقاتلين وعنا جميعاً كشعب مهدد بالفناء ، لكن يجب كذلك الا تغيب عنا الشروط الموضوعية المحيطة بنا والمعطيات المتوفرة لدينا.

عندما يتأمل أحدنا الوقائع الجارية على مسرح العمليات الفدائية ويتساءل عن أسباب عدم تمكن حركة المقاومة من البدء بحرب عصابات داخل الأراضي المحتلة حتى الآن وبعد مرور ما يقرب من ثلاث سنوات على حرب حزيران لا يمكنه أن يتهم بالتخاذل أولئك الذين يقدمون دماءهم كل يوم في الميدان ، ولا بد له من تأمل المعطيات الراهنة للمعركة دون أن يصغي الى الذين يطيلون الجلوس في مقاهي بيروت ودمشق وعمان ويطيلون الحديث عن خطط الحرب الشعبية في الأرض المحتلة. ومن يقرأ بيانات الجبهة الشعبية وما يكتب نايف حواتمه على الأخص يتمنى لو أن هذا الأخير كان أكثر «تحسساً بالواقع الملموس» بسبب قربه المكاني على الاقل من ميدان العمليات ، ويتمنى لو أخذ بآراء ماوتسي تونغ في الحروب الشعبية وعمل بنصائحه. لو فعل ذلك لأقلع عن الكتابة في السياسة والحرب والاقتصاد باسلوب المعلقين الصحفيين عندنا ولتوفر هو أو من ينطق باسمهم على درس الصعوبات العملية التي تواجه حركة المقاومة في محاولتها نقل المعركة الى داخل الأرض المحتلة على نطاق واسع ونقد الخطط والأساليب القائمة من أجل تغييرها أو تعديلها. عند ذلك يكتشف الأسباب الحقيقية لتضاؤل العمليات داخل الأرض المحتلة ولانحسارها الى ما وراء النهر. ان ميدان حركة المقاومة هو الأرض المحتلة وخططها تتجه نحو هذا الميدان ونحو نجاحها فيه ولقد منحتها تجاربها خبرة واسعة ومتعددة الجوانب علينا الاستفادة منها في اعادة النظر واعادة التقييم للخطط كلها ، وليس بالطبع لغير أهل الاختصاص

أو لغير من هم في قلب المعارك قيادة وتنفيذاً أن ينتقدوا الخطط القائمة . وكل ما يصدر عن غير هؤلاء لا يتعدى كونه خواطر عامة في موضوع دقيق . ولكن لا بد من القول ان هناك قلقاً على مستقبل حركة المقاومة وعلى استمرار نجاحها وعلى توفر الخطط العملية للانتقال من الكم الى النوع ولترقية أساليب التدريب وادخال التقنية الحديثة في أعمال المغاوير وفرق التدمير واعمال الرصد والاستعلام وتنظيم أجهزة مؤهلة لهذا الغرض وعما اذا كان هذا العدد الضخم من المقاتلين في المخيمات على طول حدود وقف اطلاق النار ضروريا كله لاعمال التسلل الى الأرض المحتلة وللقيام بأعمال ناجحة ، وفيما اذا كانت هذه التجمعات الكبيرة تتوفر لها التغطية الكافية والسرية والدقة وتتوفر لها كذلك الكادرات التكنية اللازمة لتدريب رفيع المستوى .

يتهيأ لي لكثرة ما نقرأ من التصريحات الصحفية والتحقيقات عن أوضاع المخيمات وأمكنتها وعما نسمعه من غارات يقوم بها طيران العدو على مخيمات الفدائيين ومراكز تجمعهم ، أن أماكن التجمعات معروفة من قبل العدو وقد تكون معرفته بتفاصيل ودقائق الأوضاع في المخيمات ومراكز التجمع تفوق تصوراتنا جميعاً قياساً على ما اكتشفنا بعد الخامس من حزيران ان معرفته بأوضاع جيوشنا ومعسكراتنا كانت شاملة وكاملة ودقيقة . فالى اي حد هذا الأمر صحيح ، وهل يتوافق ذلك مع نجاح أعمال حركة المقاومة وهل هذه العلنية في العمل ضرورية لحركة فدائية ، وهل تخدم اغراضها الفعلية ؟ ان العدو يحاول دون شك أن يزيد كل يوم معرفته واطلاعه شمولاً وعمقاً على اوضاع الفدائيين ويخطط لعزل نشاطهم وحصره في حدود المناوشات وتبادل اطلاق النار ، عبر خط وقف القتال . ومن المحتمل أن يتوصل العدو الى هذه النتيجة اذا كان جهدنا منصرفاً بأكثره الى تجميع المقاتلين في المناطق المواجهة للعدو على امتداد خط وقف القتال ورفع ترتيبنا العددي بين القوى العربية الموجودة على طول الجبهة . لقد استطاعت منظمة «أيوكا» القبرصية ان تقلق راحة الامبراطورية البريطانية وتجبرها على منح قبرص استقلالها بقوة عددية لم تتجاوز المئتين ، وتمكن هؤلاء بدقة تنظيمهم وسريتهم المطلقة وتدريبهم العالي أن يفعلوا ما يعجز عنه الألوف ، كما مكنت دقة التنظيم واستعمال الأساليب العلمية الحديثة العدو الاسرائيلي ان يرسل «كوهين» الى قلب دمشق ليكشف اعمق اسرارها ويزود بها دولته ، كما مكن التنظيم الدقيق اسرائيل ان ترسل من ينسف

مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت وان ينجو بنفسه على النحو الذي اصبح معروفاً بتفاصيله .

٢ ـ ثم هل يفترض في حركة المقاومة باعتبارها حركة كفاح مسلح ان يكون لها مضمون ايديولوجي اي ان يكون لها وجهة نظرها الخاصة وتصوراتها الخاصة في تكوين المجتمع وبناء الدولة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، وبالتالي هل يكون لحركة المقاومة شعار تحارب في ظله واهداف تناضل في سبيلها غير اهداف تحرير الأرض المغتصبة الذي هو الدافع المباشر لتأسيس هذه الحركة ، وهل يطلب منها تبعاً لذلك ان تمارس بالنيابة عن المنظمات السياسية والعقائدية مسؤولياتها وادوارها وان تفرض عقيدة معينة من بين جميع العقائد وايديولوجية معينة من بين جميع الايديولوجيات ؟ اننا امام موقفين واضحين وضوحاً شديداً ازاء المضمون الايديولوجي للحركة : موقف «فتح» الذي يرفض ربط الكفاح المسلح بموقف ايديولوجي معيّن وموقف الماركسيين في الفصائل الأخرى الذي لا يصر وحسب على اسبقية الموقف الايديولوجي للعمل المسلح ، بل يجعل الكفاح المسلح بالذات وسيلة لتحقيق ابعاد هذا الموقف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمبنية فلسفياً على الأسس الماركسية ـ اللينينية . هذا هو وجه الخطورة في الأمر وجه الأهمية فيه ويجد الباحث نفسه ملزماً بالدخول في تفصيلات هذا الموقف لأن اصحابه يصرون على طرحه كلا متكاملا بذاته .

يتلخص موقف «فتح» في حديث أدلى به ياسر عرفات الى مجلة الصياد اللبنانية ونشرته في ٦٩/١/٢٣ يقول :

١ ـ الأرض محتلة وعلينا ان نسعى لاستعادتها وقد حملنا السلاح لهذه الغاية .

٢ ـ ان الحديث عن المضمون الايديولوجي لحركة المقاومة في الوقت الراهن انما يصدر عن يسار تبشيري وينم عن طفولة يسارية فحسب .

٣ ـ نحن في مرحلة تحرر وطني وفي هذه المرحلة يجب ان تجمّد الخلافات المذهبية التي تصبح بالفعل نوعاً من الترف الفكري حتى تحسم القضية بالتحرير وبعدها يمكننا أن نختلف ما طاب لنا الخلاف حول اليسار واليمين والاشتراكية والليبرالية وما الى ذلك .

٤ ـ هل صراعنا مع اسرائيل ناشىء عن كون نظام الحكم فيها فاشيـاً

أو عسكرياً وهل اذا وصل أهل اليسار فيها الى السلطة انحلت الأزمة ؟

هذا الموقف ببساطته ووضوحه أقرب ما يكون الى الموقف الصحيح ، فالعدو معروف والجهاد ضده واجب على الجميع . وعلى الجميع أن يجمّدوا خلافاتهم المذهبية الى أن تحسم المسألة بالتحرير . إن « فتح » في هذا الموقف المحدد الواضح ترفع عن كاهل الحركة عبء المجادلات والخلافات النظرية ونتائجها كي توجه سائر القوى لمجابهة الخطر الداهم . هنا يبرز سؤال مهم أمام هذا الموقف: أسباب الهزيمة غدت معروفة، انها التخلف في جميع الحقول والمستويات وفساد في أجهزة الحكم وفي نظم الحياة ، فكيف يمكننا أن ننتصر على العدو اذا لم نقم بثورة لاقتلاع جذور تلك الاسباب ؟ ان موقف «فتح» لا يجيب عن هذا السؤال ولكنه يترك المجال مفتوحاً للاجابة بالقول ان القضاء على عوامل التخلف والفساد في أنظمة الحكم ونظم الحياة لا يتم بمضمون ايديولوجي معيّن وبمفاهيم فلسفية او اجتماعية معينة ، وليس هناك مذهب ايديولوجي يستطيع ان يطرح نفسه سبيلاً وحيداً للتقدم . ان مسألة الخروج من التخلف الى التقدم، ومن الجاهلية التي نحن فيها الى المدنية ، ومن الضعف الى القوة ليست سراً من الأسرار تحتكره فئة معينة بل هو عمل ثوري طويل الأمد تمارسه مجموعة المؤسسات الاجتماعية التربوية والعلمية والأحزاب العقائدية وجميع وسائل الاعلام الثقافي في هذا العصر المتطور . أما الموقف الماركسي الاتجاه فيبدو لدى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ولدى بعض الفصائل الأخرى . فالجبهة الشعبيّة ترى في تقريرها السياسي الأساسي « ان مصير فلسطين تقرره حركة الصراع الوطني الذي هو في حقيقته المادية الملموسة صراع طبقي بين معسكر قوى التحرر الوطني على الأرض الفلسطينية والعربية وبين معسكر أعداء التحرر الوطني من استعمار وانظمة عربية رجعية متحالفة معه والصهيونية العالمية [١] ». اما نظرتها الى تاريخ الحركة الوطنية ضد الصهيونية فتتلخص بالقول : « وليس التحليل الملموس للوقائع بحاجة الى تحليل كل تاريخ فلسطين الحديث لتتضح عملية الفرز بين الطبقات الوطنية المناضلة والمقاتلة وبين الطبقات الرجعية المتخاذلة والمتحالفة مع الاستعمار والرجعية ضد حركة التحرر الوطني والثورات الفلسطينية [٢] » . وتعطي مثالاً على ذلك ثورة ١٩٣٦ « التي اندلعت بمبادرة

---

(١) التقرير السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، ص ٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

ذاتية من عناصر كادحة وفقيرة أبرزها رجل دين فقير هو الشيخ عز الدين القسام واستجاب لها الفلاحون الفقراء في الريف وعمال المدن . ومنذ اللحظة الأولى لاندلاع الثورة رفضت القيادات الاقطاعية ـ الدينية ـ الحاج أمين الحسيني والبورجوازية الكبيرة الاستجابة للثورة [١] » . ويتابع التقرير فيقول : « عندما ثبتت الثورة المسلحة اقدامها فرضت بالقوة على الاحزاب الاقطاعية والبورجوازية ان تجتمع وتعلن تأييدها للثورة وهنا وجدت هذه القيادات الرجعية المتخاذلة والمتهادنة مع الاستعمار بحكم كونها ترفض العنف المسلح ، وجدت نفسها غير قادرة على اجهاض الثورة من الخارج فاعتمدت خط اجهاضها من الداخل وكان لها ما أرادت [٢] » . ويفسر التقرير تاريخ الحروب التحريرية فيقول : « ان تاريخ شعب فلسطين الحديث وتاريخ حروب التحرير الشعبية في جميع البلدان المتخلفة تثبت ان طبقة العمال والفلاحين الفقراء هي الطبقة المستعدة لحمل السلاح والقتال في حرب طويلة الأمد تعتمد على الذات لدحر اعداء التحرر الوطني من امبرياليين وعملاء [٣] » .

اما الجبهة الشعبية الديمقراطية فتتحدث عن عجز البورجوازية الصغيرة في حل معضلات الثورة الوطنية وتعلن برنامجها للنهوض الاقتصادي وذلك « بتصفية الاقطاعية بأفق ديمقراطي ثوري ومنع تفتيت الأرض وخلق طبقة شرائية عريضة في الأرياف تمكن دخول البلاد عصر التصنيع . ويرتبط بتصفية الاقطاعية ضرورة قيام اقتصاد المدينة على التصنيع الثقيل والكهرباء الثقيلة لبناء اقتصاد واقف على رجليه ... الخ [٤] » . وتحدد الطريق لحل معضلات التحرر الوطني بـ « الأخذ ببرنامج العمال والفلاحين الفقراء وايديولوجية البروليتارية (الماركسية ـ اللينينية) في ظل قيادة دكتاتورية البروليتارية الثورية ممثلة بطليعتها السياسية المنظمة (الحزب الماركسي ـ اللينيني [٥]) » .

وينتهي موقف الجبهة الشعبية الديموقراطية بالتساؤل : « لماذا نقاتل ؟ نعم كيف نقاتل ؟ وبقيادة من نقاتل ؟ وخدمة لأية أهداف طبقية وسياسية نعطي

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٤ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥ .
(٣) من المصدر السابق ، ص ٤٧ .
(٤) ازمة حركة المقاومة ، الجبهة الشعبية الديموقراطية ، ص ٢١ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

دماءنا ؟ [١]». وتجيب عن التساؤل بقولها :«اننا نقاتل من اجل نظام ديموقراطي شعبي قادر على شق طريق التحرر الوطني العربي والفلسطيني وعلى مقارعة الأمبريالية بسلاح الطوابير البشرية الفقيرة والمسلحة على امتداد الأرض العربية والفلسطينية [٢]» .

كثيرة هي المغالطات التاريخية والاجتماعية الواردة في بيانات الجبهة الشعبية واكثر منها ما ورد في بيانات الجبهة الشعبية الديموقراطية . وهي مغالطات لا يجوز ان يقع فيها رواد حركة المقاومة . فالمعارك التي خاضها الشعب ضد الصهيونية منذ اكثر من ثلاثين عاماً هي جزء من تاريخ المعارك التي خاضها ضد الاحتلال الاجنبي منذ مطلع هذا القرن ابتداء بالاتراك الى الفرنسيين والانكليز ، وتصوير هذه المعارك على انها كانت معارك « بين طبقات وطنية مناضلة وطبقات رجعية متحالفة مع الاستعمار » يخالف واقع الأشياء . فتاريخ هذه المعارك في فلسطين وغيرها ما يزال حياً في النفوس وما يزال كثير من شهود هذه المعارك أحياء يرزقون . فقد قامت هذه المعارك بدافع الشعور القومي الذي هو شعور حقيقي وأصيل في جميع الشعوب والجماعات . والذين استشهدوا على ارض فلسطين وغير فلسطين في سورية ولبنان والعراق وفي مصر والجزائر وتونس وليبيا ... الخ ، لم يكونوا من طبقة واحدة . فقد بدأت الحركات الوطنية منذ فجر هذا القرن تحت اسم الجمعيات الأدبية ثم جمعيات سرية في دمشق وبيروت لمقاومة حركة التتريك التي قام به جماعة « الاتحاد والترقي » في الدولة العثمانية ،الى مؤتمر باريس عام ١٩١٣ ، الى ثورة الحسين بن علي شريف مكة ،الى المؤتمر السوري الذي وحد سوريا وبايع فيصل ملكاً عليها ، الى الثورات المتتالية ، ثورة البطل يوسف العظمة ، الى ثورات ١٩٢٥ و١٩٣٦ و١٩٤١ و١٩٤٧ من يوسف العظمة الى سلطان الاطرش وصالح العلي وهنانو ورشيد عالي الكيلاني وفوزي القاوقجي وسعيد العاص وعبد القادر الحسيني مروراً بآلاف الشهداء الذين سقطوا دفاعاً عن حرية وطنهم ووحدة ترابه . هذه الحركات وهؤلاء الابطال لم تحركهم النوازع الطبقية بل كانوا مدفوعين باحدى ابسط النوازع الانسانية واصفاها واخلدها وهي التعلق

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

بالارض والحرية ، والدفاع عن كرامة الانسان والوطن .

الى جانب هذا يدرك جميعنا بالاطلاع العادي على تاريخ المعارك ضد الصهيونية وتاريخ العمل السياسي الذي واكب هذه المعارك ، ان من أهم اسباب الهزائم التي لحقت بنا كانت الخلافات الصغرى والنزاعات على السلطة والسيطرة ، والعقليات الرجعية وهزال دبلوماسيتنا في تلك الحقبة ، هذه الأسباب وغيرها لا تبرر لأحد ان يتهم مئات الناس بالخيانة والرجعية والعمالة بمثل هذه البساطة ودونما تحقيق . ومن الحقائق الاكثر شيوعاً بين الناس ان الفلسطينيين خرجوا من ديارهم عام ١٩٤٨ لا يملكون شيئاً يذكر واصبحوا بين ليلة وضحاها متساوين في الفقر والتشرد . والجيل الذي نشأ بعد هزيمة ١٩٤٨ يعمل بمعظمه متوزعاً بين مناطق الخليج وليبيا وبقية البلاد العربية ، بعضهم نجح وجمع بعض الثروة وبعضهم لم ينجح . بعضهم ولد في عائلة فقيرة قبل النزوح وبعضهم ولد في عائلة غنية ولم يستمر الفقر في ذرية الفقراء كما لم يستمر الثراء في ذرية الاثرياء . وانه لمنطق بعيد عن الصواب ، ذلك الذي يجعل الفقر شرطاً لازماً للشعور الوطني والجهاد في سبيل الوطن ، وانه لظلم للماركسية نفسها ان نحملها مسؤولية هذه التفسيرات الطبقية المترجمة لجميع الظاهرات الاجتماعية والتاريخية . ان التطورات التي عصفت ببلادنا منذ عشرين عاماً فقلبت اوضاعها رأساً على عقب وركزت دولة اسرائيل في ارضنا وشردت اكثر من مليون انسان من شعبنا ، لاوسع من أن تفسرها النصوص الماركسية عن النزاع الطبقي . ومن نافل القول ان الحديث عن الفوارق الطبقية وعن الخصائص المتميزة لكل طبقة ، الذي يصح في المجتمعات الصناعية الاوروبية لا يصح تماماً في مجتمع زراعي كمجتمعنا ما يزال في بدء تحوله الى مجتمع صناعي . ان مجتمعنا ذو ملامح عامة واضحة . انه مجتمع طوائف وعشائر وتجمعات اقليمية وبقايا اقطاعيات ارضية تصاحبها سيطرة دينية طائفية وعشائرية ، وبدء تكون طبقة رأسمالية . وجميع هذه الفئات تشارك في صفات وخصائص عامة متشابهة . فالبنيان الثقافي – الروحي – العلمي متخلف تخلفاً شديداً مشبعاً بالوراثات الروحية والثقافية لعصور الانحطاط ، يتساوى في ذلك ابناء الريف وابناء المدن ، الفقراء والاغنياء . ويكفي أن نتأمل مفاهيمنا للدين والشرف والرجولة والشجاعة والمرأة والكرم ، وممارستنا لحياتنا اليومية وتطبيقنا للقانون ، ونظرتنا الى الوقت والرقم والعمل ، يكفي ذلك لنرى ان الحديث عن الفوارق الطبقية وعن الخصائص الطبقية

المتميزة حديث لا يجد ما يبرره في واقع بلادنا الراهن . والتفسير الماركسي للمسألة اليهودية وللخطر الصهيوني في بلادنا ، لا يعطي للقضية كامل أبعادها ، بل يقلل كثيراً من عمق الخطر الصهيوني عندما يربطه فقط بالنزاع الايديولوجي بين الشرق والغرب وبالمطامع الاستعمارية الغربية في بلادنا التي لا ترقى في جذورها الى أكثر من مائة عام . ذلك ان الصهيونية تشكل في عالم اليوم احدى أكبر قواه المنفردة ومطامعها في بلادنا عميقة الجذور في التاريخ تغذيها مشاعر دينية خرافية شديدة الرسوخ وتشكل بحد ذاتها ظاهرة غريبة في تاريخ الجماعات الانسانية وفي تاريخ الانسان الثقافي ــ الروحي ــ السياسي . ان المطامع الصهيونية في أرضنا ترقى الى نيف وثلاثة آلاف عام ، وقد حملها هذا الشعب الغريب عبر ترحاله الطويل في صلواته وأناشيده وفنونه التعبيرية ، وجرت مع نسغ الحياة فيه وقد عمل لتحقيق هذه المطامع بكثير من الدهاء والتنظيم واستغلال جميع القوى لصالحه . وتاريخ المسألة اليهودية الحديث منذ هرتزل الى الآن ، يلقي ضوءاً كافياً على الخطط اليهودية التي تمكنت من استغلال جميع القوى الدولية مع التركيز على القوة الاكثر بروزاً على المسرح الدولي . فمنذ مطلع هذا القرن حتى عام ١٩٣٩ كان التركيز على الدعم البريطاني هو واضحاً جداً لأن بريطانيا كانت الأبرز والأقوى على المسرح الدولي ، ومنذ أوائل الاربعينات الى الآن انتقل هذا التركيز الى الولايات المتحدة الاميركية للسبب نفسه . ان تبادل المنافع واضح بين الصهيونية العالمية والقوى الاستعمارية الغربية بشكل عام والولايات المتحدة الاميركية بشكل خاص وهذه المسألة يجب الا تغيب عنا بعد اليوم في كل تخطيط سياسي ولكن ذلك لا يغير من النظر الى المسألة الصهيونية ولا من طبيعتها شيئاً ، فهي في جوهرها وفي اساسها التاريخي مسألة قومية وهدفها الاستيلاء على ارضنا وطرد شعبنا منها ، وكل ما يأتي بعد ذلك من تفصيلات يدخل في باب استراتيجية العدو في الوصول الى اهدافه ، ولذلك فتفسير المطامع الصهيونية بظاهرة الاستعمار الغربي الحديث وحدها وبمسائل النزاع العقائدي المعاصر تفسير غير كاف . اذا كانت الماركسية هي احدى اعظم الثورات في تاريخ الفكر الانساني وهي كذلك ، فقيمتها الحقيقية ليست في ثبات « مقولاتها » و« قوانينها » بل بالأضواء التي سلطتها على جانب مهم من جوانب التطور الانساني وبالآثار التي تركتها في مجرى الحياة والفكر معاً . لم يكن ماركس نبياً . كان يطمح دون شك الى ان يضع تفسيراً كاملاً وثابتاً

لحركة التاريخ وان يضع لهذه الحركة قوانينها الحتمية وان يؤسس بذلك علماً مستقلا ، ولكن منذ ان وضع ماركس آراءه الى الآن ، تدفقت في النهر مياه كثيرة . فقد قضت « نظرية النسبية » على مبدأ « الحتمية » في الرياضيات العليا والميكروفيزياء ، وقضت بالتالي على الحتمية في العلم وفي الفلسفة ، ثم جاءت التطورات في العالم الاشتراكي لتقيم الدليل على ان التاريخ ليس له قوانين ، وانه لا ينبىء أحداً بكيفية تطوره . لقد تخطت الماركسية مرحلة الجادلات النظرية لتصبح جزءاً من تاريخ الانسان الثقافي ، وما هو موضوع امامنا الآن على مسرح الحياة هو الحركات الاشتراكية المعاصرة . واقصد بالحركات الاشتراكية المعاصرة مجموعة الأفكار والنظريات التي اكتمل تطبيقها أو التي هي موضع التطبيق العلمي الدائم في بلدان العالم الاشتراكي . مع ذلك ، لا يستطيع معظم ماركسيي الشرق العربي الخروج من دائرة النصوص التي حفظوها ليروا ما يحدث في عالمنا المدهش من تحولات وماذا يجري في العالم الاشتراكي على الاخص .

ان ما يحتاج اليه المهتمون بتقدم بلادهم الاجتماعي والاقتصادي ليس « النظريات الاكاديمية » وليس كذلك «النظريات العقائدية» في الاقتصاد بل النتائج العملية للتطبيقات الاقتصادية ، وما يحتاجون اليه اكثر من اي شيء آخر هو الكف عن اعتبار النظريات الاقتصادية شأناً عقائدياً وغاية في حد ذاتها . عندما يصبح المرء اسيراً للنصوص ، يجهد نفسه في حفظها وترددادها وارسالها في كل مناسبة ، لذا نجد من يستسهل الحديث عن « بناء القاعدة الصلبة للاستقلال الاقتصادي والسياسي بالتصنيع الثقيل والزراعة الممكننة وكهربة البلاد » هكذا ، بكل بساطة ، دون وعي لما تعني وتتطلب مسألة التصنيع الثقيل والزراعة المُمَكْنَنة وكهربة البلاد في بلدان العالم المتخلف. من المؤسف حقاً ان تكون هذه المعضلات الكبرى ما تزال تعالج باسلوب التعليقات الصحفية والتندر باخبار البلد . من المؤسف اكثر ان يفرض على حركة المقاومة ان تحمل أعباء هذا الجدال الذي اغرق التاريخ ولم ينته . إن الكلام على التصنيع الثقيل ومَكْنَنة الزراعة وكهربة البلاد قد اجتاح العالم الثالث في الستينات وجر على اقتصاد عدد كبير من البلدان ويلات كثيرة لم ينج منها الا من كان اكثر حذراً وتباطؤاً في الخطوات . ان بلدان العالم الثالث فقيرة بمعظمها بالمواد الأولية للصناعات الثقيلة وفقيرة بالكفاءات التكنية فقراً مدقعاً ، وتنعدم فيها المؤسسات الجديرة للدراسات الانمائية والتخطيط البعيد المدى . اما الدراسات

الديموغرافية فغير معروفة ونادراً ما تجد احصاء حقيقياً للسكان وليس فيها عناية بتطوير طرق المواصلات ودراسة مسائل التسويق الداخلي والخارجي مما يتطلبها تحويل مجتمع متخلف الى مجتمع صناعي. لا يشك أحد في اخلاص الذين يبشرون بمثل تلك الآراء، ولكنه سيكون مفيداً جداً لهم لو سافروا بأنفسهم في رحلة «استقصاء للحقائق»، بعضهم الى بلدان العالم الاشتراكي وبعضهم الى بلدان العالم الرأسمالي وبعضهم الى بلدان العالم المتخلف، وسجلوا عن كثب وبهدوء ما يرون من تطبيقات للنظريات الاقتصادية بنجاحها وفشلها: كيف؟ وأين؟ ولماذا؟ أين نجحت الصناعة الثقيلة ولماذا؟ واين فشلت ولماذا؟ وأي الصناعات أفضل لهذا البلد: الصناعات الكيميائية أم صناعة الصلب ام الصناعات الزراعية، ولماذا؟ وأين نجح تفرد الدولة بملكية وسائل الانتاج وأين فشل، ولماذا؟ وحين يدرسون كل ذلك ويتأملونه عن قرب يرون كم هو الفرق كبير بين ما تقوله الكتب وما تقوله التجربة، ويجدون ان الحاجة الى النظريات «الجاهزة» تتضاءل في حقل التطبيق حتى تنعدم.

ان ما قاله وفعله ماوتسي تونغ جدير بأن يكون لقادة المقاومة الفلسطينية ورجالها، مثالاً وقدوة. فهو، مثلاً، حين يتحدث عن العلاقة بين الصراع الوطني والصراع الطبقي يقول: «ففي حرب المقاومة يجب ان تخضع جميع الأشياء لمصلحة المقاومة ضد اليابان، وهذا مبدأ مقرر. وبناء على هذا المبدأ يجب ان تخضع مصلحة الصراع الطبقي لمصلحة حرب المقاومة ولا يجوز لها أن تتعارض معها [١]». ويقول كذلك: «يجب علينا ان نتبنى سياسة مناسبة تقضي بادخال تعديلات معينة على العلاقة بين الطبقات المختلفة، بحيث لا نترك الجماهير الكادحة دون أية ضمانات سياسية ومعيشية، وفي الوقت نفسه نأخذ بعين الاعتبار مصالح الأغنياء، وذلك كي نستجيب لمقتضيات الوحدة ضد العدو [٢]».

ويقول، فيما يتعلق بالجبهة المتحدة والتنظيم الحزبي والتنظيم الجماهيري، ان من «الضروري ان نكافح باستمرار نزعة الباب المغلق «اليسارية» كما نحقق التعاون مع مختلف الأحزاب والجماعات الأخرى المناهضة لليابان (...) ولا يجوز لنا

(١) ماوتسي تونغ، المؤلفات المختارة، الجزء الثاني، الترجمة العربية، بكين ١٩٦٩، ص ٢٧٩.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

مطلقاً أن ننظر الى الأمور نظرة ذاتية ، ولا يجوز لنا بتاتاً ان نسمح باستمرار تلك العادة السيئة « الصاق الاتهامات بصورة اعتباطية » [١] » .

ويتحدث عن الطريقة الصحيحة في دراسة الماركسية ، فيقول : « إن نظرية ماركس وانجلز ولينين وستالين هي نظرية صالحة للعالم أجمع . فلا يجوز لنا ان نعتبر نظريتهم **عقيدة جامدة** ، بل علينا ان نعتبرها **مرشداً للعمل** [٢] » .

ويتحدث عن الصلة بين الماركسية والتراث الوطني ، وبينها وبين الصفات الخاصة لكل بلد ، فيقول : « ان الصين المعاصرة قد تطورت من الصين الماضية ، ولما كنا من أنصار النظرة الماركسية الى التاريخ ، فانه لا يجوز لنا أن ننفصل عن تاريخنا الماضي . ان من واجبنا أن نلخص كل ماضينا ، من كونفوشيوس حتى صون يات صن ، وان نرث هذا التراث الثمين (...) . لا نستطيع ان نطبق الماركسية بنجاح الا **اذا ربطناها بالخصائص المحددة لبلادنا ووضعناها في قالب وطني محدد** . ان قوة الماركسية اللينينية العظمى تكمن **بالتحديد في انها مرتبطة بالممارسة الثورية المحددة للبلدان المختلفة** .. واذا ما **عمد الشيوعيون الصينيون الذين يؤلفون قسماً من الأمة الصينية العظيمة وهم مرتبطون بها لحماً ودماً** ، الى التحدث عن الماركسية **بمعزل عن خصائص الصين** ، **فان الذي يتحدثون عنه ليس سوى ماركسية مجردة جوفاء** [٣] » .

لقد ارتبطت الماركسية بالخصائص والمميزات القومية لكل بلد وتكيفت معها . غير أننا نجد مع الأسف ان ماركسية معظم الماركسيين العرب غير مرتبطة بخصائصنا ومميزاتنا القومية وغير متكيفة معها . ان مجابهة التحدي الصهيوني الذي هو تحد قومي باثارة حرب طبقية وبايديولوجيا طبقية ، توصل في التحليل الأخير الى التناقض مع الموقف القومي الصحيح ، ومع الموقف الماركسي الصحيح في آن . النظام القائم في اسرائيل نظام اشتراكي ، واشتراكية النظام الحاكم لم تمنع الجنود الاسرائيليين من ذبح اطفالنا البروليتاريين والبورجوازيين على السواء . وفيما كان الماركسيون العرب يصرحون غداة حرب حزيران بأن اسرائيل قد فشلت رغم انتصارها

---

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٩١ .

في الحرب لانهـا لم تتمكن من اسقاط « الانظمة التقدمية » ، كان الجنود الاسرائيليون يركزون اعلامهم على مرتفعـات الجولان ويبنون المستعمرات الجديدة للمقاومين الجدد في الأرض المحتلة .

ونرجو ألا يمر وقت طويل قبل ان يتعلم الماركسيون العرب من ماركسيي الامم الآخرين ان المعـارك الكبرى هي دائماً معارك قومية : معارك بين أمم وجماعات ولمصلحة أمم وجماعات ، وان الوطن اهم من النظام ، وان الامـة أعظم من العقائـد والايديولوجيات . ان الخطر الصهيوني بكل أهواله التي يحملها الينا وبالقوى الذاتية المنظمة والحديثة التي يتمتع بها وبكل الدعم الذي يلقاه من القوى الاستعمارية الأميركية الـتي تحالفه لا يمكن لشعبنا ان يتغلب عليه ما دام غارقاً في ظلام تقاليـده ووراثاته الروحية والثقافية البالية وفي فوضاه السياسية ، وما دامت بلادنا مقسّمة الى دويـلات تتنازع السيطرة الاقليمية ،ومجتمعنا ممزقاً الى شيـع وطوائف وفئات ومجموعات تتناهش السلطـة ويغتال بعضها البعض الآخر من اجل الوصول الى الحكم . علينا الا نقلـل من عمق هوة التخلف التي نعيش في قاعها ولا من صعوبة تحقيق نهضة حقيقية في وقت قصير . منذ سقوط بغداد بيد المغول قبل حوالي الف عام ، وبـلادنا تعيش في الظلام والجهل والذل والاستغلال . ونحن هـذا الجيل ، ورثة هـذه الحقبة الطويلة المرعبة من الزمن ما نزال نحمـل خلاصة تجربتها التاريخية في نسيج عقلنا ووجداننا وسلوكنا . وبالرغم من اننا نعاصر ونشاهد على مقربة منا اعظم ما وصلت اليه مدنية الانسان من اليناع علينا الا نستسهـل انتقـال شعبنا الى عالم المدنية الحديثـة بمجرد الكلام عن هذه المدنية او استعمالنـا لأدواتها ولبس ازيائها . ومما لا شـك فيه ان التطور العادي لا يكفي . اننا مدعوون للثورة ، الثورة على ارثنا الطويل من الجهـل والجمود والاستغلال وعلى بقايا الاقطاع الأرضي والسيـاسي وعلى الطبقة الرأسمالية البادئة بالتكون وعلى امراضنا وعاهاتنا الروحية والاخلاقيـة المزمنـة . ولكن الثورة هي عملية « التغيّر » بكل أبعادها العقليـة والوجدانية وبامتداداتهـا السياسية والاجتماعية والاقتصادية وبالممارسات السلوكية اليومية .

بعـد كل هذا ما هي الحكمة من توسيـع وتعميق اعباء ومسؤوليات

حركة المقاومة ؟ لماذا نريد تحميلها مسؤولية الجيوش بكاملها وهي مسؤولية ليست هنية على حركة فتية كحركة المقاومة ؟ ولماذا نريد تحميلها مسؤولية تحرير مجتمعنا من اوهام وتقاليد ووراثات قرون طويلة من الظلام بينما مؤسسات الشعب ، الأخرى تقف متفرجة ؟ وهل الحركة مهيأة لذلك وهل هي قادرة فعلاً على ذلك ؟ ولماذا نريد تحميلها مسؤولية تغيير الأنظمة ونجرها الى معارك جانبية تهدر طاقتها وحيويتها وتصرفها عن أهدافها وقد عانت البلاد العربية ما عانت خلال عشرين عاماً مضى من تغيير الانظمة دونما جدوى ، ما دام لا يرافق ذلك تغييرات جذرية في العقول والنفوس ؟ لماذا لا نساعد حركة المقاومة كي تصبح مؤسسة ناجحة ، ناجحة بالمفهوم العلمي الدقيق والمسؤول لمعنى النجاح ، وهل نعي ونقدر قيمة وجود مؤسسة ناجحة من هذا النوع في بلادنا وفي حياتنا ؟ لكم هو ضروري ان نأخذ بقول ماوتسي تونغ : « يجب ان نكرس الكثير من الوقت لاقامة الادلة المحسوسة على الاعمال والقليل من الوقت للحديث عن النظريات الفارغة [١] ».

رجا يازجي

(١) حرب العصابات ، ترجمة ناجي علوش ، ص ١١٤ .

كتب واتجاهات

بسام طيبي

الفكر والهزيمة :
آراء قسطنطين زريق في هزيمة حزيران

I

بعد هزيمة الخامس من حزيران صدرت بالعربية كتب عديدة (١) * حاول مؤلفوها اعطاء اجوبة عن التساؤلات التي تركها الخامس من حزيران . كان هناك كتاب عديدون ممن تسيطر على فكرهم عقلية المجتمعات الزراعية التقليدية ، التي يسميها نديم البيطار في مؤلفاته بالايديولوجية الغيبية (٢) . كان هؤلاء الكتاب يحاولون تفسير الهزيمة بعبارات «الخيانة» و« الغدر الصهيوني » الخ.. دون التمكن من رؤية الاسباب البعيدة للهزيمة التي تتعلق بتكوينات المجتمعات العربية المختلفة والأنظمة السياسية ونوعية التفكير السائدة في الأطر القيادية العربية .

كان كتاب قسطنطين زريق «معنى النكبة مجدداً» أحد الكتب العلمية القليلة التي حاولت تسليط الأضواء على هزيمة حزيران بعيداً عن الجو الهستيري الذي خلفته الهزيمة . رغم هذا ، كانت محاولة زريق تراجعاً الى الوراء ، وان اتخذت طابعاً علمياً ، وسنحاول في السطور التالية ان نبرهن على ذلك .

---

* الارقام تشير الى ثبت المراجع في ذيل الدراسة . للتقليل من حجم ثبت المراجع نذكر ارقام الصفحات من كتاب قسطنطين زريق . معنى النكبة مجدداً - بيروت ١٩٦٧ - دار العلم للملايين ، خلف الاستشهادات ويقتصر ثبت المراجع في الذيل على المصادر الأخرى .

II

قبل الدخول في مناقشة كتاب «معنى النكبة مجدداً» ، لا بد من العودة الى كتابه الأول «معنى النكبة» الذي أصدره عقب هزيمة ١٩٤٨ . كان هذا الكتاب آنذاك رغم نقائصه أفضل تفسير لهزيمة ١٩٤٨ . لكنه يبدو اليوم ، رجعياً . فالتاريخ لا يقف ، والفكرة التي تكون في فترة تاريخية معينة تقدمية قد تصبح هي ذاتها في فترة تاريخية لاحقة ، رجعية . لذلك فان « معنى النكبة » في مرآة ١٩٤٨ عمل فكري تقدمي ، لكنه في مرآة ١٩٦٩ انتاج فكري رجعي .

هنا نجد منطلق مناقشتنا . لا يأتي قسطنطين زريق في إنتاجه الجديد «معنى النكبة مجدداً» بشيء جديد . وقد أشار نديم البيطار قبلنا الى ذلك فقال عنه : « لم يضف شيئاً جديداً لكتابه السابق «معنى النكبة» فكان في الواقع صياغة أخرى له »(٣) . هذا مما يجعله عودة الى الوراء عشرين سنة .

أشار ناجي علوش قبل سنوات عديدة الى ان تفسير زريق الأول لهزيمة ١٩٤٨ يمتاز عن التفسيرات الأخرى لأنه «يحاول ان يفلسف النكبة ، ان يكشف عن جذور الهزيمة ويبين طريق النصر . جذور الهزيمة تكمن في الوضع العربي آنذاك ، في التفكك والانحلال وسيطرة القيادات الرجعية والخلافات المصلحية وروح المساومة . كانت الهزيمة اذن وليدة ظروف معينة ، وعليه فالنصر لن يكون حتى تتغير هذه الظروف » (٤) . يرجع زريق هزيمة ١٩٤٨ الى اطارها العام التاريخي والاجتماعي ، أي الى المجتمع العربي المتخلف وفكره الغيبي قبل العقلاني . هذا كله جعل كتاب زريق « معنى النكبة » — كما يقول نديم البيطار — « المحاولة الجدية الوحيدة في تعليل النكبة بارجاعها الى التركيب الاجتماعي العام الذي يسود المجتمع العربي »(٥) .

لكن زريق الذي استطاع الوصول الى اسباب الهزيمة البعيدة ، لم يستطع حتى آنذاك ، الوصول الى استراتيجية عامة للتغلب على الأوضاع التي خلقتها الهزيمة وعلى الأوضاع التي خلقت الهزيمة . لم يستطع ، لأنه ليس ثورياً ، ومن ثم كانت حلوله وسطية . اراد زريق تغيير الأوضاع الاجتماعية العربية دون أن يحمل لواء الثورة ، لذلك بقي فكره العلمي سجين الأوضاع السائدة ، لا يجرؤ على مغادرتها ، بل يعجز عن ذلك . كانت مطالبة زريق عام ١٩٤٨ بالاخذ بالتكنولوجيا الحديثة والعلوم الوضعية وفصل الدين عن الدولة (٦) مطالبة ذات طابع ثوري ، لكن الطريق الذي رآه كان تقليدياً ، ان لم يكن رجعياً . ويصعب ، عن طريق الأساليب التقليدية ، تغيير اوضاع مجتمع تقليدي قبل–صناعي . ان تغيير الأوضاع الاجتماعية يتطلب رؤية ثورية تمهد لتغيير ثوري ينفي الوضع السابق .

يرى زريق ، بوصفه من القائلين بالليبرالية الوسطية ، في الزعامة السياسية البرلمانية الحكيمة وفي الحياة الحزبية الليبرالية الديمقراطية البرجوازية سبيلاً للوصول الى المجتمع العلماني الحديث . فهو لا يرى أن العلمنة لا تتم الا عن طريق ثوري (٧) . وناجي علوش محق عندما يقول ان الشعارات التي طرحها زريق عام ١٩٤٨ « تعتبر متخلفة في هذه الايام ... فالحياة الحزبية ، بمعناها التقليدي ، أعجز من ان تحقق انقلاباً في المجتمع العربي وفي النفس العربية ، والنضال اليوم هو ليس نضال زعامة حقيقية ... انه نضال جماهير » (٨) . اما نديم البيطار فيؤكد على أن تحليل زريق قد بقي مكبلاً بالفكر التقليدي وان معالجته لهزيمة ١٩٤٨ « لا تزال بعيدة عن تصور أساسي للمعالجة التي تفرضها النكبة ، تطل عليه ولا تدخله ، انها اقتراحات ... ذات أثر ثوري ، ولكنها ليست نظرية منسقة في تفسير النكبة وتعليلها »(٩) .

III

لننتقل الآن الى كتاب زريق الجديد « معنى النكبة مجدداً » . ان زريق كما أشرت في بحث سابق لا يأخذ على نفسه في هذا الكتاب عناء التطرق الى المناقشات التي جرت حول كتابه الأول ، ولو بكلمة واحدة (١٠) مما يجعل تمسكه بالعلمية نوعاً من الواجهة اللفظية لا غير .
يضع زريق المسألة على المستوى الحضاري ، اي المستوى الذي انطلق منه عام ١٩٤٨ في كتابه الأول . يقول زريق « الواقع الذي لا محيد عن تيقنه والاقرار به هو واقع حضاري . هو ان مجتمعنا العربي والمجتمع الاسرائيلي الذي نجابهه ينتميان الى حضارتين مختلفتين » (صفحة ١٣) .
هذا الفارق الحضاري هو – في رأيه – محتم ، لاختلاف المستوى العلمي الذي وصلت اليه المجتمعات العربية عن مستوى اسرائيل العلمي . لذلك يشير الى ان الفارق الحضاري هو « فارق في الاخذ بالحضارة الحديثة ، أي في مجال العلم والعقلانية الذي تتميز به هذه الحضارة ، وبما يولده العلم والعقلانية من قدرة مادية وبشرية على الطبيعة وعلى الانسان » (صفحة ١٤) . ومن هنا يأتي بمنطلقه القديم ، أي الحث على الاخذ بالعلم كمحتوى لكل حضارة متقدمة ، وكون العلم الطريق الوحيد للخروج من اوضاع التخلف السائدة في المجتمعات العربية التقليدية التي هي في طريق الانحلال . يقول « ومثل السياسة والاقتصاد والحرب ، كل ناحية أخرى من حياة الشعوب . ان سنة الحياة الحاضرة تقضي بأن تكون كل منها مبنية على العلم ، العلم المنتظم المنظم ، المتسلط بقدرته الذاتية ، وبما يفجر من قدرات طبيعية وبشرية » (صفحة ١٦) .

غير أن مفهوم الحضارة هنا كمفهوم العلم ، متأرجح في الهواء . العلم كما يفهمه زريق هو أساس الحضارة ، والحضارة العربية هي حضارة تقليدية منحلة لا تقوم على العلم فهي التي سببت ، اذن، هزيمة ١٩٤٨ وهزيمة ١٩٦٧ .

ان نقطة الضعف الأساسية في تحليل زريق هي جعله العلم المحتوى الاول والاخير لكل حضارة ، وهو يرفض الموضوعة القائلة إن كل حضارة وكل ثقافة تحمل طابعاً طبقياً . والتطرق الى الحضارات دون التطرق الى محتواها الطبقي ليس الا ميتافيزيقية برجوازية تتقنع بالعلم .

ان هزيمة ١٩٤٨ كما أشار نديم البيطار وغيره من الكتاب التقدميين هي هزيمة الانظمة الاجتماعية والسياسية للاقطاعية العربية . وهذه الناحية المهمة لا يتطرق اليها زريق بكلمة واحدة . المطالبة بالمجتمع العصري يجب ان تبين بكل وضوح من هي الذات التي ستحقق هذا المجتمع العصري ، والا تكون المطالبة بالعصرية والعلم والتكنولوجيا نوعاً من الشطح الفكري .

كل نظرية تحمل في الحقيقة طابعاً طبقياً حتى ولو أنكر صاحب هذه النظرية – ذاتياً – هذا الطابع الطبقي . فمن الناحية الموضوعية تبقى كل النظريات نظريات تمثل مصالح ووجهات نظر طبقات اجتماعية. وتحليل زريق الذي يرفض الطبقات هو في حد ذاته تحليل طبقي . لقد أشار نديم البيطار في معرض نقده لزريق الى ان زريق يوحي بأن علينا « الاعتماد على البرجوازية في تحقيق هذه التطورات » (١١) التي فرضتها الهزيمة . هذه الناحية في تحليل زريق تظهر بكل وضوح في تأوهات ضد الاشتراكية التي تصدت – حسب رأيه – للحركة القومية البرجوازية « فبلبلتها ونشرت فيها التشتت والانقسام » (صفحة ٢٩) . وهذا مما يثير نقمته ، وهو يرى « النزاع الطبقي يتغلب على وحدة الامة ، واذا الرابطة القومية تعجز عن ضم شمل «التقدميين» و«الرجعيين» و«المتحررين» و«غير المتحررين» ، فلم يعد ممكناً جمع الصف العربي سواء في القمم او في السفوح ، وتعثرت القضية القومية وخذلت » (صفحة ٣٠).

هكذا قضت الحركة الاشتراكية – كما يرى – على الحركة القومية البحتة قبل ان « يعي المجتمع وعياً كافياً متطلباتها وفروضها . وهي فروض نزعم انها متصلة أوثق الاتصال بالعقلانية والعلم والتقنية » (صفحة ٣١) .

القومية العربية ايديولوجية المثقفين البرجوازيين العرب التي كانت وما تزال مرتعاً للفكر اللاعقلاني وللشوفينية والعقلية قبل الصناعية الزراعية ، تتحول فجأة لدى زريق الى نظرية تتصل أوثق الاتصال بالعقلانية والعلم ، بينما تتصل في الحقيقة أوثق اتصال بالفكر الرومانسي الذي أخذه المفكرون القوميون العرب عن الفكر الرومانسي الالماني الذي عارض بالقومية الالمانية ، الفكر العقلاني الذي اتت به الثورة الفرنسية وعصر التنوير وعقلانيته (١٢).

يعتقد زريق ان الحركة الاشتراكية العربية فشلت فهي لم تستطع حسب قوله « تحديث المجتمع الى الحد الذي يستطيع به أن يجابه أخطار المجتمعات الحديثة » (صفحة ٣٣) ولهذا ينصح زريق ضمناً بالتخلي عن الاشتراكية ، اذ ان « الدعوة التي يجب ان تتقدم على كل دعوة أخرى ... هي الدعوة الى العلم الحديث والانتاج المنتظم الزاخر . هوذا عندنا السبيل الأضمن للتحرر » (صفحة ٣٣) ولا يلبث زريق أن ينتقل من الهمس ضد الاشتراكية الى الهجوم عليها بصوت عال ، فيقول « من الضير ... ان نأخذ باحدى الايديولوجيات القومية او الاشتراكية دون أن نكفل لأي من هذه المذاهب ... الأسس العلمية التقنية الانتاجية » (صفحة ٣٣/٣٤).
من خلال هذه الاستشهادات يظهر المحتوى الرجعي لكتاب « معنى النكبة مجدداً » بكل وضوح . كذلك نجد هنا سطحية بالغة في التحليل . فزريق الذي يطالب بالأخذ بالعلم لا يأخذ على نفسه التمسك بدقة التحليل . فهو يشير الى أن الاشتراكية فشلت في تحقيق المجتمع العصري ، لكنه لا يتحدث عن نوع الاشتراكية التي يعنيها . الاشتراكية الموجودة في جميع البلدان العربية اشتراكية زائفة ، أساسها بضعة قوانين تأميم ، وليست الاشتراكية بالمعنى الثوري الشامل على كل ما هو موجود . الاشتراكية العربية طبعة جديدة للايديولوجيا القومية الرومانسية ، وليست نظرية ثورية . ثم إننا حالياً في مرحلة التحرر الوطني ، والاشتراكية هي الاستراتيجية البعيدة المدى . ولكن الوظائف الآنية هي حالياً الكفاح ضد الامبريالية بقيادة الطبقات الشعبية . فالتحدث عن فشل الاشتراكية او نجاحها لا يمس ، اذن ، المسائل الحادة المطروحة حالياً . والاشتراكية أخيراً ، نظرية ثورية ، وهي ليست ايديولوجية كباقي الايديولوجيات . والحديث عن تطبيق العلم والتكنولوجيا بغض النظر عن النظام الاجتماعي الذي ستتم فيه عملية بناء الدولة العصرية ، وبغض النظر عن الفكر الذي يحدد عملية البناء هذه ، هو نوع من الغيبية الميتافيزيقية.

IV

المحتوى الرجعي لكتاب زريق يمكن تلخيصه بنقطتين رئيسيتين :

اولاً : يفسر زريق كل شيء بمقولة الأمة . الأمة عنده وحدة متكاملة : الطبقات الحاكمة والمحكومة ، التقدميون والرجعيون كلهم يتحدون تحت شعار «الأمة» . هذا التفسير خطير جداً وأنا أوافق نديم البيطار في قوله انه « من اخطر النتائج التي تترتب على دعوات ... في مرحلتنا الحالية (هي) الايحاء بان العامل القومي يعني التعاون الطبقي ... لا مندوحة لنا من اعطاء العامل القومي مضموناً جماهيرياً اشتراكياً ثورياً . ان تجاربنا الثورية في العقد الحالي ... انهت الى غير رجعة الثنائية بين العامل القومي والعامل الاجتماعي الطبقي ، فتمازج الاثنان في وحدة عامة» (من النكسة الى الثورة ص ٩٤)

ثانياً : يعتقد زريق ان الصراع الطبقي قد أضر بالمجتمع العربي وبوحدته . بل انه يذهب الى أبعد من ذلك فيوحي لقرائه بأن انعدام وحدة الامة لدى عدوان حزيران ١٩٦٧ هو الذي سبب الهزيمة بشكل غير مباشر . وانا اعود هنا الى مناقشة نديم البيطار لكتاب زريق وأؤكد معه ان مفهوم النكسة الذي يأتي به زريق «يرجع بنا عشرات السنين الى الوراء . فالدعوة

القومية «تعثرت» وخذلت ... ليس لانهـا مارست النزاع الطبقي بل لانها تباطأت وتأخرت جـداً في ممارسته ، ولأنها ، ثانياً ، عنـد ممارسته كانت تمارسه بتردد ». وزريق يجعل الصراع بين العناصر التقدميـة والعناصر الرجعية احدى العثرات الرئيسية في سبيل التحرر الوطني . فوجود جبهات تقدمية ورجعية قد أضعف ، كما يقول « المجهود العربي العام ، والمجهود العربي الخاص بفلسطين» (صفحة ٦٣) . فهو يطالب بشكل لا يحتاج الى مزيـد من الوضوح بايقاف الثورة وايقاف النضال من اجل المجتمع الحر ، ويقترح التآخي بين التقدمية والرجعية من أجل وحدة « الامـة ».

الشيء القيم الوحيد الذي يبقى في كتاب زريق هو دعوته للأخذ بالعلم الحديث ، لكن حتى هذه الدعوة تبدو بلا أساس . وهذا يظهر بكل جلاء عندما يشرح الطريق الذي يراه ملائماً لتحقيق الدولة العصرية القائمة على العلم . فنجاح الدعوة للعلم مثلا يتعلق ، كما يرى بـ «الايمان بها» (صفحة ٣٥) والايمان بالعلم (كأن العلم دين يؤمن به الداعي له) يكتمل عندما تتدخل الدولة لمساندة هذا «الايمان» . وهو يشير الى نوعية وطبيعة الدولة التي يعنيها : الدولة الرجعية المستقلة شكلياً ورسمياً والمستعمرة عملياً ؟ أم الدولة الجماهيرية في مرحلة التحول الاشتراكي ؟ السؤال هنا لا يهم ـ كما يبدو ـ زريق مطلقاً . فللدولة ـ بحسب رأيه ـ مهما كان طابعها وظيفة هي « ليست ادارة شؤون المجتمع فحسب ، بل العمل على تحويله وبنائه » (صفحة ٣٦) ، ويتناسى أن الدولة هي دائماً ذات طابع طبقي ، تسيطر عليها طبقة لاضطهاد طبقة أخرى (١٣). ان دعوة زريق للعلم تبقى ، هكذا ، كما يشير نديم البيطار ، دعوة تبشيرية « هي من قبيل الشعارات فقـط ، الشعارات التي تطفو على سطح تفكيرنا مجردة من مضمونها الثوري وحسب ، بل من مضمونهـا الاصلاحي كذلك (١٤) .

ان طرح قضية العلم وقضية الدولة العصرية دون التعرض الى المحتوى الاجتماعي لكل منهما ودون ربط قضية العلم بقضية التحرر يجعل دعوة مثل دعوة زريق للعلم شيئاً لا يمكن النظر اليه بجدية . اذا اخـذنا عرض صادق جـلال العظم في كتابه « النقـد الذاتي » لقضية الدولة العصرية وكيفية ربطه لهابقضية الثورة،فاننا سنلاحظ الفارقالنوعي بين تحليلات زريق وتحليلات العظم.الأول ينادي بالعلمولا يتمسك به حتى لدى التحليل، والثاني ينادي بالعلم ويلتزم به ويـكافح من أجله كعالم ثوري ويـكلفه الكفاح حتى الطرد من الجامعة التي كان يدرس فيها في بيروت، بينما يبقى زريق كأحد أعلام هذه الجامعة.

ان زريق لم يكتف بعدم التطرق الىالمناقشات التي جرت حول كتابه الأول «معنى النكبة» بل انه لم يجد داعياً للتطرق الى مناقشات كتابه الثاني «معنى النكبة مجدداً». ففي مقـال نشره زريق حديثاً في مجلة الآداب (١٥) يعيد أفكاره السابقة ، ومرة أخرى دون اضافة شيء جديد. مشكلاتنا كلها هي في نظره «غياب دولة العقل» ولا يشير هنا كذلك حتى بكلمة واحـدة الى نقاده . فلا وجود لهؤلاء النقاد بالنسبة اليه . وهو الانسان الوحيد في العـالم الفكري العربي وتحليله هو التحليل الوحيد الموجود . الآخرون اشباح وكتبهم أساطير ، أما «معنى النكبة» و« معنىالنكبة مجدداً » فهما وحدهما الكتب العربية الوحيدة التي صدرت في الربعالقرنالمنصرم.

بسام طيبي

المراجع

١ - أهم هذه الكتب : نديم البيطار ، من النكسة الى الثورة - بيروت ١٩٦٨ - دارالطليعة (يناقشه اليــاس شاكر في « مواقف » عدد ٣ صفحة ١٦٠ - ١٦٤) صادق جلال العظم : النقد الذاتي بعد الهزيمة - بيروت ١٩٦٨ - دار الطليعة (يناقشه جمال شرقاوي في «الكاتب» عدد يناير ١٩٦٩ عدد ٩٤ سنة ٩ - صفحة ٧٥ - ٨٢) كذلك لطفي الخولي : ٥ يونيــو الحقيقة والمستقبل - القاهرة ١٩٦٨ دار الكاتب العربي . بينما يلتزم البيطار والعظم باسـلوب الكتابة العلمية ، فان اسلوب الخولي صحفي سريـع ، وبينما يعرض كل من البيطار والعظم آراءهما بصراحة وينتقدان الانظمة العربية القائمة ، يحاول الخولي تغطية اخطاء هذه الانظمة ، وهذا مما نستغربه من كاتب عربي تقدمي مثله .

٢ - نديم البيطار : الفعالية الثورية في النكبة - بيروت ١٩٦٥ - دار الاتحاد ايضـاً نديم البيطار : من النكسة الى الثورة - بيروت ١٩٦٨ - دار الطليعة .

٣ - نديم البيطار : من النكسة الى الثورة - المصدر الآنف الذكر - صفحة ٩٥ .

٤ - ناجي علوش : المسيرة الى فلسطين - بيروت ١٩٦٤ - دار الطليعة - صفحة ٦٧-٦٨ .

٥ - نديم البيطار : الفعالية الثورية - المصدر الآنف الذكر - صفحة ١٤٧ .

٦ - قسطنطين زريــق : معنى النكبة - بيروت ١٩٤٨ - دار العلم للملايين خاصــة صفحة ٤٤ - ٥٤ .

٧ - انظر نديم البيطار : نحو علمنة انقلابية - في : مواقف عدد٢ صفحة ٣٤-٥٠ .

٨ - ناجي علوش : المصدر الآنف الذكر - صفحة ٦٩ .

٩ - نديم البيطار : الفعالية الثورية - المصدر الآنف الذكر - صفحة ١٤٨ .

١٠ - انظر بسام طيبي : في الفكر العربي المعاصر ، مواقف عدد ٣ صفحة ٩٣ - ١١٧ بهذا الشأن انظر صفحة ١٠٠/١٠١ .

١١ - نديم البيطار : من النكسة الى الثورة - المصدر الآنف الذكر - صفحة ٩٨ .

١٢ - هذا الموقف الذي اتخذه هنا يتعارض مع مواقفي السابقة . ففي ابحاث سابقة اخذت موقفاً ايجابياً من الايديولوجيا القومية . انظر خاصة بسام طيبي: اطروحات حول الوحدة العربية - مساهمة اشتراكية لمناقشة القضية القومية العربية - في دراسات عربية - السنة الرابعة - العدد الاول ١٩٦٧ - صفحة ١٠١ - ١٠٧ .وانا اقوم هنا بنقد ذاتي اذ ان ابحاثي المتعمقة عن القومية أثبتت لي ان الايديولوجيا القومية تحمل بذور الرجعية والشوفينية دائماً ، أي عكس تحليـلي السابق . لكن رفض الايديولوجيا القومية لا يعني انكار وجود شيء اسمه القضية القوميــة ، ولا يعني العدمية القومية ، فأنا ما زلت من المؤيدين المتحمسين للوحدة العربية، وهذا لا يتعارض مع انكاري للايديولوجيا القومية . فالوحدة العربية تتم بحسب رأيي على أساس الثورةالاجتماعية ، وليس على أساس «الدم العربي».

١٣ - انظر بسام طيبي : حول جهاز الدولة والثورة الاشتراكية في : الحرية - عدد ٤١٦ - السنة التاسعة - ١٩٦٨/٦/١٠ صفحة ١٤ - ١٥ .

١٤ - نديم البيطار : المصدر الآنف الذكر - صفحة ٩٨ .

١٥ - قسطنطين زريق : غياب دولة العقل في : الآداب - السنة السابعــة عشرة - العدد الاول - ١٩٦٩ ، صفحة ٢ - ٣ .